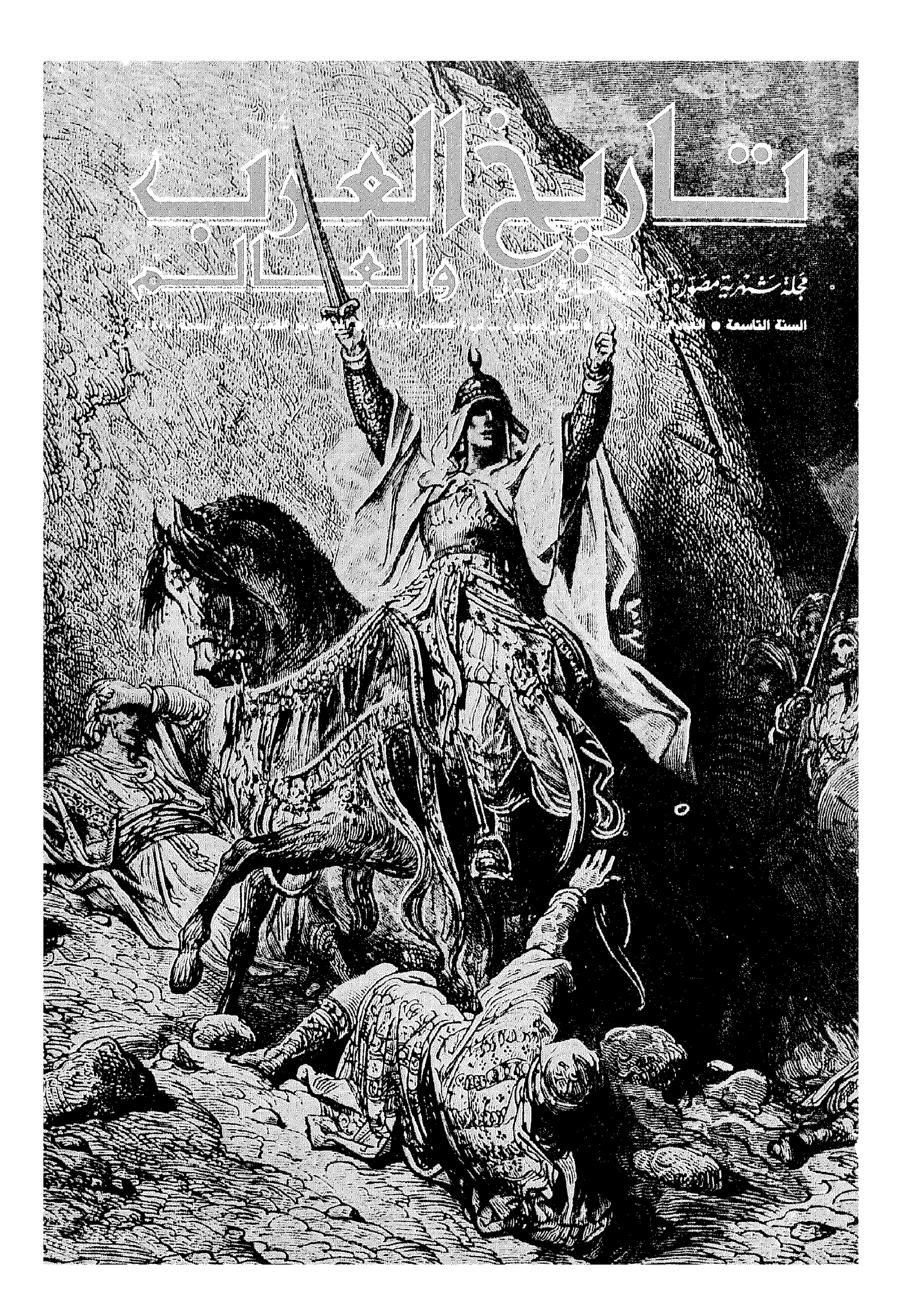
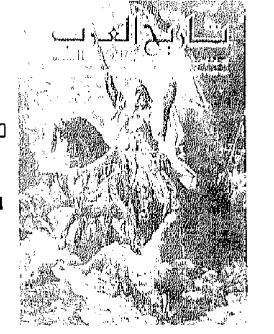


تاريخ العرب والعالم
مجلة شهرية مصورة
السنة التاسعة

● الصليبيون يهاجمون إحدى القلاع الإسلامية.

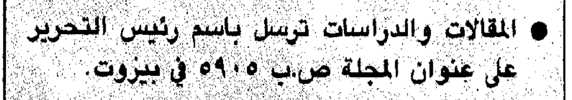


الغلاف الأول

□ القائد صلاح الدين الأيوبي.

من مجلة:

L'histoire No. 47, Juillet/Août 1981



● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ١٠٥/١٠٦ ● تموز ــ آب ١٩٨٧

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

البلد	السعر	البلد	السعر
لبنان	٢٠٠ ل.ل.	سوريا	٣٥ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الإمارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ٥٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ١٠٠٠ دولار
- تدفع قيمة الاشتراك مقدما نقدا أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ــ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 9, No. 105/106, July-Aug 1987

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب، مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب، تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط ■



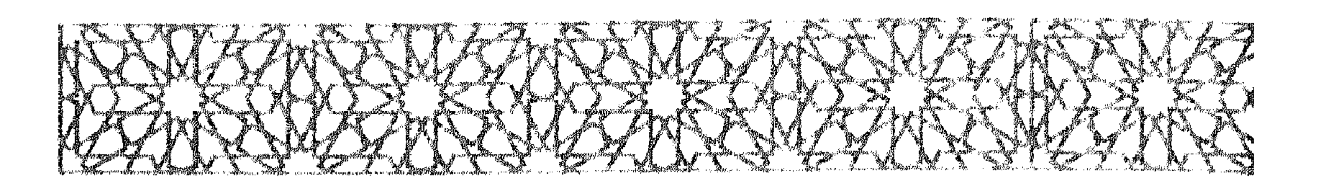
العرب يحتفلون في دمشق بالذكرى المئوية الثامنة لمعركة حطين

إن العمل من أجل الوحدة هو العمل الأكثر ثورية والأشد خطورة والأسمى هدفاً

فاروق البربير



□ الرئيس حافظ الأسد.



قال أحد أبرز أساتذة التاريخ الذين شاركوا في ندوة حطين التي عقدت في تموز/يولية بدمشق: «إن التاريخ أعجز وأعظم من أن يعيد نفسه».

وهذا صحيح تماماً بالقدر نفسه الذي يصح به القول بأن المستقبل مصبّ لخبرات الماضي، وقدرة الحاضر على رؤيته رؤية عميقة واعية، وأن أمة تقرأ تاريخها قراءة حضارية بصيرة جدير بها ــ في يوم ما ــ أن تشكّل مستقبلها على النحو الذي يتوافق مع مكانتها التاريخية، ويحقق آمال أجيالها الساعية إلى المشاركة في تكوين الحضارة الإنسانية الشاملة على نحو أفضل.

وبعيداً عن سذاجة شعار «إن التاريخ يعيد نفسه» ولكن في عمق الوعي العلمي تاريخياً وسياسياً بأبعاد الجوامع والفوارق، كان لا بد من التوقف أمام سمات جمعت بين مشروع إنشاء الدويلات الصليبية في بلاد الشام وبين المشروع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين، وكيف كانت موقعة حطين منعطف التحول الأكبر في مسار المواجهة العربية الإسلامية للمشروع الصليبي، والحاجة الراهنة إلى تمثّل تلك التجربة ــ لا تقليدها ــ في توفير أسباب الانتصار وعوامله على المشروع الصهيوني الجاثم على صدر الأمة منذ اربعين عاماً.

لذلك دعت وزارة الثقافة السورية، بمناسبة الذكرى المئوية الثامنة لمعركة حطين، إلى ندوة علمية عقدت بدمشق في المدة من ١١ إلى ١٩٨٧/٧/١٣، شارك فيها عدد كبير من أساتذة التاريخ والاقتصاد السياسي والعلوم العسكرية من مختلف أنحاء الوطن العربي، فضلاً عن مشاركة الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، واتحاد المؤرخين العرب.

ونظراً لأهمية هذه الندوة فقد حرصت مجلة «تاريخ العرب والعالم» على أن تضع بين يدي قرائها عدداً خاصاً عنها، يضم مجموعة من البحوث والدراسات التي قدمت فيها، تمثل جوانب تناول معركة حطين من النواحي التاريخية والسياسية والعسكرية. وقد تم اختيار هذه المجموعة وفق الاعتبارات الفنية والتقنية للمجلة من حيث الحجم والسعة، ولعل بعض البحوث التي لم تنشر في هذا العدد تكون محل عناية في الأعداد القادمة.

وبسبب من حرص وزارة الثقافة السورية على السمة العلمية للندوة لم يكن حفل افتتاحها ــ خلافاً لكثير من الندوات والمؤتمرات ــ اعتلاءً لمنبر الخطابة الرنانة، ولكنه كان كأي من حلقات الندوة لقاءً فكرياً عبّر فيه المشاركون بالافتتاح عن رؤى علمية واضحة للحدث التاريخي وأبعاده الحضارية والسياسية.

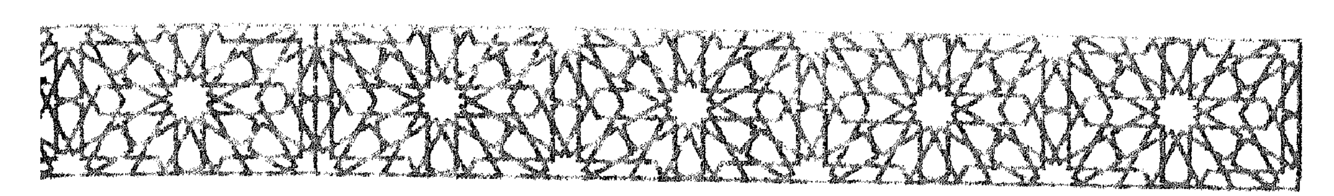
ولقد افتتحت الندوة صباح السبت الواقع في ١٩٨٧/٧/١١، في قاعة المحاضرات بمكتبة الأسد، برعاية السيد الرئيس حافظ الأسد الأمين العام للحزب رئيس الجمهورية ومثّله الدكتور محمد زهير مشارقة نائب رئيس الجمهورية.

وحضر حفل الافتتاح عدد من أعضاء القيادتين القومية والقطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، وعدد من أعضاء القيادة المركزية للجبهة الوطنية التقدمية وعدد من السادة الوزراء.

كما حضر الافتتاح السيد الشاذلي القليبي الأمين العام لجامعة الدول العربية ورئيس جامعة دمشق، وعدد من أعضاء مجلس الشعب ومن سفراء الدول العربية والأجنبية المعتمدين بدمشق

وقد ألقى السيد الدكتور محمد زهير مشارقة نائب رئيس الجمهورية كلمة افتتاح الندوة حيا فيها ذكرى موقعة حطين المجيدة التي حقق العرب فيها بقيادة البطل العظيم صلاح الدين الأيوبي نصراً مؤزراً على الصليبيين أعداء الأمة العربية، ونقل تحيات سيادة الرئيس المناضل حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي رئيس الجمهورية إلى المشاركين في الندوة وتقديره للجهود التي بذلت لإنجاحها

بعدها ألقت الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة كلمة أشارت فيها إلى أن الحروب الصليبية هي النسخة السابقة للحروب الصهيونية اللاحقة التي شنتها إسرائيل والهدف منها واحد هو الاستعمار والاستيطان والاحتلال، وأكدت أن دمشق كما كانت في زمن صلاح الدين منطلق وحدة وتحرير ستكون في





□ الدكتورة نجاح العطار

زمن حافظ الأسد منطلق وحدة وتحرير، ولن يتأبد احتلال الصهيونيين كما لم يتأبد احتلال الصليبيين، كما ألقى السيد الشاذلي القليبـي الأمين العام لجامعة الدول العربية كلمة أشاد فيها بمبادرة سورية بقيادة السيد الرئيس حافظ الأسد.

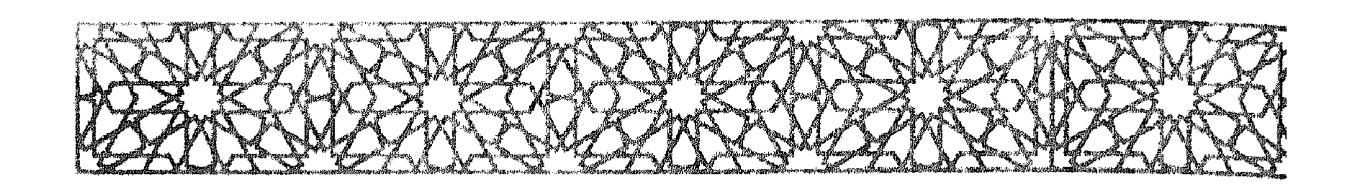
وألقى الدكتور مصطفى عبدالقادر النجار الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب كلمة نقل في مستهلها تحيات المؤرخين العرب للمشاركين في ندوة حطين مؤكداً أن صلاح الدين الأيوبـي حقق وحدة عربية قوية.

كلمة د. نجاح العطار: وزيرة الثقافة

إن الخطاب في أقصى مداه كتاب والكتاب في غايته خبر والأخبار في السيوف لا في الكتب صدقها وهذا الصدق يختصر مجد الكلمة لأنه يختصر مجد المعركة هذه التي في غمارها النصر والفتح وفي ضوئها الشبوب والوهج وفي حسمها يبدأ تاريخ وينتهي تاريخ وفي ذكراها ننحني احتراماً للدم الطهور الذي أشعل بأرجوانيته النيران في التربة.

وقالت إن ذكرى حطين كانت شهادة لا تنقض على أن ما أخذ بالسيف فبالسيف يسترد وتلك حكاية الحكايا لقوم يعقلون وخلاصة الخلاصة في تاريخ كل الأمم وكل الشعوب وكل الذين ينهضون بعد قعود ويجتمعون بعد فرقة ويتوحدون بعد شتات ويرفعون لوثبتهم منارة هي الأعلى في المنارات لأنها منارة الوحدة التي ليس بعدها بعد.

وقالت الدكتورة العطار إن صلاح الدين هو في معجزة ما صنع بطل كل القرون والدهور والأزمان وحروب امتدت وأناخت وأزهقت وتطاولت كأنها الليل الأبدي فإذا به في موقعة واحدة يقطع سلسلتها بمدية شجاعته ويقشع ظلمتها بمصباح بطولته وينهي أمرها بضربة حاسمة ما عرفت مثلها ضربات الأبطال الذين حسموا المعارك في أزمانهم.



وأضافت أنه كان ذا عزم لا يلين وشجاعة ندرت بين الشجاعات وحكمة فيها العقل والرؤية والتدبير وكما كان يقول المؤرخون يرى في التحرير قضية وليس مغامرة عسكرية وفي الحرب التحريرية اختياراً لكل طاقات الأمة وإمكاناتها المادية والمعنوية وقد عمل قبل أن يتوجه إلى قتال الأعداء على توفير كل مقومات النجاح وفي أساسها الوحدة التي هي حجر الزاوية.

وأشارت إلى أن انتصار حطين قد فتح الطريق لكل الانتصارات التي تلته بفضل وحدة العرب والمسلمين وما كان قادراً على الاستمرار لولا النهوض الشعبـي الذي رافقه وإن أحلام الفرنجة في الأمة وفي احتلالهم للمشرق العربـي قد عصفت بها رياح وحدة الكلمة ووحدة الموقف ووحدة الاندفاعات العربية الإسلامية وأن الحروب الصليبية هي النسخة السابقة للحروب الصهيونية اللاحقة التي شنتها إسرائيل والهدف منهما واحد هو الاستعمار والاستيطان والاحتلال.

وقالت إن معركتنا مع العدو دائرة منذ أربعين عاماً وستظل دائرة إلى أن تبلغ النصر فالأرض التي انجبت صلاح الدين الأيوبـي أنجبت أيضاً جمال عبدالناصر وحافظ الأسد الذي جاء ليكمل رسالة عبدالناصر في التحرير والتوحيد وإنهاض العرب وإعدادهم للمعركة وقد خبر تجربة عبدالناصر وأفاد منها وبرهنت تجربته هو عن نفسها وأعطت مصداقيتها في حرب تشرين وما قبلها وما بعدها وفي هذا الصمود الرائع امام كامب ديفيد وأمام الهجمة الامبريالية الشرسة وإجرام إسرائيل المنكر وكل المـؤامرات والضغوط.

وأضافت أن حافظ الأسد بطل مرحلته كما كان عبدالناصر بطل مرحلته وإن التاريخ سيحفظ لحافظ الأسد في أشد صفحاته إشراقاً ذكراً خالداً لأنه هو بما أوتي من صادق العزم والنية والأبحاث سيبقى في المجلين من سيرة أبطالنا وفي الشجعان من ملاحم قادتنا ومن هنا ثقتنا وثقة العرب العميقة بخطه النضالي الصلب والصامد.

وقالت إن احتفالنا بالتاريخ وبقائده وبوحدته ومعركته الشهيرة مناسبة للذكرى والعبرة لا للحسرة والرجعى ومناسبة للعمل والبذل لا للتباهي والتفاخر وكذلك مناسبة لشد العزائم لا لتراخيها وللإصرار على ما يجمع لا على ما يفرق وعلى ما يوحد لا على ما يشتت وسنبلغ بهذه الإرادة الصلبة ما نسعى إليه ونجاهد في سبيله وهو الوحدة والنصر وتحرير الأرض واسترداد الحقوق.

وأضافت إن دمشق كما كانت في زمن صلاح الدين منطلق وحدة وتحرير ستكون في زمن حافظ الأسد منطلق وحدة وتحرير وسنتخذ قرار معركتنا على مدى من وحدتنا وقوتنا وتوازن استراتيجيتنا ولن يفت في عضدنا تصرم الأعوام فنحن نعرف الحساب ونجيد قراءته ونعرف إن تطاول زمنه هو لنا وفي مصلحتنا وأن العقود لا شيء إذا كانت القرون لا شيء ولن يتأبد احتلال الصهيونيين كما لم يتأبد احتلال الصليبيين ما دامت المعركة بيننا مفتوحة وستظل مفتوحة جيلاً فجيلاً فجيلاً وسنلبـي نداء التاريخ وسنمضي معه إلى الأمام دائماً لأنه في مبرم حكمه لم يقف ولم يتراجع إلى وراء أبداً.

وأشارت الدكتورة العطار إلى أن هذه ندوة لحطين لكنها في المآل ندوة لدمشق وكل عاصمة عربية وكل مدينة وبلدة وقرية عربية ونحن إذ نستعيد ذكرى حطين نعرف أن الخطر على حدودنا والنار موجهة إلى صدورنا وعدونا هناك في الأرض المحتلة وأنه في مطامع الصهيونية كما كان في مطامع الصليبية مشروع للتوسع والاحتلال من النيل إلى الفرات ومن المشرق إلى المغرب.

وأضافت إن الخطر على حدودنا كبير داهم وعلى العرب وكل العرب الذين يعز عليهم بيت المقدس والأراضي المقدسة والمسجد الأقصى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة وكل المقدسات المستباحة أن يهبّوا وينهضوا ويحشدوا ويبذلوا ويصنعوا حطين عصرنا كما صنع صلاح الدين حطين عصره. ●



زقاق في القدس العتيقة بريشة غوستاف دوريه

من الغزو الصليبي إلى الغزو الصهيوني وبالعكس

بقلم: د. شاكر مصطفى

ذات يوم من صيف ١٩٦٩ كنت في المكتبة الشرقية في بيروت اختار بعض الكتب الفرنسية حين وقع لي كتاب صغير من مائتي صفحة اسمه الإسلام والصليبيات لمؤلف لم اسمع به بين العلماء اسمه عمانويل سيفان! ووضعت الكتاب بين ما اخترته من الكتب وسألني الكتبي وهو يضع قائمة الحساب هل اصر عليه؟ إنه غال؟ ووافقت، فموضوعه ضمن اهتماماتي! لكني لم اتصور ان يكون الثمن في ذلك العهد اربعين ليرة لبنانية. واعترف انني صدمت ولم استطع التراجع. فكان أول ما فعلت ذلك اليوم ان ارى ما في هذا الكتاب!

وفوجئت فيه بعدد من الكشوف لو دفعت ثمنها الألاف لكان ذلك رخيصاً رخيصاً.

أولها: إن الجماعات اليهودية التي تحتل فلسطين تدرك تشابه غزوها واحتلالها للبلاد مع الغزو والاحتلال الصليبيين. تدركه بوضوح وتعالجه جدياً في المنظور العلمي كتجربة رائدة.

ثانيها: إنها تدرس الموقف، في الشرق العربي الإسلامي، في جذوره وتحلل عناصره لتتفادى نهاية كنهاية حطين وما بعد حطين.

ثالثها: ولعل الأهم أن ثمة فرق عمل كاملة في الجامعة العبرية تتخصص في هذا الموضوع على رأسها جوزيف براور صاحب كتاب تاريخ المملكة اللاتينية في القدس (وهو في مجلدين بالعبرية نشر سنة ١٩٦٣). وتستعين هذه الفرق بالعلماء المتصهينين في الجامعات الغربية لهذا الغرض فلهم مراكز بحث ومستشارون في جامعة باريس لدى العالم اليهودي كلود كاهن وفي الجامعات الأخرى الأميركية امثال: أشتور شتراوس وبرونشفيك وكيستر وأيالون المختص بالعصر المملوكي وغويتاين الذي كتب عشرات الأبحاث حول قدسية القدس والصليبيات واليهود والإسلام...



هـذه النقلة من الغزو الصليبـي إلى الغزو الصهيوني وبالعكس يجد فيها اليهود الغارقون في التوراة، وفي الحق التاريخي طقساً من طقوس العبادة. إنها عندهم نقلة بين التاريخ وبين المستقبل وليست تهمهم الصليبيات بالطبـع بوصفهـا صليبيات وإنمـا تهمهم بوصفها رموزاً تاريخية، وبوصفها إسقاطاً على المستقبل. زاوية اهتمامهم محصورة فيها في نقطة وحيدة: كيف تم طرد الصليبيين من هذه البقاع نفسها التي يحتلونهـا؟ لهذا لا يهمهم بحثها الذي قتله الغربيون بحثاً ولكن تهمهم الرمال المتحركة تحت الغزاة في فلسطين وحول فلسطين. الاستيطان ووسـائله في الأرض هي الهاجس المؤرق. إن جذور الحاضر موجودة في الماضي وممدودة إلى المستقبل. دراساتهم كلها ها هنا محورها.

إنهم يدرسون معنى الجهاد وكيف استيقظ في المشـرق العربـي؟ ومـدى حيويتـه في الشـام بالذات؟ وتأثير فكرة الجهـاد قبل الصليبيـات وأثناءها وبعدها؟ يحللون مدى قدسية القدس وعناصرها في نفوس المسلمين وردود فعلهم ضد الاحتلال الغريب؟ يرون كيف تمت الهدنات وتم التعايش الفرنجي ـــ الإسلامي أولاً وكيف انقلب ذلك حروباً وجهاداً من بعد رغم تطاول الزمن؟ كيف تحول مفهوم الجهاد القديم فحَلَّ في مفاهيم جديدة ألهبت النـاس؟ يبحثون عن مـرتكزات الدعاية التي حولته دينياً إلى عنصر كره للفرنج؟ وعن جذور الترابـط في المنطقـة من مصر إلى العراق وعن أسباب توحدها في حطين وما بعدها؟ بـل يحللون «نصر» عين جـالوت ضد المغـول ويلحقون بالتحليل الفتاوى الشـرعية ويحللون أسباب سقوط عكا الأخير سنة ١٢٩١ وخروج آخر الصليبيين على آخر المراكب في المشرق... يبحثون عن أسباب ذلك وجذوره حتى في لاوعي الشعب نفسه..

ولاحقت أعمال الجماعة الصهيونية في الأسئلة التي تطرحها فإذا بين هذه الأسئلة:

ـــ لماذا لم تستيقظ فكرة الجهاد في العصر الحمداني إلا على الثغور والحدود رغم دعاية سيف الدولة ورغم خـطب ابن نباتـة وأشعار المتنبـي؟ ولم استيقظت في العصر الصليبـي في دمشق وحلب خاصة؟.

ـــ لمـاذا أخـذ الجهـاد الشكـل الدفـاعي السلبـي والمحـدود قبل الصليبيـات؟ ثم أخذ الشكل الهجومي الواسع بعدها؟

ـــ كيف أقيمت الصلة بين فكرة الجهاد وبين قدسية القدس؟ مع أنها لم تكن موضوع جهاد من قبل؟ ولا موضوع قدسية!

ـــ ماذا زادت الصليبيات من العناصر على قدسية القدس لدى المسلمين؟.

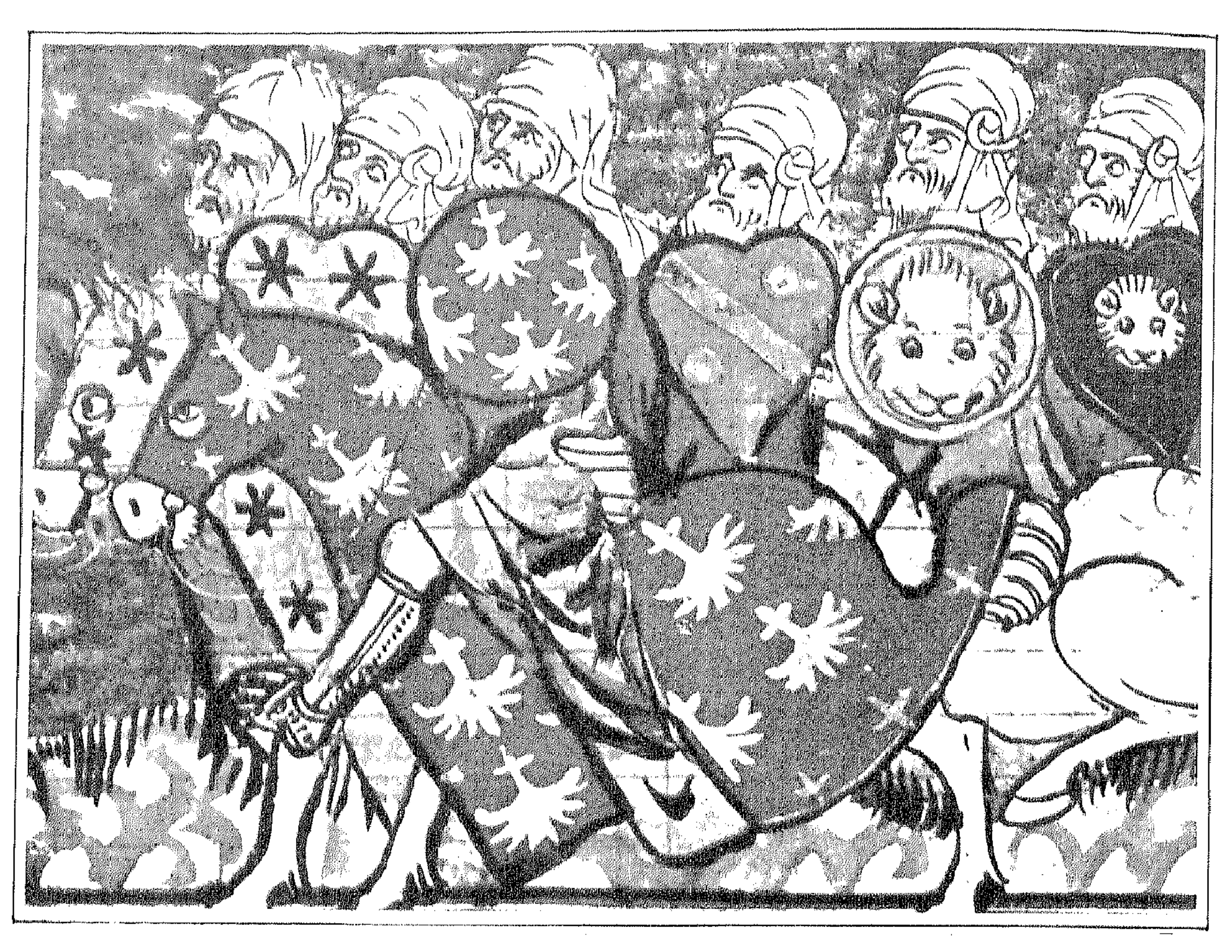
ـــ لماذا كانت معركة منذكرت (ملاذكرد) سنة ١٠٧١ نصراً إسلامياً نسيه الناس بسرعة مع أنها كانت معركة حاسمة أسر فيها امبراطور بيزنطة لأول مرة ولآخر مـرة في التاريـخ بيد سلطان السلاجقة ملك شاه ولماذا لم تثر المعركة فكرة الجهاد لدى أهل الشام والعراق خاصة؟.

ـــ لماذا لم يذكر علماء الإسـلام في القرن الثاني عشر فكرة «طلب الشهادة» بين دوافع الجهاد؟ ولم يذكروا القدس؟ إن أعمال ١٢ عالماً في ذلك العصر لم تذكر ذلك. لم يذكرها إلا عالم داعية هو عزالدين السلمي في العهد الأيوبـي. والإمام النوري أيام بيبرس!

ـــ ما موقف الشرع الإسلامي من الأموال الإسلامية التي تقع في يد الكفار هل تبقى ملكا للمسلم مهما طال العهد أم هي غنائم للمتحاربين؟ المذهب الحنفي وحده يجعلها غنائم لكن استعادة القـوى الإسلاميـة لتلك الأموال تعيـدهـا إلى أصحابها. ومع ذلك فإن زنكي رغم أنه حنفي أعـاد أملاك معـرة النعمان سنـة ١١٣٦ إلى أصحابها وابنه محمود وهو مثله في الحنفية أعاد أملاك أغزاز سنة ١١٥٠ لأصحابها. فما تفسير ذلك؟.

ـــ ما معنى ألا نجد لدى الشعراء الذين رثوا الدولة الحمدانية عند سقوطها أي ذكر للجهاد؟ ويذكر الكرم وحده؟...

ولاحقت نصـوص التراث الذي تتـداولهـا المجموعة الصهيونية بالدراسة فإذا التراث الذي نتصور أنه نائم في دمائنا وفي أدراجنا هو لديهم كيان كامل على المشرحة... يستنطقونه ويحكمون علينا من خلاله. يدرسون:



□ ابناء صلاح الدين في منمنمة عربية.

— خطب الجهاد منذ عهد الفتوح مروراً بالحمدانيين حتى العهد المملوكي.

— كل الكتب التي ألفت في الجهاد أو كتبت عنه ويتوقفون بخاصة عند كتب الجهاد التي ظهرت قبيل العصر الصليبي وخلاله ومن بعده؟ وبخاصة عند كتاب الجهاد الذي ألفه علي بن طاهر السلمي النحوي (المتوفى حوالي سنة ٤٩٨ — ٤٩٩) والذي كان يدرسه في دمشق في الجامع الأموي في ١٢ جزءاً أثر الاحتلال الصليبي للقدس مباشرة (وقد أخذوا صورة الكتاب من المكتبة الظاهرية ونشروا بعضه سنة ١٩٦٦). هذا الرجل كان أول من قال أن الحركة الصليبية واحدة في الأندلس وصقلية والشام. قالها قبل ابن الأثير بمائة سنة!.

ويدرسون كذلك كتاب أحكام الجهاد وفضائله لعزالدين السلمي وكتاب الجهاد لكاتب مجهول من العهد نفسه وكتاب الجهاد الذي وضعه القاضي بهاءالدين بن شداد لصلاح الدين الأيوبي، ضمن كتابه دلائل الأحكام فكان كتاب المخدة عنده لا يفارقه، ويتساءلون لماذا لم يضع ابن شداد في هذا الكتاب كلمة واحدة عن القدس؟ ولا قال هو ولا أحد قبله أن الجهاد من أركان الإسلام الأساسية إلا الخوارج وإلا علماء العصر المملوكي؟.

— وبين ما يدرس الصهيونيون كل الكتب التي تتحدث عن فضائل الشام والقدس ومقارنتها بمكة والمدينة. ويلاحظون أن الاسم في زيارة مكة هو الحج وفي القدس لا أكثر من زيارة! ويحللون في هذا السبيل خمسة وثلاثين كتاباً تتحدث عن فضائل القدس والشام. ككتاب ابن الجوزي «فضائل القدس الشريف» وتقي الدين بن تيمية «قاعدة في زيارة القدس». والكنجي الصوفي «فضائل بيت المقدس وفضل الصلاة فيها» وشهاب الدين المقدسي «مثير الغرام في فضائل القدس والشام»، وأبي إسحق إبراهيم المكناسي «فضائل بيت المقدس»، وعزالدين السلمي «ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام»، وابن المرجي «فضائل بيت

المقدس والخليل»، وابن الفركاح إبراهيم الفزاري «باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس» وهجيرالدين العليمي «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل»...

— وبين ما يدرسه الصهيونيون دواوين الشعراء. يلاحقون حتى الصغار منهم. لا يهملون المتنبي والمعري لكنهم يدرسون الغزي وديوان ابن النبيه، وابن الساعاتي، وابن الخياط، وابن سناء الملك، والبوصيري وابن عنين والبهاء زهير، وعمارة اليمني، والملك الأمجد، وسبط ابن التعاويذي وغيرهم وغيرهم ممن عاشوا الفترة الصليبية لعلهم يكشفون آثارها في قوافيهم...

— ويدرسون مؤلفات العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل والثعالبي وابن جبير ورسائل ضياءالدين ابن الأثير وكتاب الإشارات للهروي ورسائل ابن عبدالظاهر وكتابات أسامة بن منقذ وخطب عبدالرحيم ابن نباته.

— ويدرسون كتب الفقه والفتاوى بخاصة التي أصدرها العلماء كالإمام النوري وكتاب المغني لموفق الدين بن قدامة.

— ويدرسون ويسألون حتى السير الشعبية ويرونها منجم المشاعر العميقة للجموع المقاتلة. يرون فيها المرآة الحقيقية. فهل فتح أحد منا قصة الأميرة ذات الهمة (سيرة المجاهدين وأبطال الموحدين)، أو سيرة عنترة، أو فتوح الشام للواقدي أو فتوح الشام الأخرى للأزدي البصري، أو قصة علي نورالدين المصري مع مريم الزنارية... إنه سيرى فيها ما يكشفه الصهيونيون من المشاعر؟ أنهم يصلون حتى إلى تحليل النكات والنوادر! لماذا كل هذا العناء والجهد؟ ليس العلم وحده هو ما يقصدون وإلا كانت لديهم آلاف المواضيع الأخرى الجديرة بالدراسة. أنهم يتحسسون في الصليبيات ونهايتها وَجَعهم، قلقَهم، مصيرَ الغد!.

إن عقدة الصليبيات تلاحقهم. تؤرق استقرار المشروع الصهيوني كله. توغل وراءه فيوغل وراءها بحثاً ودرساً. السؤال الأساسي المطروح: كيف يتخلصون من مصير مملكة القدس الصليبية وتوابعها؟ كيف يأمنون من حطين أخرى مقبلة؟... كل قرون الاستشعار في هذا الأخطبوط الوحشي موجهة نحو الحروب الصليبية بالذات. يريدون أن يعرفوا كيف نبتت خيول حطين وامتطتها العواصف؟ وكيف عبرت مملكة القدس إلى التاريخ المنسي من الباب الخلفي فلم يبق لها من أثر؟ كان الناس عند وصول الفرنج إلى الشام أكواماً من الرمال ذَرَّتْها السيوف الصليبية مع الريح. فكيف تحول مواطنو الريح هؤلاء إلى كتلة صخرية صلدة تحطم عليها الفولاذ الفرنجي فجأة ومرة واحدة؟ دايان قال سنة ١٩٦٧ أن جيوشه انساحت خلال القوى العربية كالسكين في الزبدة، فهل تتحول الزبدة قنبلة تذهب بالسكين وصاحب السكين؟ هذا القلق المصيري سببه أن اليهود الغارقين في التاريخ والمعتمدين في استراتيجيتهم الدعائية على التاريخ يريدون أن يخرجوا من نفق التاريخ!...

إسرائيل تبحث عن المستقبل وهي مندفعة بكليتها نحو الماضي. دينها، لغتها، رجالها، قيمها، تشريعها، صلواتها، شمعدانها، رموزها، وطواقي رجالها كلها موصولة، مع الماضي بخيط عنكبوتي ممدود. لهذا تشكل الصليبيات جرحها الذي تريد ان تتجاوزه.. إنها تريد التسلل من أحد الثقوب في التاريخ (وما أكثر الثقوب) إلى هذا العصر...

ويعرف الصهيونيون، يدرسون، يحللون كل التوازيات بين الصليبيات الغربية وبين الصهيونية ويتوقفون عند النهاية المأسوية يريدون تفاديها، إنهم وهم المهرة في استخدام التاريخ وليِّ عنقه، يحاولون أن يهربوا من لحظته الأخيرة! فأين يبدأ هذا التوازي وأين ينتهي؟.

سآتي على التشابهات فقط وأترك التباينات القليلة وهي ناجمة عن اختلاف العصرين.أن كل الاستراتيجية والتكتيك الصهيونيين موجودان في الصليبيات.

انا لا نكاد نجد في التاريخ حركة كالحروب الصليبية كان نصيبها من الخيال وتأثير الأسطورة بقدر نصيبها من الآلام والمآسي إلا الحروب الصهيونية. والغريب أن مكان الكارثتين واحد هو فلسطين ولسنا نحتاج إلى أي جهد في التقاط التوازي الذي يصدم العين بين المغامرة

الصليبية الفاشلة والمغامرة الصهيونية التي تقلدها. المغامرتان من نسيج واحد. يكفي أن نقرأ قصة إحداهما لتقفز الأخرى أمامك على الأسطر، على كل سطر وفي النقاط والفواصل. وإن شئت تحركت في الحديث قافزاً من هذه إلى تلك ومن تلك إلى هذه دون أن تحس بأنك تقفز ٨٠٠ أو ٩٠٠ سنة بعواصفها وأثقالها. دعونا نمشي في المغامرتين خطوة خطوة: إن التشابه يَبْدَ هُنا منذ الخطوة الأولى.

القضية الصهيونية في منظورها الشامل إنما هي مشكلة أوروبية داخلية خالصة وجدت حلها في عمل خارجي وعلى أرض خارج أوروبا. والقضية الصليبية بدورها إنما هي مشكلات أوروبية داخلية بدورها حلت على الطريقة ذاتها. التكاثر السكاني قبل الصليبيات مع تدهور الزراعة وانتشار المجاعات وكوارث الطبيعة والأوبئة سنوات طويلة بعد أخرى وتعاظم المشاعر المدنية بالإضافة إلى الظلم الإقطاعي وتراكم الديون الربوية وكثرة الفرسان، ولا أرض للفرسان فيما الحروب الداخلية تفترس الأمن والبشر... كل ذلك كون مشكلة اقتصادية — اجتماعية حادة حلت على حساب المشرق. تماماً كما حلت أوروبا مشكلة التكاثر السكاني وحقد الأوروبيين على اليهود المرابين ومشكلات العمال الفقراء في شرق أوروبا والزحام القومي الهتلري وكلها غارقة في الجذور الاقتصادية بإلقاء هذه الفضلات البشرية — في نظرها — من النافذة على الجيران!.

٢ — ونمضي خطوة أخرى لنرى أن الحركة الصليبية شملت كل أوروبا. في الصليبيات تحركت جموع شتى من مختلف الأمم الأوروبية من السويد والنروج كما من انكلترا وفرنسا ومن المانيا والدانمرك وقلب المجر كلهم تحركوا نحو إغراء المشرق! لم تكن الحركة ثماني حملات كما يزعمون. كانت مدداً لا ينقطع وسيلاً من البشر يتحرك على السفن وفي البر على مدار السنوات المائتين التي امتدتها الحروب. قد تكون الحملات بدورها أكثر من مائتين أو ثلاثمائة حملة صغيرة وكبيرة لبضعة ملايين بعضهم حجاج وبعض محاربون وكثير منهم تجار أو مغامرون وأكثرهم فقراء. الكل نزحوا وراء حلم يمتزج فيه المسيح برفيف الذهب! هل يذكركم هذا بمجموعة الأمم التي تحشد منذ مائة سنة في فلسطين، بابل القرن العشرين، لغاتٍ وأجناساً، وعادات ومن كل زوج غير بهيج؟ وتُحشدُ وراء حلمٍ يمتزج فيه الإله يهوا بطائرات الفانتوم؟.

٣ — وكما انتصب للصليبيات قائد فكري في شخص البابا أوربان الثاني الذي أعلن الحركة في مجمع كليرمون سنة ١٠٩٥ وحدد لها الطريق والهدف النهائي: فلسطين أرض المسيح، أطلقها وترك لمن بعده المسير بها و تحمل عقابيلها، وكذلك كان للصهيونية رائدها الفكري في شخص تيودور هرتزل الذي كتب لها كتاب الدولة اليهودية سنة ١٨٦٧ ثم أعلن في المؤتمر الصهيوني الأول سنة ١٨٩٧ في بال أن مكان هذه الدولة هو فلسطين: أرض إسرائيل... كان هرتزل هو بابا الصهيونيات أطلقها وترك للآخرين مهمة التنفيذ .

٤ — ونصل إلى العامل الديني في الحركتين الصليبية والصهيونية لنرى أشكالاً لا تنتهي من التوازي والتشابه تحتاج إلى التوقف الطويل والتعداد الطويل:

أولاً: ما الذي رفعه الصليبيون هدفاً وما الذي رفعه الصهيونيون؟ شعار واحد رفعه الطرفان: الصليبيون تحركوا لتخليص القبر المقدس والصهيونيون تحركوا لتخليص الهيكل المقدسي ولو أنه لم يبق منه — إلا في الذاكرة التوراتية — شيء على الأرض! الايديولوجية التي رفعت في المشروعين واحدة:

وراء كل من الشعارين حشد لا ينتهي من المشاعر الدينية المتقدة ولكنها تتمركز في النهاية في كلمة محددة، وفي نقطة من الأرض محددة بدورها. وكما سمى الصليبيون فلسطين أرضَ المسيح يعنون بذلك أنها أرضُهم، كذلك يقول الصهاينة أنها (أرتز إسرائيل) أرض الميعاد. بوعد توراتي لا يزول.

ثانياً: إذا كانت الحرب الصليبية أول حرب ايديولوجية، بعد الفتوح الإسلامية، وكانت هذه الايديولوجية دينية بالضرورة ولم يكن بالإمكان تحريك الجموع في العصور الوسطى الغارقة في

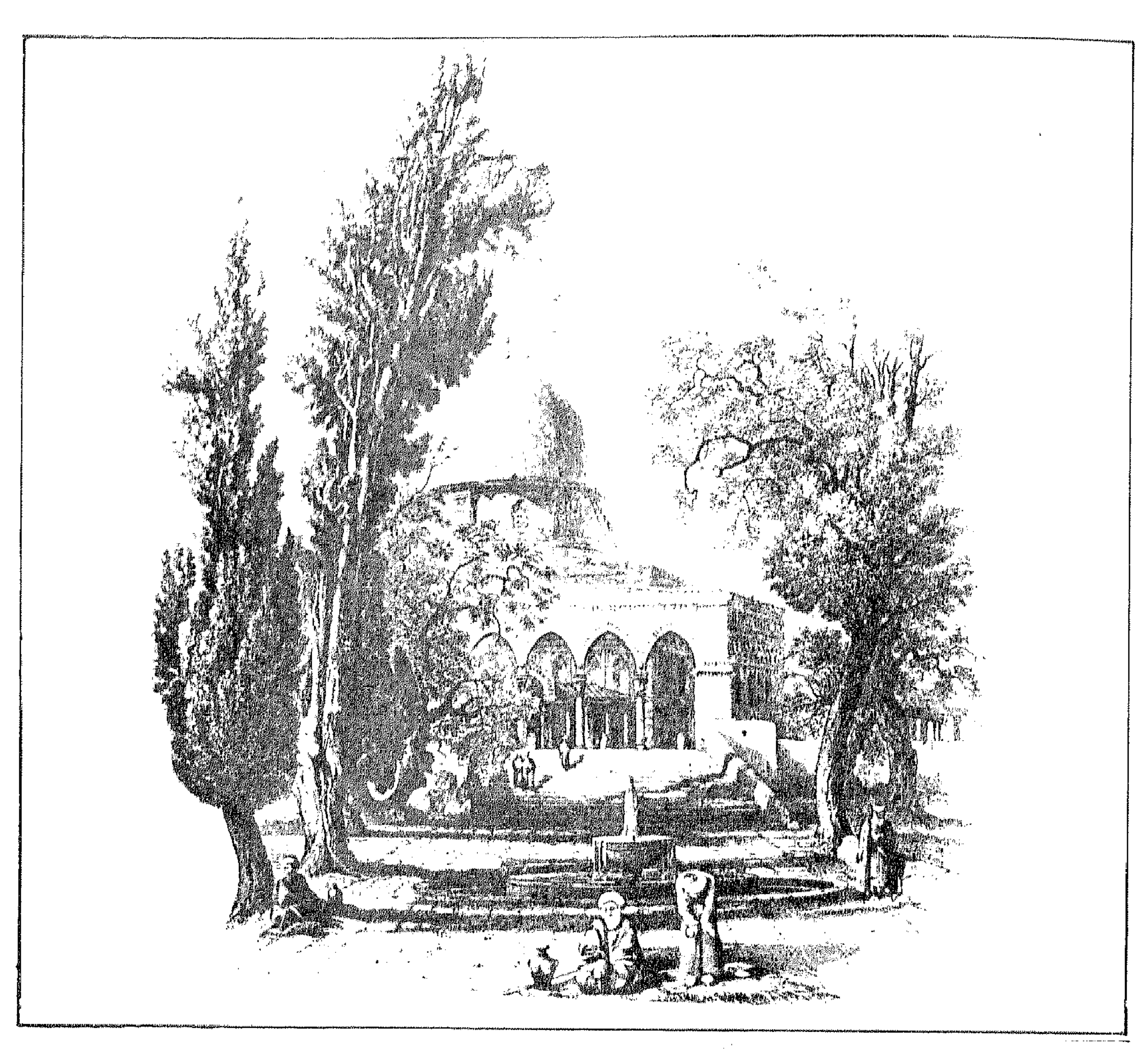
الدين دون ايديولوجية دينية فإن هذه الايديولوجية نفسها قد استخدمت من قبل الصهيونية في تحريك آخر جماعة متحجرة مغلقة من الجماعات الأوروبية وهم اليهود للغرض نفسه في الحرب الصهيونية القائمة. محور الإثارة عند الطرفين هي فلسطين والقداسة فيها للقبر أو للهيكل.

ثالثاً: لم تحمل الحروب الصليبية هذا الاسم الديني أبداً لا في عهدها ولا بعده. في القرن السابع عشر ولأسباب تبريرية دينية شاع هذا الاسم ليغطي برداء الصليب فترة مائتي سنة من المآسي والحروب ليس لها ما يبررها. المسلمون الذين عاصروها والكاثوليك الغربيون الذين شنوها كانوا على السواء يسمونها باسمها: الأوائل يسمونها حروب الفرنج والآخرون يسمونها المآثر والأعمال التي تمت فيما وراء البحار، أو التي تمت في الشرق أو أعمال الفرنجة. الحركة الصهيونية بدورها لم تسم نفسها الحركة اليهودية وسمت نفسها الحركة الصهيونية ولو أن العنصرية اليهودية المتزمتة تلفها بكلمات التوراة وإسرائيل والناموس والشمعدان السداسي العتيق.

صحيح أن الحرب الصليبية معقدة الدوافع كالحركة الصهيونية سواء بسواء، ولو جُمعت مختلف دوافعها بعضها إلى بعض لوجدت أن العامل الديني قد يأتي بين العوامل الأولى لا سيما في فترة الإعداد وأيام الحملات الأولية وقد يعصف بالنفوس تارة بعد أخرى. لكن العوامل الدنيوية كانت هي التي تعصف بهذه النفوس نفسها تارات. والخليط الصليبي كالخليط الصهيوني متباين الطبقات والمشارب، فيه المغامرون والحجاج واللصوص والتجار والنبلاء والمحاربون وشذاذ الآفاق والرهبان والهاربون من العدالة والباحثون عن الثروة وفي كل واحد من هؤلاء جانب ديني قد يلتهب في بعض الظروف لكن من الذي يكبح الجوانب الأخرى المادية اللاأخلاقية أو الوحشية في ظروف أخرى؟... وهكذا كانت ايديولوجية الصليبيات الدينية غطاء مناسباً وإن يكن احياناً غير منافق لأطماع النبلاء بالأرض، والرهبان الكاثوليك بالانتشار والسيطرة على كنيسة المشرق، والتجار بالربح والامتيازات، والفلاحين العاديين بالخلاص من الديون ومن المجاعات ومن الظلم الإقطاعي والفوز.. في النهاية بالسماء! أليس هذا هو الوضع الصهيوني نفسه؟.

رابعاً: الصليبيات بدأت حجاً إلى القبر المقدس تحول إلى حج مسلح ولقد استغلت الحج وشجعته الأساطيل البحرية الايطالية النامية على مياه البحر المتوسط (من جنوية وبيزيه والبندقية وكاتالان). تذهب ملأى بالحجاج وتعود من الشرق ملأى ببضائع الشرق من فلفل وبخور وأفاريه ونسيج وزجاج... صارت سيدة البحر الغربي بعد أن انهزمت القوى العربية الإسلامية في الأندلس وتضاءلت أساطيلها أو انقطعت أحياناً ما بين شمالي أفريقيا والمرافىء الاسبانية، وخرجت فرخشنيط وجبل القلال في جنوب فرنسا وجزر الباليار من السيطرة الإسلامية. فأين إذن الحج المقدس وأين القبر المقدس نفسه حين طوحت هذه الأساطيل نفسها بالصليبيات وبرضاء الصليبيين إلى القسطنطينية مرة وإلى مصر مرتين وإلى تونس أيضاً. فهل كانوا يحسبون أن القبر المقدس انتقل إلى هناك؟ وفي الحركة الصهيونية ألم يكن الحج والحج المسلح إلى حائط المبكى وبقايا الهيكل هما بدء الطريق إلى وعد بلفور ثم إلى أحداث ٤٨؟ ألم تكن العملية الاقتصادية الاجتماعية من تجارة وحلول للمشاكل العمالية والأطماع المادية هي وراء الهجرة الصهيونية ووراء أخذها الأرض واحتلالها النقب وتوسعها في المصانع والزراعات؟ بعد أن تخاذلت القوى العربية سنة ٤٨ وما بعدها؟ أم أنهم يبحثون عن الهيكل في تونس أو عينتبي أو حول المفاعل الذري ببغداد؟.

خامساً: ضمن هذا الإطار الديني نفسه: يسمي الصليبيون أنفسهم في النصوص بفرسان المسيح «والشعب المقدس» و «شعب الرب». ألا يسمي الصهيونيون أنفسهم: بشعب الله المختار.. مقابل الغوييم الهائم الذين هم كل البشر الآخرين؟ أو إذا قال البابا أوربان الثاني وهو يعلن الصليبيات: حرروا هذه الأرض من



□ قبة الصخرة للفنان ودورد عام ١٨٧٥.

الجنس الشرير.. فهذه الأرض التي يقول الكتاب المقدس أنها تفيض باللبن والعسل قد منحها الرب ملكاً للمؤمنين، أفلا يقول الصهيونيون بدورهم أنها ملكهم وعدهم الله بها من الفرات إلى النيل؟.

سادساً: وضمن الإطار الديني أيضاً ألم تحاول البابوية وهي الكاثوليكية الغربية إبراز نفسها حامية لمسيحيي الشرق المضطهدين؟.. فماذا يفعل اليهود الاشكنازيم (الغربيون) الواردون من روسيا ووسط أوروبا وألمانيا وفرنسا. أليسوا يجعلون من أنفسهم حماة لليهود السفاراديم... يهود الشرق؟...

سابعاً: الطابع الديني استطاع أن يكون واضحاً في الأيام الأولى للصليبيات لأنه كان الدافع المعلن ولقد استطاع أن يغطي إلى فترة ما حقيقتها الاقتصادية ــ الاجتماعية. اختفى التجار وراء سواد المحاربين، وتوارى الإقطاعي بجشعه وراء الرهبان ورجال الكنيسة، لكن الأطماع بالأرض والقلاع والمدن والامتيازات التجارية كانت واضحة مسيطرة. وفيما نهب الجناح العسكري من نبلاء وفرسان الأرض عماد الثروة والسلطة في المجتمع الإقطاعي الغربي، تقاسم التجار الغربيون الأسواق والامتيازات والأحياء والفنادق في المدن وحين دارت العجلة بالأحداث والناس تكشّف التناقض العجيب وتجلى الإفلاس الايديولوجي في الحملات التالية وبلغ الذروة في الحملة الرابعة التي توجهت إلى القسطنطينية المسيحية تفتحها. ظهر أن البابوية والتجار الايطاليين وإقطاعيي أوروبا يستخدمون الدين سلاحاً سياسياً عسكرياً ضد

المسلمين وضد بعضهم بعضا على السواء. ولو كان هذا «البعض» من أخلص المدافعين عن الكاثوليكية!.

ثامناً: إن كل الغطاء الديني للصليبيات يطير إذا استعرضنا الصليبيات الرسمية الثمان فوجدنا أن ثلاثاً منها فقط توجهت إلى القدس في حين توجهت الخمس الأخرى إلى أهداف أخرى فالثانية إلى دمشق والرابعة إلى القسطنطينية والخامسة والسابعة إلى مصر والثامنة إلى تونس.. لعلها كانت تفتش عن آثار المسيح هناك. وأما حملات القدس فقد احتلتها الحملة الأولى فقط. وفشلت الثالثة في الوصول إليها. ووصلتها الحملة السادسة سلماً ومجاناً في حين كان البابا يستنزل على هذه الحملة اللعناتِ من الرب، ويرمي صاحبها بالحرمان!.

ونعود إلى الصهيونية المعاصرة لنرى الصورة نفسها وإن تكن متطورة على مقياس القرن العشرين:

افتراس للأرض لا ينتهي. محاولات لربط العلائق التجارية بكل الموانىء. استخدام للايديولوجية الدينية في التوسع العسكري وإفلاس ايديولوجي يتجلى في حروب ٥٦ و٦٧ و٧٣ ويبلغ الإفلاس أوجه حين تكشف إسرائيل عن دورها الحقيقي في تونس وفوق المفاعل الذري بالعراق وفي حروبها في المنطقة فإذا هي أجير أميركي صغير، مجرد حاملة طائرات أميركية تحمل قوى مرتزقة تموَّن بالمعونات وعملها الأساسي استنزاف قوى المنطقة ومراقبة الاتحاد السوفييتي!!.

هل انتهت المقارنة الدينية؟ لم تنته بعد فثمة أيضاً الحديث عن الإرهابيين المدنيين أيضاً: عن مئير كاهانا وحزبه أغودات إسرائيل وعن الحاخام شلوموغورين والنائبة غئولة كوهين وأركان مجلس الحاخامين وأعضاء غوش أمونيم وحركة هاتحيا، وغيرهم وغيرهم ممن ينفخون في الرماد التوراتي ويعميهم دخانه ومثاره؟ إن دور هؤلاء جميعاً هو الحفاظ على الحقد الديني في حالة الغليان ليصب الحساء ساخناً في الصحن الصهيوني ـ الأميركي! مقابل هذه المؤسسات كان للصليبيين أيضاً مؤسسات دينية ـ عسكرية مماثلة حذوك النعل بالنعل. وهكذا نقرأ عن الداوية وعن الاستبيارية وعن مؤسسة التيوتون... والمؤسسات الصليبية المشابهة في اسبانيا: فرسان القنطرة وفرسان قلعة ترافا وفرسان القديس يوحنا (سانتياغو)... والدور هو الدور نفسه: تأييد اعتداءات الدولة على الأرض والناس، ومسحها بالمحاة الدينية، وإيجاد أيد أخرى بجانبها تحول التوراة إلى سيوف أو قنابل، وشيء من عمى غير قليل! ترى هل يتضح... بعد هذا كله أن. السبب الحقيقي وراء الصليبيات أو وراء الصهيونيات ليس هو الدين ولكن الأطماع الدنيوية للمتاجرين بالدين؟.

٥ ـ ونعود إلى الصليبيات والصهيونيات لنجد أن المشروعين إنما قاما على الدعاية المكثفة وعلى استغلالها الأقصى. ولقد طافت تدعو للصليبيات مجموعات شتى من القس والرهبان والتجار والمتشردين. كان جيش الدعاة الذي لا ينقطع يطوف أوروبا قرى وجبالاً وعبر الأنهار وفي عتمة الكنائس والغابات ومداخن البيوت... منهم بطرس الراهب وسان برنارد وجوسياس (رئيس أساقفة صور) وهرقل (بطريرك بيت المقدس). بل قام الدعاة من الأطفال. وقامت حملات من الأطفال بعشرات الألوف زحفت تريد تخليص القبر المقدس ببراءتها وحدها (ولو أنهم انتهوا بمساعي الصليبيين أنفسهم إلى أسواق النخاسة) كانت الدعوة للصليبيات بضاعة رائجة. أليس هذا ما يفعله الكهنة والربانيون في كل كنيس؟ وما تقوم به الصحف الصهيونية منذ مائة سنة؟ وكما استغل الصهيونيون جهل العالم بالتاريخ وبالواقع الجغرافي ليحوروهما كما شاؤوا، ليلغوا آلاف السنين العربية من التاريخ في فلسطين، وليلغوا وجود الشعب الفلسطيني من الجغرافيا وليجعلوا من البلد صحراء فارغة، كذلك استغلت الدعاية الصليبية سدوف الجهل الأسود في تلك العصور فجندت في ما سموه «بجهل الخيال. المنتصر» كل القوى في اتجاهين:

أولاً: اتجاه يضع كل تراث الجهل والخرافة لدى الناس في خدمة الايديولوجية المعلنة من الأساطير في السحر القديم، وجيوش الأشباح. والموتى، والشياطين الشريرة والأشجار صانعة

المعجزات، وقصص النجوم التي تتساقط من السماء، والشهب الملتهبة، ومعجزات الأطفال الذين يولدون بأطراف مضاعفة، والرعاة الذين يرون مدناً متألقة في السماء، والقسس الذين يشهدون سيفاً ضخماً تحمله الريح في الأفلاك، أو معركة بين فارسين يضرب أحدهما الآخر بصليب يرديه وقصص النار والحساب والفردوس المقبل ونعيم الخلاص والغفران بل وقصص الغنائم المنتظرة في الشرق الأسطوري كل ذلك لإثارة حماسة الناس في الغرب حتى الحد الأقصى.

ثانياً: اتجاه يوجه هذه الدعاية كلها ضد عدو «شيطاني» الملامح: فالرسول الأعظم في منظورهم «ساحر هدم الكنيسة في أفريقيا والشرق بالسحر والخديعة» وضمن نجاحه بإباحة الجنس «وجعلوا من المسلمين وثنيين وعباداً» لمجموعة من الآلهة والأصنام «فمحمد هو الصنم الرئيسي. وهو كبير آلهة الشرقيين «السراسنة». تمثاله المصنوع من المواد النفيسة بالأحجام الهائلة منصوب في أصبهان أو مكة.. يرافقه ٧٠٠ من مريديه!.. غربيو القرون الوسطى صدقوا هذا كله وصدقوا معه ما يترشح لهم عن المسلمين من أنشودة رولاند وأغاني الـ (Gueste) وروايات الحجاج الذين كانوا يعودون بالمبالغات والغرائب لإضفاء الأهمية على مغامراتهم ولإثارة الدهشة والإعجاب.

وقد ثبت أن أصحاب الايديولوجية الصليبية استخدموا في الاتجاهين الكذب وتزوير الوثائق والمبالغات بالإضافة إلى قصص الأحلام المقدسة والرؤى العجائبية وكان لهم من سذاجة الناس وجهلهم ما يطمئنهم إلى النتائج. أليس هذا يا ترى ما فعله الصهيونية في الاتجاهين:

فمن جهة استغلت كل موروث الغربيين من الحقد على اليهود في صيغة «اللاسامية» لتضخيم الشعور بالاضطهاد لدى اليهود. ولدفعهم إلى التكتل حولها والهجرة إليها، فما زالت إلى اليوم «تحاكم النازيين القدامى، وتتهم غيرهم، وتتقاضى من ألمانيا ثمن الجثث المحروقة في أوشوتين، وترفع العصا في وجه كل داعية إلى التعقل في الغرب باسم اللاسامية! وهكذا ضخمت الأساطير وصاغت الروايات. وصنعت الأفلام وكتبت واستكتبت كل الأقلام الممكنة وكررت مسكنة اليهود وعذاباتهم كل يوم في كل إذاعة مسموعة أو مرئية. إنهم المضطهدون الوحيدون في العالم هكذا قال زارادشت!!.

ومن الجهة الأخرى فما دام الناس يجهلون كل شيء عن فلسطين وتاريخها وناسها فلماذا لا تصوغ دعايتها في كل ذلك على ما تشتهي؟ سكانها العرب: تجاهلهم أولاً بالإلغاء الكامل، ثم لحقتهم بالتهم حين ظهروا على سطح الأحداث فهم في أدبها «برابرة» «أنذال» «مخادعون» وأخيراً «إرهابيون» وعلى العالم كله أن يلاحقهم بالرصاص والإبادة.. ألم «تستخدم الكذب الدائم والمبالغات» والتشويه وتزوير الوثائق؟.

اي فرق في النتيجة بين ذلك التضليل القروسطي وبين التضليل الصهيوني الأميركي عن قادة الإرهاب ومصاصي الدماء والقتلة العرب الفاسدين المفسدين في الأرض... الذين لا يهمهم في الحياة إلا القمار والقتل... وجسد امرأة؟ أي فرق بين المهووس الصليبي القديم الذي جاء من أقصى الأرض يحارب «الشيطان» المسلم وبين مئير كاهانا الذي يقول: «كيف نضع أيدينا بأيدي الأبالسة»؟ أو أي فرق بين صورة المسلم الوحشي في عيني الصليبي «وصورة العربي الصهيوني التي ينشرها في العالم عن العرب»: صورة النخلة والجمل في صحراء ينبع فيها بئر النفط وأسنان العربي المكشر فوقها؟.

٦ ــ وتدفق الصليبيون على الشرق سنة ٤٩٠ وما بعدها / (١٠٩٦ وما بعدها). وحين احتلوا القدس سنة ٤٩٣/١٠٩٩ ذهب الصريخ إلى خليفة بغداد: يهز منبر المسجد الجامع ويكسره ولكن... يشكو هجوم «الروم» البيزنطيين! كانوا يجهلون أن العدو هم الفرنجة. مضت سنوات قبل أن يتبينوا أنهم فرنجة وليسوا من الروم الذين اعتادت دول الإسلام سماع قعقعة السيوف معهم على الحدود كراً وفراً اربعمائة سنة: ودون طائل. لا أكثر من غزوات تنسحب بعد حين. أبداً ما انتهت يوماً إلى الاحتلال النهائي ولو هددت به...

على الجانب الفرنجي كان الأمر بالعكس اعتبر الكثيرون في الغرب نصر الفرنجة نصراً للكتاب المقدس ونبوءاته تماماً كما يعتبر ذلك

الصهيونيون وتشجع الكثيرون على أن يسلكوا سبيل الشرق حجاجاً، محاربين تجاراً، باحثين عن الثروة.. فهم على كل شراع.. كلهم كان يعتبر الاحتلال الفرنجي نهائياً، والتوسع فيه أمراً مقضياً. الجيل الثاني من الصليبيين الذي نشأ في البلاد أخذ يكتب ما كتبه المؤرخ اللاتيني فولشير أوف شارتر: «فيم يتعجب المرء من أن الله يظهر المعجزات في السموات في حين أنه أتى بمعجزة على الأرض نفسها بتحويله الغربيين إلى شرقيين... ومن كان من روما أو فرنجيا من قبل قد أصبح جليلياً ومن أهل فلسطين أو من صور. نسينا أوطاننا الأصلية. وأولئك الذين كانوا من قبل أجانب قد أصبحوا أهالي البلد. ومن كانوا فقراء أصبحوا يمتلكون هنا ما لا يحصى. فلم يرجع المرء إلى الغرب بعد أن وجد الشرق صالحاً إلى هذا الحد؟ إن الله لا يريد لأولئك الذين حملوا الصليب. (ونستطيع أن نضع بدل هذه الكلمة اليهود) أن يقاسوا حتى النهاية... إن الله يرغب أن يغنينا لأننا من أعز أصفيائه».

أليس هذا هو ما يكتبه اليوم بألف شكل ولسان كُتّاب الصهيونية؟... ونمضي مع المقارنة قدماً:

٧ ــ يطنب المؤرخون ويعيدون ويبدون في سبب النصر الصليبي الأول الذي بدأ عند أنطاكية سنة ١٠٩٧ وانتهى باحتلال القدس سنة ١٠٩٩ ويذكرون أن تمزق القوى في المنطقة هو الذي سمح للفرنجة بالنصر. ما في ذلك أي شك. وحين يكون رضوان صاحب حلب أخاً لدقاق صاحب دمشق ويكون في الوقت نفسه أعدى أعدائه وحين يتصيد الفاطميون في مصر انشغال دقاق مع الصليبيين في الشمال لينقضوا على القدس فيأخذوها، ويكون صاحب أنطاكية رقيباً للسلطان على صاحب حلب، وينفرد أمير شيرز بشيرز، وابن ملاعب بحمص، والقاضي ابن عمار بطرابلس، وبعضهم لبعض عدو، فماذا تنتظرون إلا انهيار الجميع قوىً متفرقةً أمام الموجه الغازية؟ ومن عجب أن تكون القوى التي تصدت للفرنجة في غزوتهم الأولى سبع قوى وتكون الدول التي وقفت لموجة الاحتلال الإسرائيلي بدوره سبع دول. ولعلنا نتذكر هنا ذلك السائل الذي سأل:

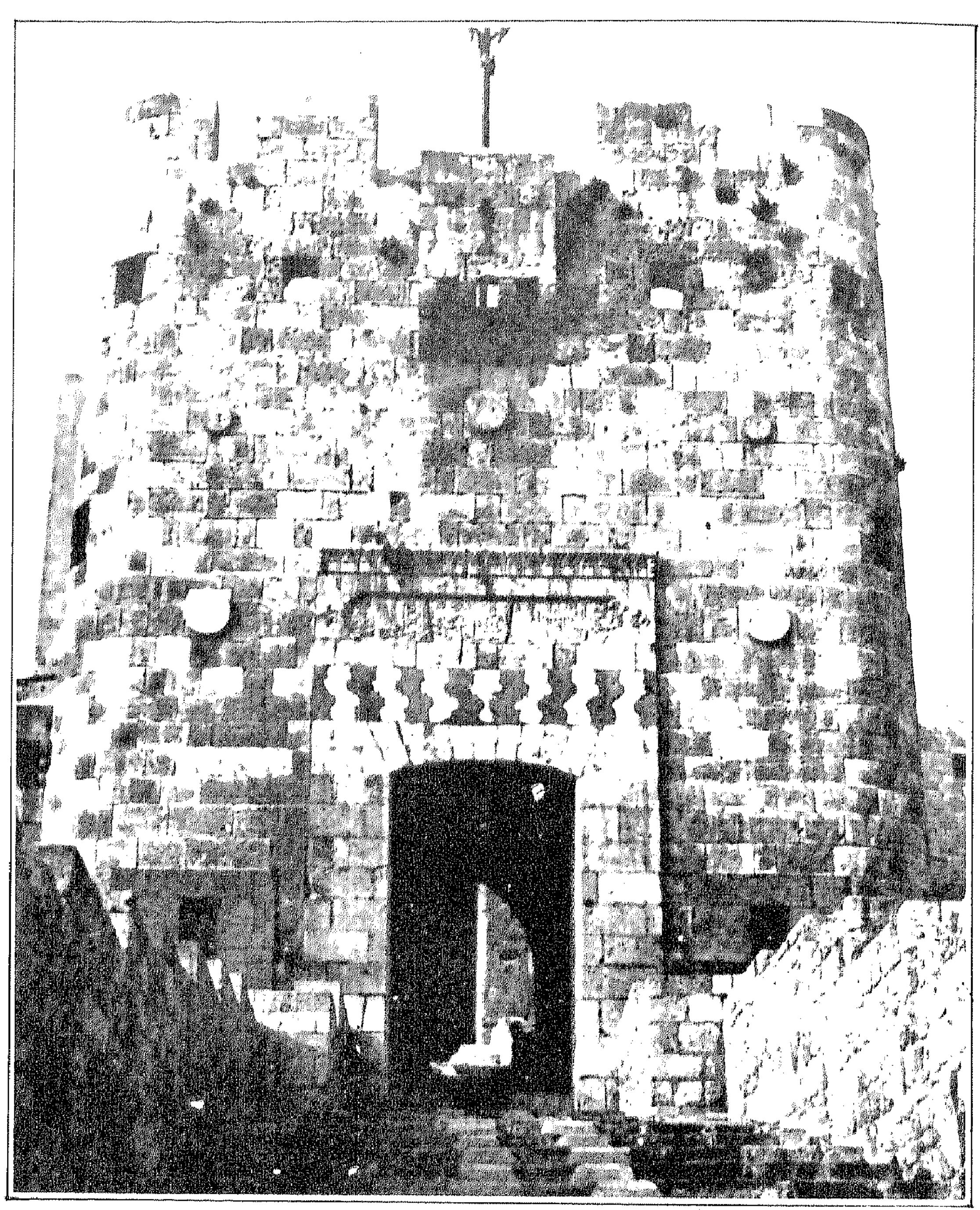
ــ كيف تهزمون وأنتم سبع دول؟.

فأجابه المجيب ــ لأننا سبع دول!... على أن المؤرخين ينسون أن يضيفوا أن حائط الدم قام منذ اليوم الأول بين هذه القوى ــ على تفرقها ــ وبين الفرنجة. امتد كاللعنة الأبدية من أنطاكية إلى المعرة حتى وصل ساحة المسجد الأقصى حيث خاض الصليبيون في آلاف الجثث وسواقي الدماء!.. وقد ظل هذا الحائط يتكاثف على الدوام ويرعض على الدوام مع المعارك الدائمة. أضحى سوراً خانقاً حول الإمارات الفرنجية. أبداً ما صفا قلب أحد لها ولا نسى الدماء أحد. أليس حائط الدم نفسه يقوم اليوم حول المنطقة المحتلة؟ يحولها إلى «غيتو» كبير رغم الخروق التي فتحتها فيه بعض السياسة الخرقاء. الغيتو الصليبي انهزم في النهاية، أما الغيتو الصهيوني...

فهل تنجده يا ترى هذه الخروق؟

قوى المنطقة أقامت قاعدة المقاومة الصلبة للفرنجة فيها على النبذ والعزل والتطويق. تماماً كما تطوق الكائنات الحية الأجسام الغريبة حتى تنفقىء كالدمامل. صحيح أن التجارات كانت تسير دون عائق عابرة آمنة، ولكن صحيح أيضاً أن ذلك لم يؤد إلى أي تقارب فكري أو ثقافي أو تطبيعي «مما يُطبِّعون من الطرفين. حتى الصهيونيون سجلوا أن الحوار بين الفرنجة وأهل البلاد كان «حوار الطرشان». والعلاقة الوحيدة كانت علاقة المصلحة المادية المباشرة. ظلت الخلية الفرنجية المتموضعة على الساحل الشامي غريبة، في لسانها، في عقيدتها، في نظام حكمها الإقطاعي، في رجالها ونسائها بل في عادات الطعام والشراب فيها، ربما كانت سياسة العزل متبادلة من الجانبين. لكن النفي الإسلامي للفرنجة كان هو الأول والأقوى والأصلب لأنه الأقوى حضارياً والأعمق ألماً.

٨ ــ واعتمد الفرنجة في توطنهم على المعونات مما وراء البحر، الأسلحة، الرجال، الأموال، الطاقات البشرية كانت دوماً تأتيهم على الأشرعة. حتى الكهنة والنبلاء، والتجار. المدد البشري لم ينقطع ومعظمه من الشباب المحاربين. أوروبا الغربية كلها كانت تصب في هذا المشروع ليعود عليها بالخيرات... ولينعم أصحاب النذور والهبات والتطوع بالفردوس



□ قلعة حلب.

الآخر! ريشارد قلب الأسد بحث عمن يشتري منه لندن لينفق أموالها في الحرب ضد صلاح الدين. الأمراء والملوك كانوا يأتون بثرواتهم وثروات أتباعهم لينفقوا منها على الحرب. ولم تكن موارد أجزاء من الشام أو من مصر تكفي كما هي اليوم لقيادة حرب حاسمة أو ناجحة على الأقل ضد الجماعة المحتلة إلى أن استطاعت امبراطورية صلاح الدين أن تقيم التوازن في الموارد وبالتالي في القوى بينها وبين الفرنجة. ولم تكن هذه الموارد ضخمة على أي حال بدليل أنها شحت بعد الفتوحات الأولى وقَصَّرت عن إمداده في المراحل اللاحقة وجَفَّ الذهب عنده فلم يعد يضرب الدنانير ولكن الدراهم، مما أبقى الصليبيين في صور ثم في عكا وفي الساحل مائة سنة أخرى.

ألستم ترون أننا ونحن نتحدث عن الحروب الصليبية إنما نتحدث أيضاً عن الحروب الصهيونية وعن مليارات الدولارات التي تصب

سنوياً في المشروع الصهيوني؟».

ويبقى في هذا المجال أمر أخير لا بد من ذكره هو التمويل اليهودي للصليبيات. يهود أوروبا ومن باب الربا ساهموا في تمويل الصليبيين. الأمراء والملوك وبخاصة حين فترت الحماسة الصليبية الأولى وفرضت ضريبة صلاح الدين في أوروبا لإيجاد الموارد التي شحت، وكانوا يلجؤون إلى الاقتراض من المرابين اليهود. وكما غطى أغنياء اليهود في حروب سنة ١٩٤٨ ثم سنة ١٩٥٦ ثم ١٩٦٧ ثم ١٩٧٣ ما تكبدته إسرائيلهم من نفقات، كان المرابون يغطون بعض تكاليف الصليبيات المتأخرة من الثالثة حتى الثامنة... وحين فشلت الصليبيات الفشل النهائي انصبت النقمة في أوروبا على اليهود!... لا انتقاماً للفشل فقط ولكن لأكل الديون أيضاً، وانضاف هذا السبب إلى السبب التاريخي القديم الذي يتهم اليهود بصلب المسيح ليشكلا معاً النواة الأولية للعزل اليهودي في أوروبا كلها...

٩ ــ وقد قام المجتمع الفرنجي الخليط على طول الساحل الشامي. أسقف فرنسي معاصر للصليبيات يقول عن المجتمع الغربي إن «بيت الرب ذو جوانب ثلاثة فبعض يصلي فيه، وبعض يحارب، وبعض يعمل. هذا المجتمع الغربي الإقطاعي نفسه هو الذي تشكل في الشام في ثالوث ضِلْعاه: الذين يحاربون والذين يصلون. وقاعدته الذين يعملون. بل كان المحاربون (النبلاء) والمصلون (الكهنة) جناحين عسكري وديني لطبقة واحدة تقود المشروع الصليبي...

أليس هذا يا ترى هو وضع الجماعات الصهيونية المحتلة: جماعة تحارب وأخرى تهز أجسادها جيئة وذهاباً وراء التوراة وجماعة ثالثة تعمل في الأرض والمصانع؟.. قد يكون الفرق في وجود طبقة رأسمالية إضافية في المجتمع الصهيوني الحديث ولكن أليست هذه الطبقة امتداداً للطبقة الغربية نفسها والجزء المكمل بها والإفراز الطبيعي للتطور الغربي الحديث نفسه؟.

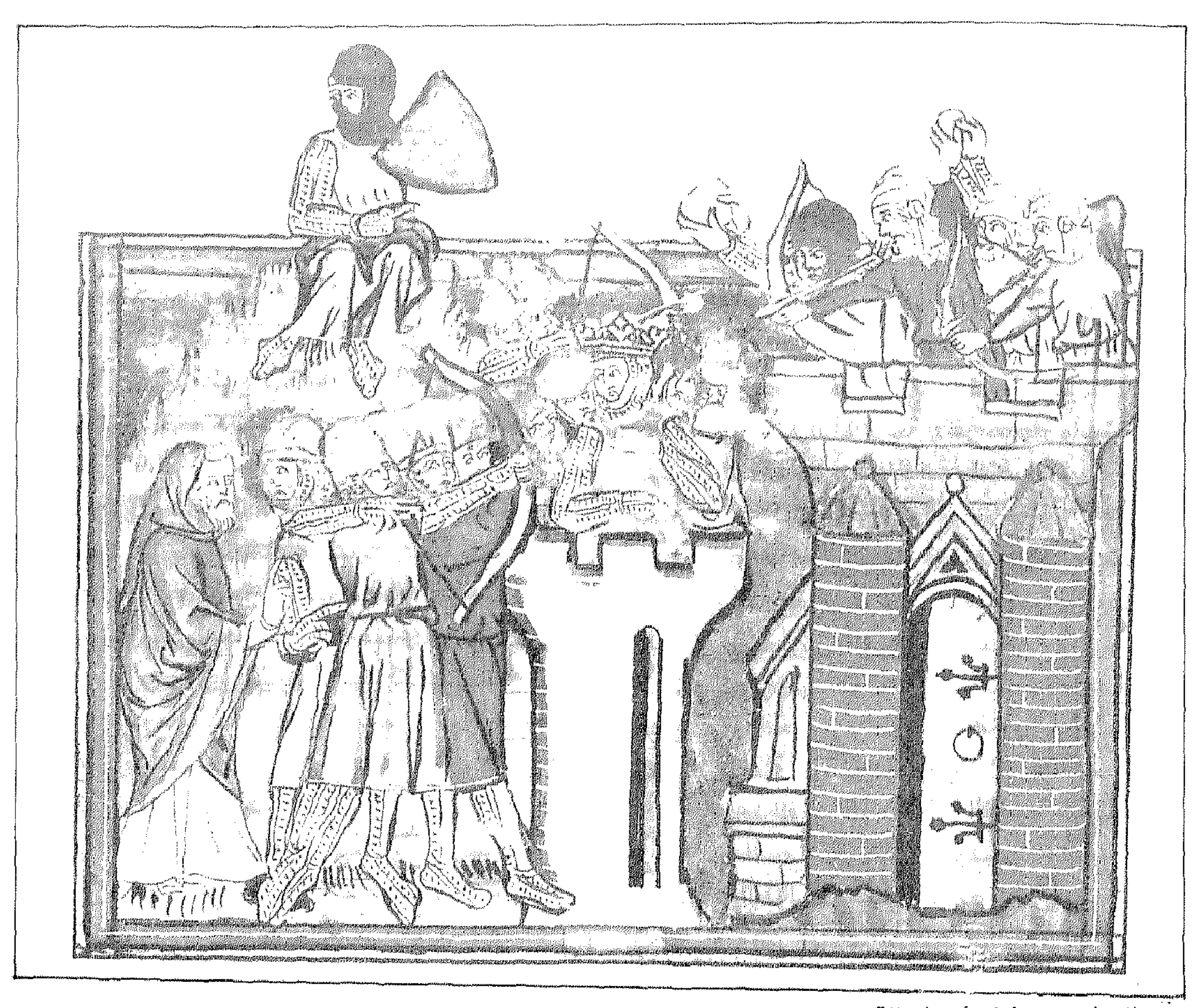
وكما بقيت في فلسطين تحت الاحتلال قوى عربية واسعة تتمسك بالأرض والزيتون ومزراب العين كذلك بقيت تحت الحكم الفرنجي طبقة عربية مسلمة تملأ الريف الفلسطيني يستثمر جهدها الرجل الفرنجي (كما يستثمرها اليوم الرجل الصهيوني) تحت رقابة الفرنجة. ولا تستطيع حتى الهرب من القرى. وكما للعرب اليوم مقاومتهم وتحركاتهم الجماعية والفردية ضد المحتلين كذلك كانت لأجدادهم الأولين في تلك الأرض مقاومتهم الرافضة. في نابلس والناصرة كانوا يحتالون لها على الحجاج العابرين فيقتلونهم ويقطعون الطرق، ويتركون العمل بحجة الصلاة فمن أعجزه الأمر هرب مهاجراً ونواة حي الصالحية في دمشق إحدى نتائج الهجرة من «جماعيل» إحدى قرى نابلس أواسط القرن الثاني عشر في أوج القوة الصليبية.

وإننا لنستطيع أن نرى التشابك الفرنجي الصهيوني على مستوى آخر: فطبقة العاملين، في القاع، في الأيام الفرنجية كانت تتشكل من المسلمين ومن أفراد الطوائف المسيحية غير الغربية، ومن فقراء الغرب في حين يحتكر النبلاء والكهنة السيف والكتاب المقدس. أليس هذا هو الوضع الصهيوني «الذي يعمل فيه، في القاع، العرب واليهود الشرقيون وفقراء المهاجرين؟ في حين ينعم أمراء الاشكنازيم بالحكم وقيادة الجيوش وتفسير التلمود»؟.

ونتابع المضي مع المقارنات أيضاً وأيضاً وما أشبه الليلة بالبارحة:

١٠ ــ اعتمد الفرنجة السابقون والصهيونيون اللاحقون على السواء أسلوباً واحداً في التشبث بالأرض وفي التوسع عند الإمكان. القلاع التي نثرها الفرنجة على جميع المعابر إلى المنطقة المحتلة قابلها الصهيونيون بقلاع عسكرية من مثلها ترونها في أنواع المستعمرات التي زرعوها على طول الحدود وفي داخل البلاد وكل منها مسلحة كاملة. وكما كان المحاربون القدماء يعيشون على أراضي الزراعة حولهم، يعيش المحتلون الجدد محاربين مزارعين في المستعمرات الجديدة.

١١ ــ منذ الأيام الأولى للتوضع الصليبي في القدس لم تكن الموانىء الشامية وحدها هي الهدف. بلى! كانوا يحتلونها واحداً بعد الآخر. الأساطيل التجارية الايطالية وضعت كل ثقلها



□ الصليبيون امام أسوار القدس.

لاحتلالها. لكن عينها وعين مملكة القدس الصليبية معها كانتا على مصر وعلى (العقبة) مصبي طرق التجارة العالمية إلى المتوسط. حاولوا احتلال مصر مرات حتى سبقهم إليها نورالدين وصلاح الدين. بنوا قلعتين في الطريق إلى أيلة بشرقي الأردن. بنوا قلعة في جزيرة فرعون بخليج العقبة بالقرب منها. أقاموا إمارة في الكرك تسلمها قبيل حطين فارس من أعتى فرسانهم: أرناط المعروف الذي حاول بمشاريعه البحرية السيطرة على البحر الأحمر حتى عدن، كما حاول الوصول إلى المدينة وكان من الأسباب المباشرة لموقعة حطين. والسبب؟ السبب ليس حب الصحراء ولا الماء ولكنه الدور الاستراتيجي والتجاري. كانت طرق التجارة العالمية بين الشرق البعيد، طرق الأفاويه والتوابل والبخور والنسج تمر من هذه المنافذ وما الذي جاء بهم إلى الشرق الأدنى إلا الطمع بهذه المنافذ وتجاراتها وحين انقطع الطريق البري بظهور المغول عليه في القرن الثالث عشر وفقدوا السيطرة على القدس والمناطق في شرقها وصارت مصر هي الطريق التجاري الأكبر توجهت الحملات إليها، وإلى دمياط الثغر الأول بالذات. الحملتان الخامسة والسابعة توجهتا إليها. وفشلت الحملتان. هل يذكرنا هذا بقتل الكونت برنادوت الوسيط الدولي بأيدي الصهاينة لكي يتوسعوا في النقب؟ وبإصرار بن غوريون على احتلال أيلة بأسرع وقت سنة ١٩٤٨ وبما أعقب ذلك من أحداث حول خليج العقبة فالبحر الأحمر حتى مشكلة طابا اليوم والجزر في مدخل خليج العقبة؟ وهل يكشف هذا نفسه لأعيننا عن معنى محاولات إسرائيل النفوذ من البحر الأحمر إلى ما وراءه لتكون مثلها مثل مصر المطلة على البحرين الأبيض

والأحمر؟ وهل يكشف ذلك دورها التجاري والاستراتيجي؟.

١٢ ــ حرص الفرنجة الصليبيون منذ أيامهم الأولى حتى أيامهم الأخرة على إبقاء التمزق السياسي قائماً في المنطقة. كان كنزهم الثمين. وحرصوا أكثر من هذا على عقد اتفاقيات هدنة مع كل طرف على حدة. مع إمارة دمشق. مع إمارة حلب.. مع أمراء الجزيرة ومع مصر التي ظلت تحتفظ بعسقلان في أقصى الجنوب الفلسطيني خمسين سنة تماماً كما احتفظت مصر في العصر الحاضر بقطاع غزة... البند الأساسي في هذه الهدنات: فتح طرق التجارة والسبل الآمنة... هل يذكرنا هذا بشعار «التطبيع» اليوم؟ وبما تحاوله السلطات الصهيونية من العلاقات مع مصر؟ ومع غير مصر؟ الفرنجة في القديم كانوا كذلك يفعلون. ينفردون بالإمارات في المنطقة. يضربونها واحدة بعد الأخرى ضربات خاطفة صاعقة أو يهادنونها واحدة واحدة!... كانوا يعرفون أن في لقائها بعضها مع بعض نهاية المشروع المهووس، يخشون هذا اللقاء خشيتهم للموت لأنه الموت! ألم يكن ذلك في حطين؟ ألسنا نرى استماتة إسرائيل منذ بن غوريون وشاريت إلى بيريز وشامير للمفاوضات الفردية والمباشرة؟ ورعبها من أي لقاء بين دولتين. لقد جرت بعض هذه اللقاءات في القديم. أمير الموصل مودود اتفق مع أمير دمشق طغتكين وواقعوا الفرنجة، فكانت لحظة من أخطر لحظات المملكة الصليبية. وأمير دمشق اتفق مع أمير حلب، على ما بينهما من تباين فتمكنت الإمارتان من الوقوف للعدوان. بل أن أمير دمشق وهو عباس الولاء لم يستنكف عن التعاون مرات مع مصر الفاطمية يومذاك وحارب معها أمام غزة كما دافع عن ثغرها (صور) بجنده وماله. لكنها كانت اتفاقات عابرة غير واعية... ألا تذكرنا هذه المحاولات بمحاولات الوحدة بين سورية ومصر، أو بين سورية والدول العربية الأخرى؟...

وكان أقصى ما تتمناه مملكة القدس أن تعقد الصلة مع إمارات الشام ودمشق بالذات. لقد أفشلت الحملة الصليبية الثانية كلها لتبقى لها دمشق التي كانت تهادنها. وعقدت معها حلفاً منفرداً استمر قرابة اثنتي عشرة سنة هو «كامب ديفيد» الزمن القديم الذي أنهاه نورالدين محمود باحتلال دمشق وطرد الأمير المتحالف منها. لقد ظلت مملكة القدس تلعب على حبال التفرقة... حتى سقطت بين الحبال!.

١٣ ــ اعتمدت المملكة الصليبية القديمة على الطوائف تثيرها وتجندها وتستغل مشاعرها الدينية، ضد المسلمين، رغم كرهها الكاثوليكي اللاتيني لهذه الطوائف الشرقية وتباينها معها، كانت ترى فيها أداة قريبة لأغراضها. واستجابت بعض الجماعات الطائفية للإغراء سواء في فلسطين أو لبنان أو في الجزيرة ومن الأرمن خاصة وأن تمنع بعضها، فصرنا نراها مجندة في الجيش الفرنجي: فرساناً ومشاة، بل نراها متطوعة في جيوش الفرق كالاستبارية والداوية... ألستم ترون أن مراهنة إسرائيل على حرب الطوائف والحرب بالطوائف صورة أخرى من تلك السياسة القديمة وكأن لا جديد تحت الشمس؟... الفرق الوحيد أن الفرنجة استخدموا هذه الجماعات معهم في جيوشهم، والصهيونية تستخدم الطوائف أيضاً ف بعضها ضد بعض. تحركها ألاعيب بيدها لتسقط الثمار في النهاية في سلتها الاحتلالية!.

١٤ ــ أضاع العرب المسلمون، أيام الفرنجة، فرصاً ذهبية لإنهاء الوجود الاحتلالي الفرنجي. ارتسمت حطين عشرات المرات في الأفق قبل حطين بزمن طويل. قصر النظر السياسي وحده هو المسؤول عن عدم اغتنامها. السنوات التسعون التي انقضت بين سنتي ٤٩٢ (سنة الاحتلال) وسنة ٥٨٣ (سنة التحرير) شهدت مئات المعارك كما شهدتها مثلها مائة سنة أخرى من بعد. وبعضها في عنف حطين ونصرها الحاسم. أولى هذه الفرص كانت أمام أنطاكية عشية وصول الفرنجة إلى الشام. دخلوا أنطاكية الفارغة من المؤن وهم حوالي مائة ألف. وبعد ثلاثة أيام فاجأهم الحصار الإسلامي بستة جيوش فدب فيهم الجوع حتى أكلوا النعال والجلود وعشب الأرض وبادر الكثير منهم بالهرب. حتى الداعية بطرس الراهب! ثم خرجوا بهجمة واحدة يائسة فلم يحاربهم أحد من

الجيوش المتربصة حولهم اكتفوا بالفرار... كانت هذه المعركة هي التي أدت إلى التوطد الصليبي وإلى احتلال القدس!.. هل يذكركم هذا بحرب سنة ١٩٤٨؟..

وبعد أشهر من الاحتلال والمذابح، تَحَمَّل الفرنجة عائدين إلى بلادهم. لقد أدوا مهمتهم. لم يبق في فلسطين كلها سوى ثلاثمائة فارس وألفي محارب... ولم تستفد من هذه الفرصة مصر وكانت تستطيع أن تسوق فيما يذكرون ثلاثين أو خمسين ألف فارس! ولم تستغلها دمشق وكان لديها عشرة آلاف فارس. كل ما صنعه طغتكين أتابك دمشق أنه ذهب في كواكب من فرسانه إلى طبرية فأخذ منها مصحف عثمان فدخل به دمشق في موكب حافل وأغلق الأبواب!.

ومرت فرص بعد فرص من هذه اللحظات الحرجة أضاعها المصريون. كان أخطرها حملة مايو سنة ١١٠٢ التي سُحق فيها الفرنجة عند الرملة فاختفى ملك المملكة الهارب في أجمة قصب أحرقها المسلمون فلحقته النيران. والقدس فارغة دون حامية... ولكن النجدات الغربية التي وصلت على المراكب قلبت الميزان... هل تذكرون قصة حرب سنة ١٩٧٣ والجسر الجوي الأميركي وثغرة الدفرسوار؟...

أخطر تلك الفرص كانت معركة الأقحوانة عند طبرية سنة ٥٠٧/١١٤٣. أربع عشرة سنة بعد الاحتلال. التقى جيش دمشق والموصل مع الجيوش الفرنجية قرب حطين... وتراءت حطين نفسها في المعركة بحيرة طبرية اختلط الماء بالدم فيها حتى امتنع الشرب منها أياماً. وحشر الجيش الفرنجي محاصراً مهزوماً في الجبال شهرين بجرحاه وأثقاله لا يجرؤ على الحركة لم يكن في كل مملكة فلسطين من حامية. ووصلت طلائع الجيش الإسلامي حتى مشارف القدس. ودانت لهم البلاد بالطاعة... ثم خشي أمير دمشق أن يختطف منه أمير الموصل إمارة دمشق فأقنعه بالعودة واستئناف القتال في الربيع القادم!.. ولم يأت هذا الربيع أبداً لأن الأمير الموصلي قتل...

أخطر ما في هذه الفرص القديمة الضائعة أن الثمن الذي كان سيدفع فيما بعد كان دوماً أغلى فأغلى. أليس هذا هو قدرنا اليوم مع الاحتلال الصهيوني: الفرص دوماً تضيع والثمن دوماً يرتفع؟.

١٥ ــ المقاومة الإسلامية للفرنجة لم تتبلور اسريعا لأسباب عديدة. كانت تتصاعد حالاً على حال مع ازدياد واندماج المنطقة ووعيها للكارثة. المعارك التي استمرت تسعين سنة أفرزت الكثير من البطولات كما سفحت على التراب الكثير من الدماء، في حين كان الحزن يعشش أكثر فأكثر في الصخور والعيون. من هذا الصمود صاغت المنطقة عشرات الرجال وكان لكل منهم «حطينة» على مقداره. كل منهم ضرب سيفاً في حطين المقبلة ولو لم يحضرها: كربوغا، جكرمس، جاولي، مودود، آقسنقر البرسقي من الموصل، سقمان بن أرتق، ايلغازي أخوه، برسق، نجم الدين البي من الجزيرة، طغتكين، إسماعيل بن بوري، أُتُر من دمشق، علي كوجك، مظفرالدين كوكبوري من إربل، الأفضل الجمالي، ابنه شرف المعالي، الوزير المأمون، رضوان الولخشي من مصر... هي أسماء كثيرة لا يذكرها أحد، ولكنهم كانوا الشرط الأساسي لظهور صلاح الدين. لقد كونوا ربيع السيوف الذي برز منه عماد الدين زنكي، ثم نور الدين ثم صلاح الدين. وإذا كان صلاح الدين وحده يخرج من الأسطر ويفرض نفسه على الذاكرة والتاريخ فإنه بكل تأكيد لم يخرج وحده من عتمة الانهزامية والسكون. ما كان ممكناً أن يخرج لولا «صلاح الدينيين» الآخرين الذين سبقوه. كان لا بد أن يوجد السابقون الذين انطفأوا في مستنقع السلبية والتمزق ليوجد صلاح الدين من بعدهم محرراً أخيراً. أليس في سجل الصمود اليوم. عشرات الأسماء التي تسجل في انتظار حطين المقبلة؟

١٦ ــ كانت عملية تحرير فلسطين من الفرنجة من عمل مصر والشام بالذات. وكان شمال العراق هو العمق الاستراتيجي للعملية. ويبدو أن المنطق الجيو ــ بوليتكي ما يزال قائماً وما تزال عملية التحرير من مهمات هذه المنطقة بالذات قبل غيرها. وإن كان منطق العصر لا يكتفى بها ويدخل في التحرير مالا ينتهي من

العناصر الأخرى. على أنك تستطيع أن تفهم لماذا ارتجفت أركان إسرائيل والدول التي تستخدمها للوحدة التي قامت سنة ١٩٥٨ بين مصر وسورية. لقد رأت فيها ــ كما ظلت ترى في كل مشروع وحدوي ــ بداية النهاية. إنها إنما تقوم على تمزق المنطقة وفتاتها. الضباع لا تعيش إلا على الجيف. وهي تفهم هذا الدرس جيداً. بقي أن نعي نحن بدورنا هذا الدرس!.

١٧ ــ وأخيراً كانت حطين.. لكنها لم تكن إلا بعد أن وجدت عاصمة ومركزاً ديناميكياً لها في دمشق، وقيادة واعية ملهمة، وقوة موحدة ساحقة، وعمقاً استراتيجياً وراءها، وموارد تدفع ثمن الدماء وإعداداً سياسياً طويلاً مضنياً. ولن تكون حطين الأخرى إلا أن وجدت مثيل كل ذلك وعلى مقياس العصر. العصر هو العنصر الحاسم.

ــ ونصل بعد هذا إلى المحاور الأساسية وإلى تطبيقاتها في سياسة الصليبيين في المنطقة وفي سياسة الصهيونيين. كان الصليبيون يدركون، وهم يتجهون إلى الشرق أمرين أساسيين:

ــ يدركون وحدة العدو العربي المسلم ما بين الأندلس إلى المشرق. الكثيرون ممن شاركوا في الحملة الأولى كانوا من قبل يقاتلون في جبهة اسبانيا ضد المسلمين واستمر الأمر على ذلك من بعد.

ــ ويدركون أن موانىء الشرق الغنية هي مصب التجارات القادمة من المحيط الهندي وما وراءه. الأساطيل الايطالية كانت قبل ذلك بكثير تقوم على هذه التجارات في البحر المتوسط واستمرت هذه الأساطيل سيدة هذا البحر من بعد.

وهكذا كانت استراتيجية الصليبيين تقوم على الأمرين معاً:

ــ ضرب العالم العربي الإسلامي في وسطه تماماً بجانب ضربه في الأندلس وشمال أفريقيا وصقلية. لينقطع اتصال الكتلة الغربية الإسلامية بعضها مع بعض.

ــ استثمار الموقع الاستراتيجي لفلسطين حتى الحد الأقصى تجارة ودوراً، والتحكم في عقدة الاتصال الأساسية في التجارة الدولية فيها.

ــ ولما كانت مصر تشارك فلسطين الموقع الاستراتيجي فقد كان هم الصليبيين موجهاً إلى مصر دوماً: لفصلها عما حولها أو أخذها. يوم وصلت الحملة الأولى الرملة سنة ١٠٩٩ وقبل أن تحتل القدس أخذوا يتشاورون في متابعة المسير إلى مصر! وظلوا بعد ذلك على مهاجمتها دون انقطاع وحاولوا أخذها أيام نورالدين وتوجهت إليها الحملتان الخامسة والسابعة بعد ذلك...

هذه الاستراتيجية مرت خلال العهد الصليبي بمرحلتين:

في المرحلة الأولى التي امتدت حوالي نصف قرن: كانت المملكة الصليبية والإمارات التابعة لها تعمل لحسابها. في عملية استعمارية مبكرة وكان لها سند قريب قلق في بيزنطة وسند عريض بعيد في دول الغرب.

في المرحلة التالية: وبعد أن أدركت الحركة الفرنجية عجزها عن ابتلاع المشرق بكتلتها المحدودة باعت نفسها لبيزنطة أولاً طلباً للمعونة المباشرة أيام نورالدين وأوائل أيام صلاح الدين. وقبل أن تقع حطين كانت قد باعت نفسها لمن يشتري في الغرب. كانوا يفتشون عن ملك أي ملك. رموا هزيمة حطين على رأس الملك (غي) النبيل الفرنسي الذي اتفق أن قاد الجمع الصليبي ضد صلاح الدين. ثم بعد أن تضاءل المشروع الصليبي إلى مجرد شقة ساحلية بين صور ويافا أخذوا يبحثون له عن منقذ يعينه فيليب أوغوست أو ريتشارد قلب الأسد. ثم جاءت أيام الحملة الخامسة فتحكّم في المشروع ملك هنغاريا أولاً وفشل. ثم قاده الكاردينال بلاجيوس مندوب البابا سنة ١٢١٨ ــ ١٢٢٩ فغرق به في وحول الدلتا بعد دمياط. ثم تولاه فريدريك الثاني صاحب صقلية فكانت مملكة القدس مجرد ملحق إضافي لملكه الامبراطوري. وجاء لويس التاسع بالحملة السابعة وقاد المشروع مرة أخرى إلى دمياط... وأغرقه مرة أخرى في مياه النيل عند المنصورة...

لو أغمضنا الأعين لحظات نتأمل في كل هذا الذي مضى من تاريخ الصليبيات استراتيجيةً ومراحل واستبدلنا بكلمة الفرنجة كلمة

الصهيونية فهل يختلف الأمر؟

لقد كانت إسرائيل في الجيو ـــ استراتيجية البريطانية إسفين التحطيم للكتلة العربية وعقدة الطريق إلى الهنـد. ولهذا خلقت في مكـانهـا. فلما ثبت التمزيق للبلاد العربية، وأقيمت الحدود والدول المنعـزلة، واستقلت الهند، انتقلت إلى الجيو استراتيجية الأميركية لتصبح جزءاً من الحـزام الأمني الاستـراتيجي ضـد الاتحـاد السوفييتي ووسيلة للإبقاء على التخلف العربـي وضاعت فلسطين بـين أرجل الاستـراتيجيتين، كمـا ضاعت من قبـل أيام الصليبيـات. وإلا فاسألوا إذن أنفسكم عن إسرائيل هذا الحائط اللاهوتي الذي انتصب على العدوة ـــ المفصل لتمارس الأمة العربية الموت على طرفيه وليعزل مصر عن العالم العربـي بين اللاهوت اليهودي من جهة وبين بحار الماء والصحراء من جهة أخرى ترى مـا دوره في استراتيجيـات الدول الكبرى؟ ولماذا تحقنه أميركا كل سنة بنصف مساعداتها للعالم وهو في شبرين من الأرض وفي ملايين قليلة معـدودة من البشر؟ إن الولايات المتحدة تحاول أن تجعل الجغرافيـا الصغيرة تلعب دور الدول الكبرى وتحقنها بالسلاح والمال حقناً في حين تعكف الجماعة المحتلة على اختراع التاريخ واللاهوت... والمرتزقة.

وأخيراً هل يعني هذا الذي سلف كله أن لا جديد تحت الشمس؟ وأن التاريخ يعيد نفسه بنفسه؟ وأن حطين ذاتها قادمة في حطين أخرى مماثلة؟. لست أعني هذا أبداً ولا أعتقده. ثم كل يوم جديد تحت الشمس وحذار أن ننظر إلى حطين من خلال الماضي. إنها لن تكون إلا من خلال المستقبل وأهوال المستقبل. حذار أن نطلب منها أكثر من أن تكون الملهمة بدروسها والمعاني لأنها لن تتكرر إلا بهذه الدروس والمعاني. إن التاريخ أعجز وأعظم من أن يعيد نفسه. ●

بين الأمس واليوم

● «بين الغزو الصليبـي لبلاد المشرق العربـي في العصور الوسطى، والغزو الصهيوني لفلسطين، في عصرنا الحاضر، وشائج قربـى، ووحدة منافع وأهداف، رغم بعد الفارق الزمني بين الغزوين. كلاهما أراد احتلال البلاد واستعمارها واستيطانها وطرد سكانها منها، أو ردهم إلى العبودية، ولم يتورع عن ارتكاب الجرائم البشعة مما يندى له الجبين.

إن الدماء التي سفكت عند حصار القدس، في الحملة الصليبية الأولى، هي نفس الدماء التي سالت عند حصار المدينة المقدسة في حرب فلسطين الأولى، وإن القتل والتدمير والمداهمات، التي قام بها الصليبيون في فلسطين، هي من النوع الذي ارتكبه الصهاينة في القدس وقلقيلية ودير ياسين. والإقطاعات التي أنشأها الفرنجة في بلاد الشام بعد طرد أهلها منها، أو تحويل الفلاحين فيها إلى أقنان، هي نفس لمستعمرات التي استوطنها الصهاينة على الأرض المغتصبة من أصحابها الشرعيين. وإذ نحتفل اليوم بذكرى واقعة حطين، فلنلتمس منها الشجاعة والقوة وجديد العزم للمضي قدماً في تلاحم الصفوف ومجابهة الخطر الداهم بكل ثبات ومضاء وحسن تدبير. وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون».

● **«في ذكرى معركة حطين» ـــ إصدار وزارة الثقافة.**





بقلم
اللواء الركن المجاز سعيد الطيان
مدير مركز الدراسات العسكرية

يقول كلاوزيفتس إن «الحرب هي استمرار للسياسة ولكن بوسائط مختلفة». ولا شك في أن سلاح كل قائد سياسي هي القوة المؤثرة. وقد تكون هذه القوة عسكرية أو اقتصادية أو جغرافية أو... وبدون هذه القوة لن يكون قرار القائد السياسي ذا قيمة.

في القرن الحادي عشر، استطاعت القوى الفرنجية الغاشمة، باسم حماية المقدسات المسيحية، أن تجمع قوات مسلحة ذات تعداد كبير، وأن تحتل بالقوة الشريط الساحلي لبلاد الشام، مشكلة طريقاً شبه مستمرة، تمتد من القسطنطينية حتى القدس، محتلة بشكل أساسي المدن والحصون، ومشيدة القلاع في كافة النقاط الهامة من الناحية الاستراتيجية.

كان العرب في ذلك الوقت يتطاحنون، ويتنازعون الدويلات والامارات، وكان الخليفة العباسي بدون سلطة ولكن... وبعد مدة قيِّض للأمة العربية النهوض من جديد وشد العزم.

وجاء قائد ملهم، هو صلاح الدين الأيوبـي، الذي استطاع بجهوده أن يجمع تحت سلطته مصر والشام وحلب والجزيرة والموصل. وبقوى هذه الأقطار والأمصار استطاع أن يكون نداً للفرنجة، وأن يناوشهم، وأن ينتهي في ٤ تموز ١١٨٧ بتحطيم قوتهم المسلحة وقتل وأسر ملوكهم وأمرائهم، فكان ذلك بداية التحرير.

أولاً:
القوى العربية والإسلامية في الشرق العربي في النصف الثاني من القرن الثاني عشر

تشكل بلاد الشام جسراً بين قاعدتين لامبراطوريات تاريخية، كانتا على مر التاريخ: في وادي النيل (مصر)، وفي وادي الفرات ودجلة (ما بين النهرين). وكان هذا الجسر يتأرجح يمنة ويسرة حسب طغيان قوة على القوة الأخرى. لذا تعرضت بلاد الشام للغزو من قبل هاتين القاعدتين عدة مرات عبر التاريخ.

في القرن الثاني عشر، كانت السيطرة على وادي الفرات لبعض سلاطين السلاجقة، الذين كانوا يتمتعون فيها بسلطة مؤقتة، في ظل الخلافة العباسية، منذ العام ١٠٥٩م. أما وادي النيل فكان تحت سيطرة الخلافة الفاطمية، التي تأسست في مصر منذ العام ٩٦٩ م. وكانت الخلافتان، خلال القرن الثاني عشر، تخوضان الحرب، بين الفينة والفينة، ضد الفرنجة، الذين تأثرت طرائق قتالهم الحربية بطرائق قتال الجيوش التي كانت تقاتلها.

- **التجييش في بلاد الشام في القرن الثاني عشر:**

كانت الجيوش في بلاد الشام تتشكل من عنصرين أساسيين وعنصر احتياطي:

□ **القوة الضاربة**: وتدعى «**العسكر**». وتتشكل لخوض الأعمال القتالية الاعتيادية، وخوض العمليات الحربية الصغيرة، وأساساً ذات الصبغة الدفاعية. وكانت تتألف في ذلك القرن أساساً من عناصر «المماليك» وممن أُعتق منهم.

□ **القوات الداعمة**: وهي قوات تستدعى من الولايات والإقطاعيات التابعة للسلطة. ومهمة هذه القوات القتال إلى جانب القوة الضاربة الأساسية تحت قيادة الوالي أو الحاكم الإقطاعي بالذات، وتحت الإمرة العامة للسلطان أو الملك أو الخليفة.

□ **قوات احتياطية**: وهي قوات تستدعى بعد تسيير الجيوش ووضعها تحت سلطة السلطان، وتكون جاهزة، عند اللزوم، لنجدة جيش السلطان.

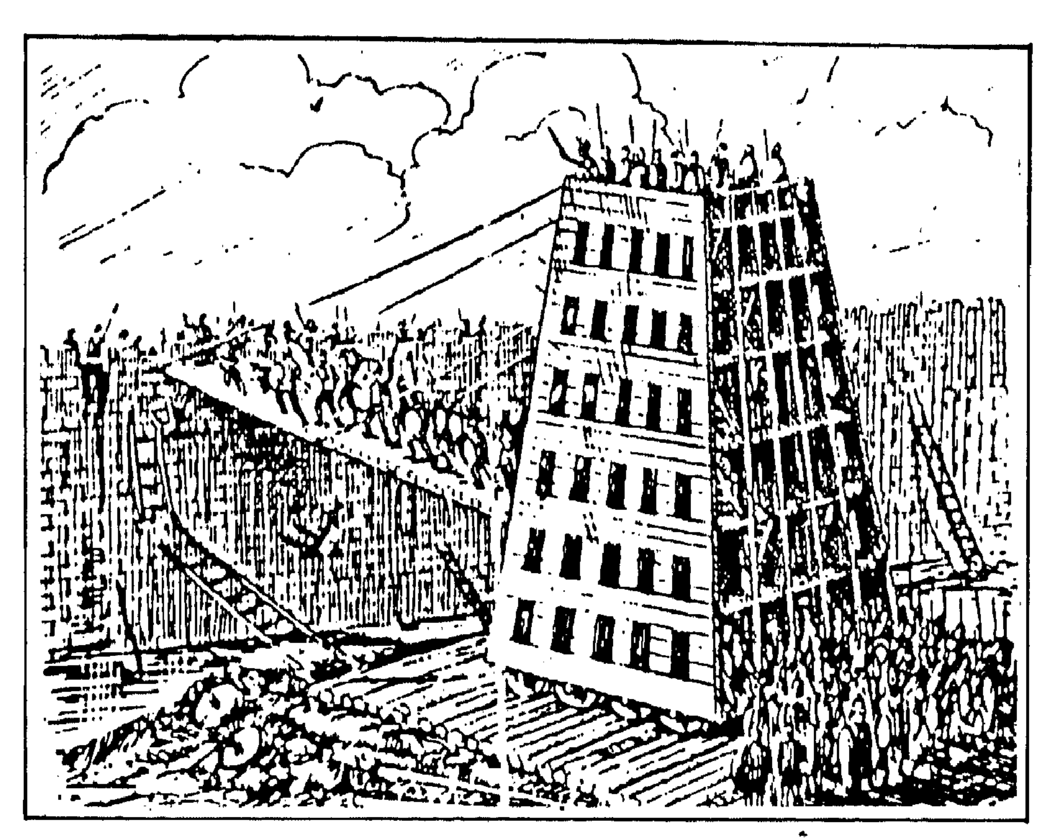
وكان النظام الإقطاعي هو النظام المسيطر في إعداد الجيوش العربية والإسلامية فكان محتماً على كل من حاز على إقطاع أن يقدِّم للخليفة أو للسلطان مقداراً من المال يدفع سنوياً، أو في مواسم محددة للخزينة، وقوة عسكرية، يقودها الوالي بنفسه واضعاً نفسه وقوته تحت تصرف السلطان.

كانت المدن المسورة والقلاع والحصون أساس الممتلكات الفرنجية في بلاد الشام في القرن الثاني عشر. وكان حصار المدن والقلاع والحصون بطبيعته عملية صعبة ومعقدة، في عصر التحصينات القوية مع ضعف في وسائط اقتحام الحصون.

فعندما كان يحدث تطويق لقلعة أو مدينة، فإن هذه تكون، في الغالب، قادرة على أن تقف منيعة لمدة طويلة، بفضل سورها المنيع ومؤنها المخزنة. وبالتالي فإن التطويق كان يشكل عبئاً كبيراً على القوات القائمة به لا سيما عندما يكون بالإمكان وصول تعزيزات خارجية من إمارة صديقة أخرى، عندها يجد القائمون بالحصار أنفسهم محاصرين، ويفشل الحصار.

أما القتال في الميدان، الأرض العارية، حيث لا قلاع ولا حصون، فإنه أمر في غاية الخطورة، ذلك أن تدمير قوة مكشوفة في العراء أسهل جداً من تدميرها في قلعة أو حصن. لذلك فإن القائد البارع هو الذي يستطيع جر خصمه إلى القتال في الميدان وهكذا فإن صلاح الدين كان يحاول مقاتلة الجيش الصليبي في ميدان قتال خارجي، عندئذ، كان يقدر بأنه سوف يقدر عليه ويدمره. وهنا فإن عبقرية صلاح الدين في مجال الاستراتيجية العسكرية تكمن في تمكنه من جر الجيش الصليبي من منطقة ممتازة له إلى ميدان مكشوف، بعيداً عن القلاع والحصون، في ظروف مناخية ومعيشية صعبة.

في السنوات الأولى للقتال ضد الفرنجة (في القرن الحادي عشر ونصف القرن الثاني عشر) كانت القوى العربية والإسلامية تقاتل منفردة ومتفككة بقيادة أمرائها، وعلى بداهتهم



□ دبّابة (برج اقتحام قلاع).

الشخصية، ودون وجود قائد عام مهيمن على مجرى الصراع. وهنا بالذات تكمن نقطة ضعف هامة. ذلك أن القيادة المتفككة تعطي قرارات متفككة ومعارك محلية غير مترابطة، الأمر الذي كان يؤدي في كثير من الأحيان إلى الهـزيمة. وكانت عاقبة فقدان القائد الواحد إصابة العمل العسكري بالشلل. وهذا حقيقة ما حصل خلال الفترة الممتدة بين أعوام ١١١٠ أو ١١١٥. حيث كانت تنقص الأمراء السلاجقة في القتال، وحدة القيادة والتلاحم. لذا كانت القوى الإسـلامية تتفكك بسرعة وتتشتت من الضربة الأولى. وهكذا كان باستطاعة الفرنجة أن يجنوا ثمار الميزات الهامة لحملة دفاعية مظفرة، دون أن يعرضوا أنفسهم لمخاطر خوض الحرب.

إن استـرداد أي جـزء من الأراضي التي تستولي عليها الدويلات اللاتينية، كان يحتاج إلى قوى أكبر مما يملكه أمير واحد، بل من أجل شن حرب كبيرة ضد الفرنجة كانت القوى اللازمة أكبر مما هو متوفر في بلاد الشام وحدها. وكان نورالدين يبحث عن حليف، في كل مرة يرغب فيها في ولوج ميدان القتال. وقد ساعده عسكر أخيه، وعسكر أمراء آخرين من الجزيـرة في تحقيق انتصاره عند حارم عام ١١٦٤، وفي هجومه على كونتية طرابلس عام ١١٦٧.

كانت النجاحات التي حققها صلاح الدين ضد دويلات الفرنجـة تتماشى اضـطراداً مع نمـو مصادره العسكرية. ففي العام ١١٧٠ والعام ١١٧٧ غزا فلسطين من الجنوب بقوات عبأها من مصر فقط، ولم يستطع آنئذ تحقيق شيء هام. وبعد أن سيطر على شمالي سورية والجزيرة، خلال العامين ١١٨٢ و ١١٨٣ أصبحت قوته العسكرية متفوقة.

أما الجيش، الذي حقق به صلاح الدين أعظم انتصاراته في «حطين»، واستولى به على القسم الأكبر من أراضي دويلات الفرنجة، وحاول به رفع الحصار عن عكا، ومقـاومة الحملة الصليبيـة الثالثة، فكان مؤلفاً من قوات من مصر ودمشق وحلب والجـزيرة والمـوصل، وقـوات من ديار بكر... إلخ. ولم يعد، أثناء حكمه، يستطيع حاكم أو أمير رفض التعاون أو مد يد العون كما كان يحدث سابقا. ولم تعد مصر معزولة عن بقية البلاد، وإنما كان جنود وادي النيل موجودين

جنباً إلى جنب مع جنود بلاد الشام. والأهم من ذلك كله، أن الحاكم العام (السلطان) كان هو بنفسه على رأس ذلك الجيش، بل وفي وسط ميدان القتال.

● قوام القوات العربية والإسلامية التي استطاع صلاح الدين جمعها في حطين:

تبالغ المراجع العربية في تعداد جيش صلاح الدين الذي دخل معركة حطين، فيقول عماد الدين بأن صلاح الدين عندما عاد بعسكره من الجنوب (الكرك والشوبك) عرض جميع جيشه الذي كان يتألف من ١٢٠٠٠ فارس في عشترا، وذلك قبل أن يزحف به إلى حطين.

وتبين مصادر أخرى أن تعداد جيش صلاح الدين كان في حدود: ١٠٠٠ من حرسه و ٤٠٠٠ من العسكر المصري و ١٠٠٠ من دمشق، و ١٠٠٠ من حلب وشمالي سورية، و ٥٠٠٠ من الجزيرة والموصل وديار بكر.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان هناك قوى احتياطية (رماة خيالة ورجالة). وكان جيش صلاح الدين يضم أعداداً تتزايد وتتناقص من العساكر الاحتياطية.

كان جيش صلاح الدين يتألف من قوميات إسلامية متجاورة، فكان يضم:

□ **العرب**: الذين كانوا يقدمون الخيالة، ومن ابرزهم، كما هو معروف بنو منقذ أصحاب شيزر، وبعض من قبائل بدو الشام ومصر.

وقد زود بدو الشام صلاح الدين بإمدادات عسكرية استخدمها بنجاح في مهاجمة الأعداء.

وكان صلاح الدين يستخدم عناصر من القبائل العربية يوجهها إلى صيدا وبيروت ليحصد بها غلات العدو «وما يبرح مكانه حتى يعودوا بجمالهم وأحمالهم موثقة بأثقالها»[1].

□ **التركمان**: كان نورالدين يعتمد جداً على الاحتياطي من التركمان، فحذا صلاح الدين حذوه، وخاصة منهم التركمان الياروقية.

□ **الأكراد**: لم يكن الأكراد عنصراً أساسياً في جيوش نورالدين فقط، بل كانوا أيضاً في جيوش غيره من الأمراء الزنكية والارتقية.

الأعتدة والميرة:

قبل القيام بالحملات الحربية، كانت الدروع والأسلحة المودعة في الزرد خانة توزع على العساكر، كما يصرف لهم عطاء خاص ينفقونه في أمور الحملة.

وكان كل أمير وعسكري يحمل معه مؤناً وعليقاً يأخذهما من عطائه من القمح، أو يشتريهما على حسابه.

هذا بالإضافة إلى احتياطات الأعتدة والميرة التي يحملها الجيش، والموجودة بحماية قلب القوات (القوى الرئيسية).

● تنظيم القوات العربية في المعركة:

يقول ابن الأحدب في كتابه «نهاية السؤل والأمنية في علم الفروسية»، الذي كتب في القرن الثامن الهجري، في فصل الأسماء:

«كل ستة عشر تسمى (صفاً)، وكل صفين من هذه الصفوف المتقاطرة تسمى (عصبة)، وعدد من فيها من الرجال اثنان وثلاثون رجلاً والمقدم عليهم يسمى «صاحب العصبة»، وكل أربعة صفوف متقاطرة تسمى (مقنباً)... إلخ.

وإذا أردنا اختصار هذا الموضوع يمكن أن نسجل:

ـــ الصف الواحد: ١٦ جندياً.

ـــ الصفان المتقاطران: ٣٢ جندياً، يشكلان (عصبة)، قائدها صاحب العصبة.

ـــ الأربعة صفوف: ٦٤ جندياً، تشكل (مَقْنَباً)، قائده صاحب المقنب.

ـــ المقنبان (٨ صفوف ـــ ١٢٨ جندياً)، يشكلان (كردوساً)، قائده رئيس الكردوس.

ـــ الكردوسان (١٦ صفاً ـــ ٢٥٦ جندياً)، يشكلان (جحفلاً) أو (فئة)، وقائده رئيس الجحفل أو رئيس الفئة. وللفئة عناصر إضافية: صاحب الراية، وصاحب الساقة، وصاحب البوق، والخادم، مع عناصر الكشاف (أي الاستطلاع).

ويشكل الجحفل (الفئة) تشكيلاً رباعياً ١٦ رجلاً × ١٦ صفاً.

ـــ الجحفلان (٣٢ صفاً ـــ ٥١٢ رجلاً) يشكلان كبكبة، قائدها رئيس الكبكبة.

ـــ الكبكبتان (٦٤ صفاً ـــ ١٠٢٤ رجلاً)، يشكلان زمرة، قائدها رئيس الزمرة.

ـ الزمرتان (١٢٨ صفاً ـ ٢٠٤٨ رجلاً)، يشكلان طائفة، أو ما يسمى الجماعة التامة، يقودها رئيس الجماعة التامة.
ـ الطائفتان (٢٥٦ صفاً ـ ٤٠٩٦ رجلاً)، تشكلان جيشاً، ويسميه بعض الناس (العسكر)، يقوده قائد الجيش.
ـ الجيشان (٥١٢ صفاً ـ ٨١٩٢ رجلاً)، يشكلان (الخميس).
ـ الخميسان (١٠٢٤ صفاً ـ ١٦٣٨٤ رجلاً)، يشكلان (العسكر الأعظم)
ـ العسكر الأعظم = ٤ جيوش = ٣٢ كبكبة = ٦٤ جحفلاً = ١٢٨ كردوساً = ٢٥٦ مقنباً = ٥١٢ عصبة.

يوضع أفضل قادة الجيش في الميمنة، والذي يليه في الميسرة، والثالث في جنب الميمنة، والرابع في جنب الميسرة... وهكذا.

يحتل المقاتل الواحد، المرتب على التعبئة، من المكان ٤ أذرع في الصف. وهنالك ثلاثة احتمالات إما أن يكون الترتيب عادياً فتكون المسافة ٤ أذرع، أو مزدحماً فيكون ذراعين، أو مضغوطاً فيكون ذراعاً واحدة.

● **تكتيك القوات العربية والإسلامية**:

كان الفرنجة يخشون القوات الإسلامية أشد الخشية، وخاصة القوات السلجوقية، فقد كانوا معجبين بصفاتهم العسكرية. ويشير «فولتشر ـ Fulcher»، في وصفه للجيش الذي لاقى الفرنجة عند «دوريليوم»، حيث كانت «صرخات القتال المرعبة» و «القرع الوحشي للطبول» سمتين أساسيتين تركتا بصماتهما دوماً على الجنود الفرنجة.

كان أعظم خطر يواجه الفرنجة في قتالهم هو التعامل مع الرماة النبالة الراكبين.

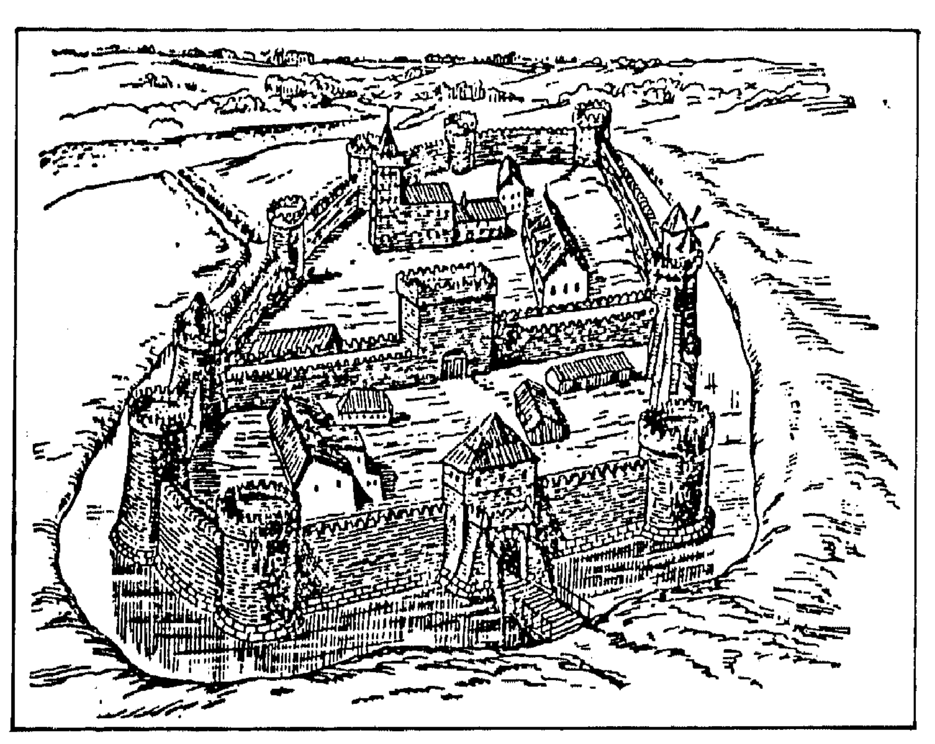
لقد كان الجزء الفعال من القوات العربية والإسلامية، كما كان شأن الفرنجة يقاتل على متن الخيل. ولكن من الواضح ـ استناداً للتسجيلات المعاصرة ـ أن المقاتلين العرب والمسلمين كانوا أسرع من الفرنجة، وأكثر مرونة منهم من حيث المناورة. ولقد عزي ذلك للفرس العربية السريعة ورشاقتها وخفة أسلحة الراكب. لقد كان القوس سلاحهم الرئيسي ولكنهم كانوا يحملون الترس والرمح والسيف والهراوة. وهنالك دليل جيد على أن الرمح والترس كانا أخف وزناً مما لدى الفرنجة. وقد لفت نظر الكتاب الغربيين استخدام العرب لرمح أطول مما كان يستخدمه الفرنجة. فقد ذكر أسامة بن منقذ، بأن الرمح الذي يستخدمه العرب كان أخف كثيراً، فقد كان الرمح الفرنجي مصنوعاً من خشب السنديان أو البلوط، في حين كان الرمح العربي مصنوعاً من قناة من القصب مع أسلة من الحديد[٢].

كذلك فإن الترس العربية لم تكن عريضة وطويلة، بيضوية الشكل، تغطي معظم طول الجسم، كما هو الحال لدى الفرنجة، وإنما كانت تصنع على شكل مجنات مستديرة صغيرة، أقل مناعة في الدفاع، ولكنها تملك ميزة الخفة. لذا فإن المسلمين، بفضل خيولهم السريعة الرشيقة، وبفضل أسلحتهم الفعالة الخفيفة كانوا أخف حركة من الفرنجة. وقد عرف العرب كيف يستغلون هذه الحركية العالية في أربعة وجوه رئيسية:

١ ـ كانت الحركية العالية تمكنهم من البقاء بعيداً عن العدو، واختيار اللحظة المناسبة للالتحام معه.

كان الفرنجة يستفيدون من ثقل خيولهم وأسلحتهم وحركتهم الثقيلة ليحملوا حملة قوية على العدو. وكان هذا فعالاً إذا كانت الحملة موجهة ضد قوات معادية متماسكة فقط. أما الخيالة النبالة المسلمون فلم يكونوا يشكلون هدفاً من هذا القبيل، فإذا ما شن عليهم مثل هذا الهجوم، فإنهم سرعان ما ينفرطون مبتعدين. وعندما كان الفرنجة يتوقفون عن تكرار هذه المحاولة، كان العرب ينطلقون بدورهم بهجوم سريع للغاية.

٢ ـ كان العرب يستخدمون أسلوب التقهقر الخادع. وقد استخدم الفرنجة في سورية ذلك في عدد من المناسبات، إلا أن العرب كانوا معتادين على هذه المناورات باستمرار، بأساليب وطرق مختلفة ومتعددة. وقد يمتد تقهقرهم أحياناً بضعة أيام، ولكنه كان يهدف دوماً إلى إرهاق الفرنجة وإبعادهم عن قواعدهم. وكثيراً ما كانوا يستخدمونه «طعماً» لاجتذاب الفرنجة إلى كمين مبيت.



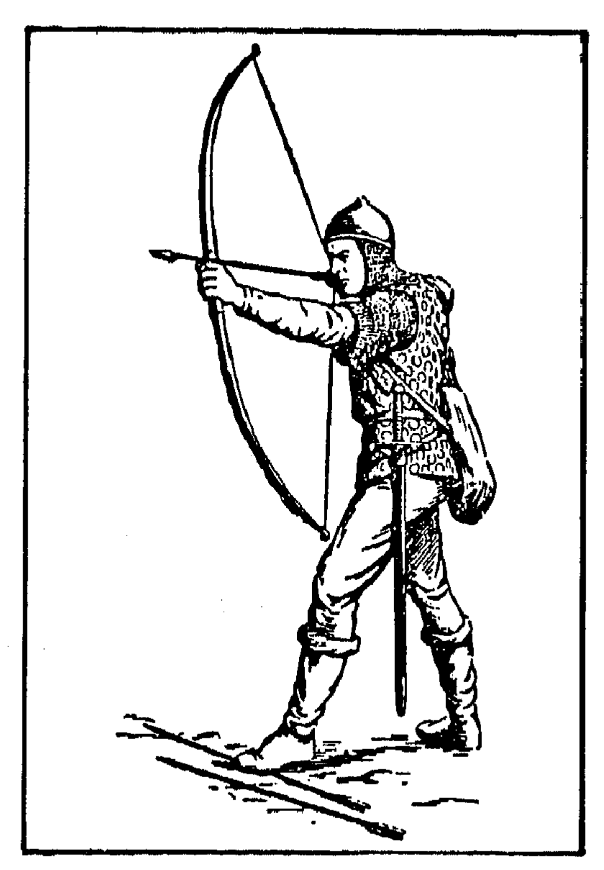
□ نموذج لقلعة (حصن) إقطاعية.

٣ ــ كان العرب يستفيدون من حركيتهم العالية لمهاجمة جناحي العدو ومؤخرته. فما إن تسنح الفرصة لهم حتى يحوموا حول العدو كالنحل، ويهاجمونه من جميع الجهات، فإذا لم يستطيعوا الإحاطة بالعدو اكتفوا بالالتفاف عليهم من جانبين أو جانب واحد مثل «الهلال». وكان هذا التكتيك الإسلامي لا يعهده الفرنجة في أوروبا. لذلك كانوا مضطرين حياله للاحتياط له واتخاذ إجراءات تكتيكية خاصة في الشرق.

٤ ــ أما الوجه الرابع في استخدام المسلمين لحركيتهم العالية، فهو مهاجمة العدو وإرغامه على القتال أثناء المسير. ولم يكن ذلك ممكناً إلا إذا كان المهاجم قادراً على التحرك بسرعة تزيد عن سرعة الخصم وإلى مديات أبعد من مداه. وكانت تلك طريقة مستجدة على الفرنجة من طرائق فن الحرب، وتثير غيظهم بشكل خاص لأن الفرنجة هاوون بطبعهم لترتيب فصائلهم بدقة قبل الشروع في القتال، ويميلون إلى دخول المعركة بتنظيم كامل. وكان الخطر الرئيسي يأتي من ميل المسلمين إلى الهجوم من الخلف «Fulcher»، فعندما كانوا يهاجمون رتلاً سائراً، كان جهدهم الرئيسي ينصب دائماً على المؤخرة وكانت المشكلات التي تواجه القائد في هذه الظروف، من أجل الإبقاء على سيطرته، أكبر كثيراً مما لو ركز العدو هجومه على المقدمة، حيث خطط القائد. وقد اضطر الفرنجة في بلاد الشام إلى اتخاذ إجراءات مضادة أكثر من مرة لمجابهة مثل هذا الهجوم.

كانت السمة التكتيكية الثانية، التي اشتهرت بها القوات الإسلامية أيضاً، اعتمادها على النبّالة. وكان هؤلاء ماهرين في استخدام القسي من متن الخيول والرمي منها أثناء الحركة بدون أي توقف أو ترجل. حتى أن المسلمين كانوا قادرين، أثناء الفر على الالتفات إلى الخلف وإطلاق سهامهم على مطارديهم، وهم على ظهور الجياد. ومن المرجح أن يكون إطلاق السهام عالياً جداً، بالاستناد إلى استخدام الكتاب اللاتيني المتكرر لكلمات مثل Pluvia (زخات المطر)، و Imber (مدرار)، و Grando (وابل)... إلخ.

وكان الاستخدام التكتيكي لهؤلاء النبالة (النشابة) يهدف إلى تحطيم تماسك العدو، إذ كان الفرنجة يعتمدون على الهجوم الراكب لتحقيق النصر في المعركة. وكان المسلمون يدركون تماماً أهمية تدمير خيول الفرنجة. لذلك كانوا يخصصون القوة اللازمة من النشابة لتنطلق



□ نبال فرنجي.

بهذه المهمة لتبقر بطون الخيل برمي النشاب والسهام من القسي العقارة. ومتى فقد الخيال الصليبي فرسه يعتبر خارج المعركة ويسهل قتله أو أسره.

وكان المسلمون يستغلون «المفاجأة» (المباغتة) جداً في المعركة وعندئذ يكون العمل التمهيدي غير ضروري، وكانوا يبقون، في الغالب، بعيدين عن التماس مع العدو، محتفظين بحريتهم في اختيار أسلوب الضربة. فإما أن يطوروا المعركة بسرعة أو يتخلوا عنها. ولا يعرضون أنفسهم للقتال القريب إلا عندما يهيئون الظروف المناسبة بالرمي والحركة.

ويقدم «فولتشر» بعض الميزات التي تتمتع بها القوات العربية، فيقول بأن خطر مسلمي الشمال على مملكة القدس كان أعظم بكثير من تهديد حكام مصر. ويقدم كاتب مجهول، كان هو نفسه مقاتلاً معجباً بالصفات العسكرية للمسلمين. فعندما بدأ يتحدث عن أول مواجهة له مع الجنود الفاطميين، عند عسقلان راح يصف بوضوح خصماً مختلفاً تماماً. وقد جاء في وصفه:

«ولم يكن لديهم أي نبالة راكبين أو أية قدرة على الحركة».

ولهذه الأسباب يذكر وليم الصوري بأنه: «لم يكن الفرنجة يخشون المصريين إطلاقاً، كما كانوا يخشون جيوش سورية والجزيرة المسلمة، حتى جاء عصر صلاح الدين».

يقول الجنرال الروسي رازين، في كتابه «تاريخ فن الحرب»، الجزء الثاني، إن العرب اشتهروا منذ القدم كمحاربين أشداء، توحدهم في المعركة الروابط القبلية المتينة. وفي القبيلة يعتبر كل فرد فيها محارب، واشتهر هؤلاء المحاربون بالشجاعة وشدة المراس.

لم يكن كل عربي قادراً على امتلاك جواد، الأمر الذي ألزم الكثيرين على القتال راجلين. وقد شكل هؤلاء عنصر المشاة (الرجّالة). وكان العرب يستخدمون بشكل خاص وواسع، الجمال في الحروب ضمن وحدات المشاة والخيالة وكانت الجمال بالفعل خير وسيلة للتنقل في الصحراء، ولنقل الحمولات الثقيلة من أسلحة الحصار. المجانيق، العرّادات، أبراج الحصار، وخيام مشافي الميدان، والجرحى، إضافة لنقل مواد الإمداد والتموين.

كان تسليح المحاربين الراكبين على الجمال، يتألف من الرمح الطويل (القناة)، بالإضافة لما يحمله الفارس من أسلحة أصغر حجماً. أما تسليح الخيال العربي فقد كان متنوعاً وغنياً وكان على المحارب أن يمتلك قوسين قويين ومتينين، مزودة تحتوي على ثلاثين سهماً، ذات نهايات حادة، وأجنحة معدنية ورمحاً طويلاً من الخيزران ينتهي برأس من الحديد المتان، وقرصاً معدنياً ذا حواف حادة، وسيفاً حاداً للطعن، وفأساً قاطعة، وأحياناً نبوتاً (هراوة)، أو فأساً (بلطة) ذا حدين، و ٣٠ حجراً في خرجين.

أما التسليح الواقي عند المحارب العربي، فيقول الجنرال رازين، أنه كان يتألف من درع وخوذة، ومن صفائح معدنية تغطي الأيدي والأرجل. وقد وجه العرب اهتماماً كبيراً لاستخدام الأعتدة الحربية الثقيلة، التي اقتبسوا بعضها وحسنوها عن البلاد المفتوحة

وكانت قواتهم تصطحب معها أدوات الحصار المعقدة: المنجنيقات والدبابات والعرادات والأقواس الثقيلة... إلخ. كما استخدموا وعلى نطاق واسع، القذائف المحرقة الشبيهة بما كان يطلق عليه «النار اليونانية» والعبوات المليئة بالنفط والزراقات. وقد اشتهر السلاح الفولاذي العربي، في فترة بين القرنين التاسع والحادي عشر، وخاصة منه المصنوع في دمشق، والذي كان مشهوراً في كافة أنحاء المعمورة.

وتعتبر الخيالة أفضل وأهم صنف في القوات العربية. وكانت تقسم إلى صنفين: ثقيلة وخفيفة وكانت الخيالة الثقيلة مسلحة برماح طويلة، وسيوف وبلطات ودرع واق. وكان تسليح الخيالة الخفيفة عبارة عن أقواس ونشاب ورماح خاصة طويلة ورفيعة. ويقول رازين، بأن الخيالة العربية كانت، بشكل عام، أكثر خفة وسرعة من خيالة الفرسان في أوروبا الغربية.

أما المشاة العربية (الرجالة)، فكانت تتألف من صنفين أيضاً، ثقيلة وخفيفة. وكان تسليح المشاة الثقيلة يتألف من الرماح والسيوف والدروع، وكانت المشاة تنظم في المعركة في صفوف عميقة، أما الخفيفة فكان تسليح أفرادها يتألف من قوسين كبيرين وثلاثين سهماً لكل مقاتل. وكانت المشاة الخفيفة تقاتل بالصفوف المبعثرة.

● **نظام تحرك القوات العربية إلى ميادين القتال:**

كانت القوات العربية عندما تريد أن تتحرك بمسافات بعيدة تنتظم في ترتيب مسير قتالي، جاهز لدرء المفاجآت التي قد تحصل أثناء الطريق، وجاهزة للدخول في المعركة لمجرد الاصطدام بطلائع العدو.

وقد شرح كتاب «السؤل والأمنية» هذا الترتيب، ونشره الجنرال رازين السوفييتي في كتابه «تاريخ فن الحرب»، وذكر بأن هذا الترتيب يتمتع بكل ما يجب أن يتمتع به الرتل المنظم تنظيماً صحيحاً.

ويتألف الرتل القتالي من:

□ **الطليعة**: وهي مؤلفة من الخيالة الخفيفة، التي تندفع إلى الأمام بضعة كيلومترات، دافعة



□ مقاتلون مشاة فرنج.

إلى الأمام والجوانب مفارز استطلاع سريعة، بهدف: دراسة الأرض والطريق والحواجز الموجودة عليه، إنذار القوى الرئيسية (القلب) عن الحواجز الأرضية والمائية والدلالة إلى الطريق الأفضل للتحرك، نصب نقاط مراقبة للرصد البعيد، بهدف إعطاء معلومات عن مشاهدتها للعدو وتحركاته وإعطاء المعلومات بإشارات خاصة متفق عليها، الاصطدام بالعدو وبدء التعامل معه بإضعافه، بأسلوب الكر والفر، وإنهاكه قدر الإمكان حتى وصول القلب واتخاذه الوضعية المناسبة للقتال، ومن ثم التحول إلى مفارز لقنص العدو من المؤخرة والأجناب والعمل على فصل مشاته عن فرسانه، وقطع وصول المؤن والنجدات الأخرى من الخلف عن طريق نصب الكمائن.

وقد استغلت هذه النقطة استغلالاً جيداً ورائعاً في موقعة حطين. وكان لها تأثير كبير على سرعة تدمير الجيش الصليبي.

□ **القوى الرئيسية (القلب)**: وكانت تشكل أساس الجيش وقوته الضاربة. وكانت هذه القوى المؤلفة من المشاة الثقيلة والخفيفة والخيالة الثقيلة، أساساً، تحتاج لوقت للاستعداد

للدخول في المعركة، لذا فإنه يجب إنذارها مسبقاً، وهذا ما كانت تفعله الطليعة، التي تمهد لدخول القوى الرئيسية بشكل منتظم في المعركة.

وكان العرب يلجأون إلى أسلوب إركاب النبّالة الخفيفة المرافقة للخيالة الثقيلة على نفس الخيل، حتى تكون جاهزة، وبدون أي تأخير أو انفصال، لتغطية دخول الخيالة الثقيلة في المعركة. ويقول الجنرال «رازين»: «إن هذا النوع من المناورة لم يكن معروفاً إلا لدى العرب، الذين كانوا يتنقلون بأعداد كبيرة وبوسائط نقل محدودة. وضمن تشكيل القوى الرئيسية (القلب) كانت تسير **قافلة الإمداد والتموين**. وكان العرب يأخذون معهم من المؤن ما يكفي لقتال عدة أيام بالإضافة للتعيينات اليومية الموزعة على المقاتلين والمحفوظة في مزاودهم الشخصية.

وكان العرب يطلقون على قافلة الإمداد والتموين، في القرن العاشر، تعبير «**الثَّقَل**»، ذلك لأن القوات العربية كانت تتميز بخفة الحركة ما عدا هذا «الثَّقَل» الذي كان يؤخر ويعوق حركة القوات.

□ **معدات الحصار**: وهي ثقيلة ومعقدة، وكانت تسير خلف رتل القوى الرئيسية وتتضمن معدات المنجنيقات والعرّادات والسلالم والجسور اللازمة لاقتحام الخنادق الموجودة حول القلاع والحصون. ونظراً لثقلها فقد كانت تحملها الجمال وتُحمى من قبل القوى الرئيسية السائرة أمامها.

□ **مشافي الميدان**: وما يلزمها من العناصر الطبية والعقاقير كانت تحمل أيضاً على الجمال السريعة، جاهزة للانتشار وجمع المرضى والجرحى وتمريضهم وإسعافهم ومعالجتهم.

وعند توقف القوات للاستراحة، تلجأ إلى اتخاذ التدابير الاحترازية «وأما الاحتراز في المنزلة (التعسكر في المكان)، فإذا أخذ كل واحد من العسكر منزله كان عليهم أن يحتفروا خندقاً مستديراً على العسكر، ويجعل له بابان، أو أكثر من ذلك، إن كان العسكر كثيراً. ويقف الرماة والفرسان على أبواب الخندق على أتم أهبة. وكان أصحاب العساكر في الأزمنة السالفة إذا نزلوا منزلاً نثروا خارج الخندق «حسك الحديد» المعروفة الآن بالزقازيق، وهو حديد له شوكات كيفما وضع على الأرض قامت له شوكة منه ليكون كالسور على العسكر.

ثانياً:
الجيوش اللاتينية (الصليبية)

● **التجييش لدى الفرنجة**:

كان حكام الدويلات اللاتينية ينظمون جيوشهم، خلال القرن الثاني عشر، من:

ــ الخدمة المفروضة على أصحاب الإقطاع من الطبقة العسكرية.

ــ المستوطنين الفرنجة، كالتزام شعبي في حالات الطوارىء. وهنا يتعهد كل رجل حر بتأدية الخدمة العسكرية عندما تدعو الحاجة إلى ذلك.

وكانت القوات التي تعبأ بالأسلوبين المذكورين غير مضمونة القدرة القتالية لأسباب مختلفة. وتبين، بمرور الزمن، أنه من الأنسب تعزيزها، أو استبدال بعضها بجنود مرتزقة (مأجورين).

وقد استغلت مصادر التجنيد الثلاثة هذه في بلاد الشام بشكل كامل، فكانت القوات تتألف من:

ــ القوات الإقطاعية.

ــ قوات النفير العام (التعبئة العامة).

ــ الجنود المرتزقة.

وقد أضيف إلى هذه القوى عنصر رابع أخذ من جماعات الحجيج المتطوعة، ومجموعات الأخويات الرهبانية الفرسانية العسكرية، التي كانت أهميتها تتزايد يوماً بعد يوم (الداوية والاسبتارية).

كان تعداد الجيش الصليبي، في العام ١١٨٣، في حدود الـ ١٥,٠٠٠ رجل (وليم الصوري، أبو شامة)، ومن المرجح أنه كان عدد المشاة في «حطين»، في العام ١١٨٧ يزيد عن عشرة آلاف رجل (بلدوين)[٣].

● **قوام وحجم جيش الفرنجة قبل معركة حطين**:

يذكر مرجع Historia rejne hierosulymitani أن حجم الجيش الفرنجي كان: ألف فارس من فرسان المملكة، فضلاً عن ألف ومئتي فارس أنفق عليهم الملك هنري الثاني، وأربعة آلاف

تركبولية، وثلاثين ألفاً وألفين من الرجالة، تولى هنري الثاني الإنفاق على سبعة آلاف رجل منهم.

أما كتاب حملة ريتشارد Itinerarium فإنه يقدر العدد على أنه عشرون ألفاً. أما Estoire d'Ezacles فأورد في مخطوطة عدد الجيش كله على أنه تسعة آلاف رجل، وفي مخطوطة أخرى أربعون ألف رجل.

على أن نسبة الرجالة إلى الفرسان لا تبلغ نسبة عشرة إلى واحد، والراجح أنهم لم يقلوا عن عشرة آلاف، وقد يبلغ عدد الخيالة الخفيفة (التركوبولية) أربعة آلاف رجل.

وعلى الأرجح فإن جيش صلاح الدين كان يزيد قليلاً عن جيش الفرنجة. وبذا يعتبر الحد الأقصى لجيش الصليبيين، خمسة عشر ألف رجل، والجيش العربي الإسلامي ثمانية عشر ألف رجل أمراً مقبولاً.

● **خصائص القوة العسكرية:**

تميزت القوات العسكرية الفرنجية بالصلابة والقسوة في الحرب، وفي معاملة المسلمين العرب، فقد كانت هذه القسوة توقع الرهبة في روع المواطنين. كان الصليبيون يعتبرون المسلمين كفاراً أعداء الله، ولذا فمن العمل الصالح إبادتهم. فقد كانوا يقتلون الأهالي والأسرى ولا يعدمون وسيلة لإيقاع الخسائر بالسكان المحليين، وكانوا يشنون الغزوات المفاجئة لجمع مزيد من الأموال والمحاصيل. وكانوا يدركون بأن التهاون مع الامارات العربية التي تحيط بهم معناه الضياع وفقدان الروح والأرض، ولذا حاولوا أن يكونوا كتلة واحدة للدفاع عن كيانهم الغريب في المنطقة.

وكان سلاح المقاتل الصليبي غنياً وقوياً وثقيلاً. فقد كانت الرماح تصنع من أقسى أنواع الخشب، وكانت الدروع تغطي كافة أنحاء جسم المقاتل، حتى وحصانه في كثير من الحالات، وكان الدرع الفرنجي قاسياً وطويلاً، يستطيع حامله أن يحمي به القسم الأكبر من جسمه، في حين كان الترس العربي عبارة عن مجنّ صغير.

ولكن ومع مرور الوقت برزت نقاط ضعف في القوة العسكرية الفرنجية أدت إلى نقص فاعلية الفرنجة في الحرب، منها:

— لم يكن لدى أي حاكم من حكام الفرنجة، في القرن الثاني عشر، جيش قوي قادر على تلبية احتياجات دويلته بكاملها.

— أصبح التعاضد بين أمراء الفرنجة مع مرور الوقت ضعيفاً. وهنالك عدد من المناسبات فشل فيها ملوك بيت المقدس في السيطرة على الأمراء الإقطاعيين (يشير لامونت إلى رفض الداويّة التعاون مع أملريك في غزوة مصر).

— ضعف في السيطرة على القوات أثناء الحرب، وكثرة الرؤوس والآراء، واستقلال بعض الأمراء بآرائهم في استخدام قواتهم.

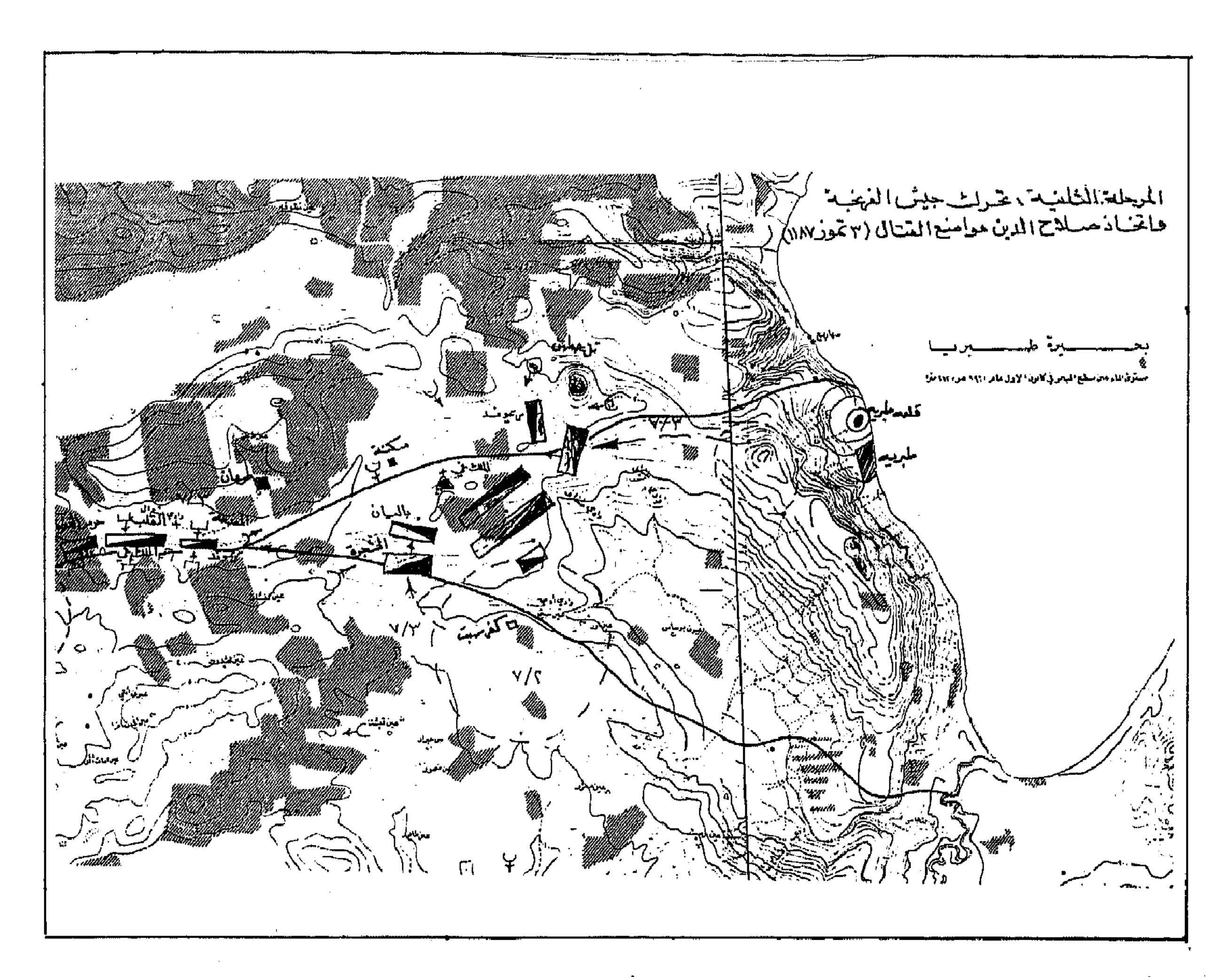
— عدم تعاون، وقلة ثقة واضحة بين الفرنجة والسكان، الأمر الذي كان يوجب الحذر دوماً من جانب الفرنجة.

— أن النجاحات الأولى التي حققها الفرنجة، أتت من محصلة التفرقة والضعف السياسي في بلاد العرب، وما إن أعيد توحيد بلاد الشام، واتحدت هذه مع مصر حتى أصبح الفرنجة في حاجة إلى قوة عسكرية متزايدة، حتى من أجل المحافظة على الكيان والأراضي التي استولى عليها أسلافهم.

وعندما أخذ العرب يستردون بالتدريج أراضيهم، ضعفت الموارد العسكرية الفرنجية، ومن ثم تقلصت جداً، ولم تعد تكفي للإنفاق على القوة العسكرية العادية، بل المتزايدة.

وهنالك بعض حكام الفرنجة، الذين وجدوا أنفسهم عاجزين عن تأمين تكاليف الحفاظ على مقاطعاتهم وقلاعهم وحصونهم فأجروا بعضها أو باعوها (تأجير دير جبل طابور لمدة ٢٥ سنة إلى الأخوين بطرس في العام ١١٦٣. بيع هيوابلين الثالث قلعتين إلى الداوية في العام ١١٥٨ ليفتدي نفسه. باع رالف أحد الفرسان من الداوية، ممتلكاته ليفتدي نفسه من الأسر. بيعت «قلعة المرقب» للاسبتارية في العام ١١٨٦، وهي من أكبر القلاع في بلاد الشام، بسبب «نفقاتها الباهظة، ووجود العدو في الجوار»... إلخ.

ومع اشتداد بأس خصمهم، واجه الفرنجة مأزقاً صعباً للمحافظة على وجودهم في سورية. فقد كان العرب يسعون إلى إضعاف الفرنجة، بتدمير اتصالاتهم الاجتماعية والتجارية،



وبتقليص موارد السلطة الفرنجية بتخريب المناطق الريفية ومصادر الدخل بشكل عام. وهذا أدى بدوره إلى إضعاف القدرة على التجنيد، وبالتالي إضعاف القدرة العسكرية الصليبية.

ومع ذلك فقد كان الجيش الصليبي جيشاً لا يستهان به، يدعم بشكل مستمر مالياً وبالعناصر من أوروبة الغربية، هذا الأمر الذي بث فيه روح الحياة قرنين من الزمن.

هذا هو الجيش الذي كان على صلاح الدين الأيوبي مقابلته وكسره في موقعة حاسمة.

● **خصائص تكتيك جيش الفرنجة:**

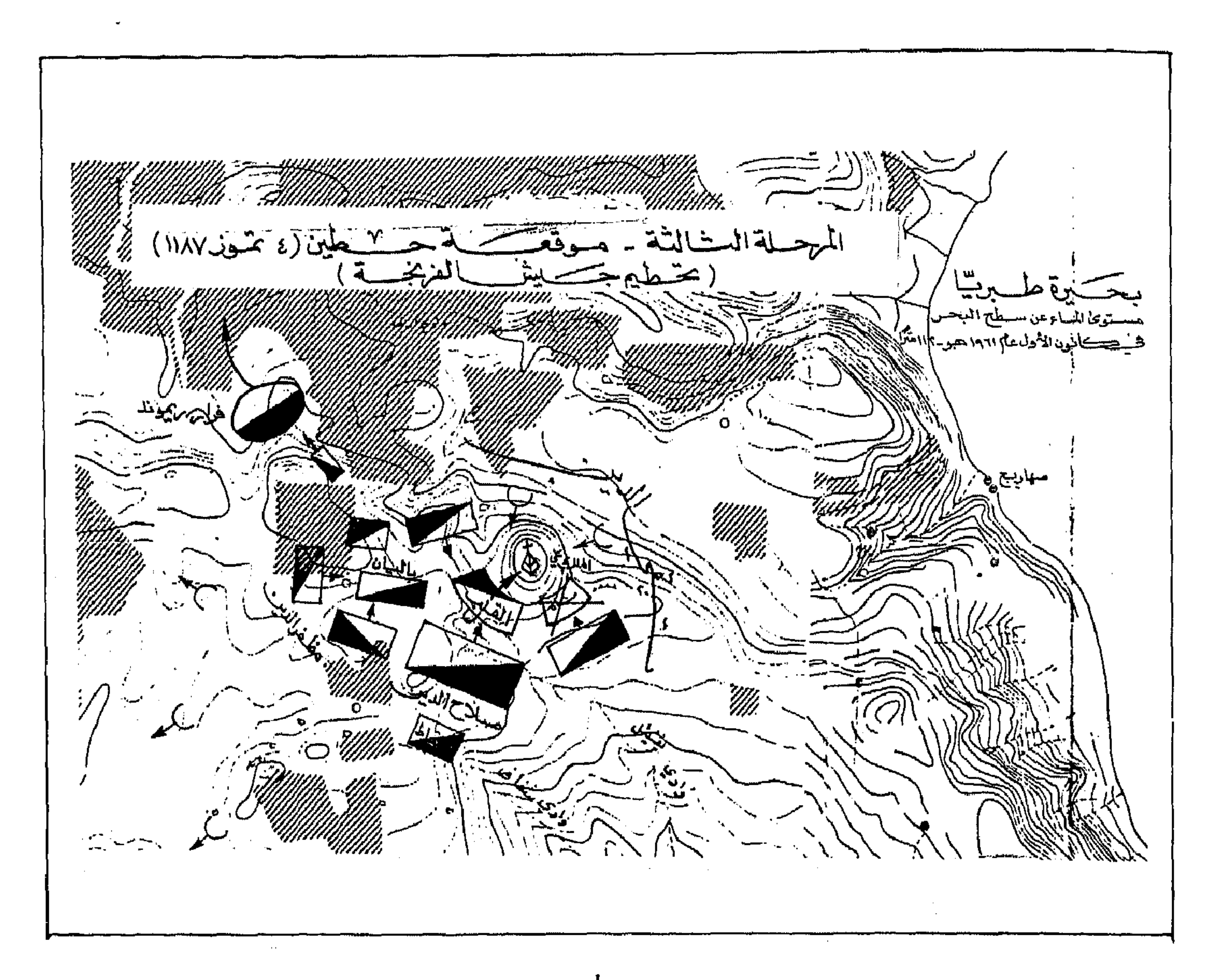
كان الفرنجة يدركون بوضوح مصلحتهم في تجنب المعركة مع العرب في غالب الأحيان:

١ ــ أولاً لتباين أساليب قتال كلا الطرفين. ذلك أن القوة الضاربة لجيش الفرنجة تتمثل في كتلة الخيالة الثقيلة المدرعة، التي تهاجم عادة بقوة وتماسك، وتضرب بشدة الكتلة الرئيسية لجيش الأعداء. ولكن الأسلوب العربي في الكر والفر، كان لا يترك للفرنجة الهدف الذي يستحق الضربة القاتلة للخيالة المدرعة، فتأتي الضربة في الخلاء.

ومن المعروف أن لهذه القوة الضاربة المتراصة ضربة واحدة، وبعدها إما أن يفنى الخصم وينهزم، وإما أن تتشتت هذه القوة، وعندئذ يُحتاج إلى وقت كبير لإعادة جمع الشتات لتنظيم ضربة جديدة.

لذا فإن الفرنجة كانوا لا يطلقون هذه الضربة إلا إذا وجدوا الهدف المناسب، الذي إذا دُمر أدى حتماً إلى هزيمة الجيش العربي. وكان العرب لا يتركون هذا المجال للفرنجة، وينالون تدريجياً من قوة العدو حتى تتفكك، وحين يبدأ التفكك في جيش العدو يكون ذلك بشيراً بالهزيمة للفرنجة والنصر للعرب. لذلك كان الفرنجة يتجنبون المعركة قدر الإمكان محافظة على قوتهم العسكرية.

٢ ــ ضعف السيطرة في الجيش الفرنجي،



حيث كان الحكام والبارونات يشتركون أو لا يشتركون في بعض المعارك حسب مزاجهم، كما تختلف أعداد القوات التي يرسلونها إلى ميدان القتال حسب درجة قناعتهم بضرورة أو عدم ضرورة القتال.

٣ ــ لم يكن الخيالة المدرعة يهاجمون كتلة واحدة، وإنما كانوا ينقسمون إلى كراديس (سرايا) عدة. وقد ذكر بأن هذه الكراديس لم تكن تقل عن خمسة أو ستة. وأن تعدادها المتوسط كان يتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ فارساً ويبدو من السجلات أن الكراديس كانت تنتظم بترتيب ثلاثي تقريباً يتألف من القلب والميمنة والميسرة. وكان تعداد الأنساق ضمن هذه التشكيلات قليلة العمق، ويكاد يطلق عليها تشكيلة النسق، الذي ليس فيه شيء من العمق.

ولم تكن قوة الفرنجة الراكبة تنطلق بكاملها إلى الهجوم في آن واحد، بل كانت فرق الجيش تهاجم بالتتابع.

٤ ــ أظهرت معارك صليبية بوضوح أهمية وجود قائد ميداني واحتياط تكتيكي لدى الفرنجة. وكان هذا قليل الحدوث، ففي أثناء الحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة لم تكن هناك وحدة في القيادة. وكان النزاع السياسي يتسبب في انقسام القيادة العليا. كما أن الاحتياط كان أمراً قليل الوجود.

وكان على الفرنجة، مستفيدين من حوادث ومعارك سابقة، أن يغطوا كافة تراتيب قتالهم وتراتيب مسيرهم بالمشاة خوفاً من النبالة المسلمين. كما كان عليهم تجنب مطاردة المسلمين عندما كانوا يجدون بوادر النصر، خوفاً من التقهقر المخادع أو الانسحاب الكاذب نحو كمائن محضرة للعدو.

ثالثاً:
مقارنة وتناسب القوى العربية وقوى الفرنجة

يصعب إجراء حساب تناسب صحيح من حيث القوى المشتركة في موقعة حطين، وفق الأساليب الحديثة، لأن حجم قوى الطرفين المتنازعين لم يكن معروفاً بالدقة. ولكن يمكن القول بأن صلاح الدين كان يملك الجيش الأكبر والأكثر حيوية والأعلى معنويات من خصمه. وإذا كان صلاح الدين يملك الجيش الأكبر، فإن معظم الباحثين يقولون بأن القوى كانت متقاربة من حيث الحجم. ولكن أن يكون صلاح الدين قد ملك الجيش الأكثر حيوية والأعلى معنويات فهذا لا شك فيه، فإن حيوية جيش صلاح الدين واضحة من حركته السريعة من دمشق إلى رأس الماء، وتنفيذ إغارة في أيار ١١٨٧ على أعمال طبرية، ثم التحرك إلى بصرى ثم إلى الكرك والشوبك لينتظر وصول قافلة الحج ثم تخريب منطقة الكرك والشوبك، ومن ثم الاجتماع مع الجيش المصري في القريتين ومنها إلى عشترا يستعرض الجيش الكبير. ومنها إلى خسفين والأقحوانة ثم إلى طبرية وكفر سبت ومن ثم إلى حطين، أمر يثير الإعجاب بهذه القدرة الكبيرة والحيوية الرائعة. لقد كان هذا القائد الكبير يتحرك بكل حواسه نحو المجد الأكبر وهو إنهاء وجود الفرنجة في بلاد الشام.

رابعاً:
وصف الأرض
في ميدان القتال

اختار الفرنجة منطقة أحراش وينابيع الصفورية قاعدة أساسية لمقابلة جيش صلاح الدين. والصفورية منطقة تقع في منتصف الطريق بين عكا، على ساحل البحر، وبين طبرية (على ساحل البحيرة المسماة باسمها). فساحل البحر هو منطقة قدوم الإمدادات الصليبية وأبعد منطقة صليبية إلى الغرب، وطبرية هي أبعد منطقة إلى الشرق، حيث تدخل الأرض فيما يليها إلى الشرق تحت حكم العرب. وبالتالي تشكل طبرية حصناً لصد العدو القادم من الشرق.

فالصفورية، إذن، موقع استراتيجي متوسط وهام، يقع في منتصف منطقة الجليل ويؤمن إشرافاً وطرق مواصلات إلى كافة المناطق الشمالية المحتلة من قبل الفرنجة.

وبالإضافة إلى ذلك، فمروج الصفورية قاعدة ممتازة للتموين بالماء وبالأعلاف وبالأغذية ففيها عيون ماء كثيرة، ومراع خصبة، كما أن الدفاع فيها سهل لكون المتمركز فيها قادراً على الصمود لمدة طويلة تجاه عدو يطوقه ويقاتله. وهي لا تبعد أكثر من ٤ ــ ٥ كيلومترات عن الناصرة، و ٢٥ كيلومتراً عن مدينة طبرية.

فلا غرو أن يتخذها الصليبيون قاعدة للقتال ضد العرب والمسلمين، فقد جربوا ذلك ونجحوا في مرة سابقة أو أكثر.

أما مدينة طبرية، فقد كانت بلدة صغيرة، تقع على الشاطىء الغربي للبحيرة، مسورة وفيها قلعة. وماء البحيرة التي تقع على ساحلها صالح للشرب، منخفض عن سطح البحر بمقدار ٢١٠ إلى ٢١٢م. وترتفع الأرض من الشاطىء الغربي للبحيرة بشكل حاد إلى الغرب، حيث يتشكل فوق المدينة من الغرب جرف عال مواز للشاطىء ارتفاعه ١٨٠ متراً فوق سطح البحر، أي ما يعادل ٤٠٠ متراً عن مياه البحيرة.

وعلى مسافة ٧ ــ ٨ كيلومترات إلى الغرب من شاطىء بحيرة طبريا يوجد تل ذو نتوءين، ارتفاعه ٣٢٦ متراً عن سطح البحر، يطلق عليه منذ القديم مرتفع قرني حطين. وهو مكان يستخدم لإقامة الطقوس المقدسة للنبي شعيب، حيث يقع قبره بقربه. وترتفع الأرض تدريجياً حتى تصل إلى قمة جبل طرعان ٥٢٨م.

وقد وصف رحالة من المحدثين الأرض الواقعة قرب قرني حطين كما يلي: «... كما رأيت على هذا الجانب (الجنوب) أن التل عبارة عن عقبة منخفضة ارتفاعها ١٠ ــ ١٥ متراً، وطولها ليس أكثر من عشر دقائق من الشرق إلى الغرب، وينبعث في نهايتها الشرقية كتلة (قرن) تصل إلى ارتفاع ٢٠ متراً فوق السهل، وعلى النهاية الغربية قرن آخر ليس بنفس الارتفاع».

ولا يمكن بدقة معرفة الطريق الذي اتبعه الفرنجة من الصفورية إلى حطين، وخاصة بعد شق الطرق الحديثة، ولكن لا بد وأن يكون المسار غير بعيد عن الطريق الحديث. وتبدو على الخرائط الحديثة أن المنطقة التي سار فيها

الفرنجة منطقة جافة المياه، أو على الأقل ليس فيها ينابيع كبيرة قادرة على إرواء جيش كبير مع رواحله.

خامساً:
تحضيرات ما قبل الموقعة

استعرض صلاح الدين القوات العربية الإسلامية في ١٥ ربيع الثاني ٥٨٣ (١١٨٧/٦/٢٤) من تل تسيل، وهو مرتفع يعرف اليوم باسم «تل الجموع»، ويقع على مسافة ٤ كم شمال شرق قرية تسيل في حوران. ومنه سار إلى عشترا. ومن عشترا انطلق يوم الجمعة ٦/٢٦ إلى خسفين ومنها إلى الأقحوانة جنوبي طبرية، حيث مكث خمسة أيام يراقب أعمال العدو.

في هذا الوقت كانت قوات الصليبيين قد تجمعت في الصفورية، بعد عقد مؤتمر عسكري (مجلس حرب) في عكا تقرر فيه الاستعداد للوقوف في وجه نوايا صلاح الدين.

وكان صلاح الدين ينتظر تحرك القوى الصليبية من الصفورية باتجاه قواته، وعندئذ سيناوش القوى الصليبية أثناء مرورها في منطقة حطين العطشى، وهي منطقة حددت في كتاب غروسيه في حدود: طرعان، الشجرة، لوبية، مسكنة، خان مدين، حطين.

وعندما وجد صلاح الدين أن العدو لا يتحرك من الصفورية، قسم قواته إلى نصفين أرسل نصفها إلى منطقة كفر سبت، التي تقع إلى الجنوب من قرني حطين بمقدار ٦ ــ ٧ كيلومترات حيث بقي الماء لديه، وهذا الموقع يقع على الطريق الذي يحتمل أن تسلكه القوات الصليبية عند تحركها نحو طبرية. وبث مفارز استطلاعه الراكبة على الخيل على طول الطريق المحتمل من الصفورية حتى حطين ليبلغوه خبر تحرك قوى الفرنجة.

وأرسل صلاح الدين نصف قواته الثاني إلى الهضبة التي تعلو طبرية بحيث تمكنت من إغلاق الطريق إلى المدينة من الصفورية وأخذ ينتظر. وعندما لم تبد من الصفورية بادرة تحرك، أخذ مجموعة من قواته وهاجم مدينة طبرية فاحتلها في ساعة وضرب طوقا حول قلعتها، التي تقيم فيها الأميرة ايشيفا «Echeve» زوجة كونت طرابلس ريموند الثالث، وباشر في ثقب سور القلعة.

لم تكن القلعة نفسها هدفه العسكري، بل كان الجيش الصليبي الموجود في الصفورية وكانت بادرة تحرش صلاح الدين بطبرية عملاً يقصد به تحريك الجيش الفرنجي ليمر في المنطقة العطشى ويدمره فيها.

وبطريقة ما وصلت استغاثة أميرة طبرية إلى الملك غي في الصفورية، حيث عقد مجلس الحرب ثانية.

اضطرب الوضع في قيادة جيش الفرنجة الضخم للمرة الثانية، حول كيفية ملاقاة جيش صلاح الدين: هل يبقى الجيش في وضع دفاعي في الصفورية، كما فعل مرة أو مرات قبل ذلك فاضطر صلاح الدين للعودة، أو يتحرك الجيش لإنقاذ طبرية.

وكما هو معروف، كان ريموند الثالث حاكم طبرية إلى جانب الرأي الأول، وكان ارناط (رينو شاتيون) وجيرار ريدخور إلى جانب الرأي الثاني. وبعد نقاش طويل، لا يهمنا سوى من الناحية العسكرية، اتخذ القرار بالبقاء في الصفورية وحسم الأمور مع صلاح الدين بمعركة دفاعية تنهك فيها القوات العربية الإسلامية، بعد أن تلاقي الأمرين في المنطقة العطشى.

غير أن القرار تبدل ليلاً (ليلة ١ ــ ٢ تموز ١١٨٧)، بتأثير قائد الداوية. وتحركت القوات الصليبية نحو الشرق باتجاه طبرية.

وعندما بلغ صلاح الدين ذلك سر أشد السرور فهذا ما كان يبغيه، فترك طبرية وعليها جماعة تتابع الحصار وانتقل إلى القلب (القوى الرئيسية) ليقود المعركة.

بمجرد مغادرة الفرنجة للصفورية متجهين نحو طبرية صباح ٣ تموز ١١٨٧، بدأت توقعات ريموند تظهر صحتها. فمع حركة جيش الفرنجة البطيئة، أخذت مفارز الاستطلاع والمناوشة من الخيالة الخفيفة العربية تناوشه من الجوانب والخلف بالنشاب، والفرنجة لا يستطيعون خروجاً خارج أرتالهم ذات البنية الصلبة

القاسية، ويتحملون الخسائر المتزايدة في الخيل والأرواح واستمر الزحف طيلة فترة ما قبل الظهر بينما كان الحر يزداد وتتزايد معه شدة العطش.

كان رتل جيش الفرنجة، المنطلق من الصفورية، قد بني من ثلاثة أقسام: المقدمة، وعلى رأسها ريموند (لكون الهدف هو طبرية وفيها زوجته)، والقلب، وعلى رأسه الملك غي مع رجاله وصليب الصلبوت الذي حمله أساقفة عكا. والمؤخرة التي كان يقودها جيرار وبالين، صاحب إبلين، مع الداوية وجزء من الاسبتارية.

وهنا يستدعي الانتباه وجود أفضل فرسان الفرنجة (الداوية والاستبارية) في المؤخرة. وهذا يفسر بخبرة الفرنجة في حرب العرب، حيث أصبحوا يعرفون جيداً أن الخيالة الخفيفة العربية تبدأ القتال من خلف القوات المعادية.

حوالي الظهيرة وصلت قوات الفرنجة إلى منطقة «لوبية»، (وهي قرية تقع في المنتصف بين الصفورية وطبرية)، ونتيجة لإنهاك مؤخرة الرتل توقف جيش الفرنجة للاستراحة بدلاً من الاندفاع نحو منابع المياه. ويرى كثير من المؤرخين أن هذا هو الخطأ الفادح الذي ارتكبه الصليبيون.

باتت قوات الفرنجة طيلة الليل تعاني من الإرهاق والعطش وحاولت بعض المفارز من العدو خرق بعض الخطوط أو التحرك يمنة أو يسرة في سبيل التفتيش عن الماء، ولكن كانت تجد قوات صلاح الدين في كل مكان.

وكيما يزيد المسلمون في عناء الفرنجة ومتاعبهم، أشعلوا النار في الأعشاب والشجيرات الجافة التي تغطي التل، فغشي معسكر الفرنجة الدخان الساخن.

وخلال الليل سهر جيش صلاح الدين يستعد لمعركة اليوم القادم، فاستكملوا الأسلحة، ووزع النشاب، والأغذية، وحرك صلاح الدين رجاله لإكمال الطوق حول العدو، وقضى الجنود يكبرون ويوحدون بتهاليل جماعية منعت العدو من النوم وألقت في قلوبهم الرعب والفزع.

واستيقظ الجيش الفرنجي صباح يوم السبت ٤ تموز ١١٨٧، وهو اليوم الحاسم ليجد أن قواته مطوقة بالقوات العربية تطويقاً كاملاً.

كان وضع جيش صلاح الدين مريحاً للغاية. فقواته مستريحة، لديها الغذاء والماء، الذي كان ينقل باستمرار للقوات من بحيرة طبرية.

وفي صباح السبت ٤ تموز كان الفريقان قد تأهبا للصراع النهائي.

الموقعة

عندما انبلج ضوء الصباح أمر صلاح الدين ببدء الهجوم. فحاولت جماعة من جيش الفرنجة خرق الطوق بأي ثمن للوصول إلى الماء، عبر المنحدر المؤدي إلى بحيرة طبرية، غير أنه جرى ردهم إلى الخلف. وقد غشاهم من كل جانب لهيب الحرائق وطوقهم المسلمون من كل جانب، فلقي عدد كبير منهم مصرعهم على الفور، بينما وقع آخرون في الأسر.

أما الفرسان، الذين اتخذوا أماكنهم على التل، فإنهم استماتوا في القتال، في شجاعة نادرة، يحمون الملك والصليب، وقد ردوا كثيراً من حملات المسلمين. غير أن أعدادهم كانت تتناقص، وبدأت قواهم بالانهيار، بعد أن أضعفها الظمأ الشديد.

وقبل فوات الأوان، قاد ريموند فرسانه، بمحاولة لاقتحام خطوط المسلمين، فحمل بكل رجاله على القوات التي يقودها تقي الدين، ابن أخي صلاح الدين. فأفسح له تقي الدين الصفوف حتى إذا نفذ ريموند منها بفرسانه، سد تقي الدين هذه الثغرة، فلم يستطيعوا العودة إلى رفاقهم، أو أنه حاول الفرار مع جماعته، فركبوا من ساحة القتال، وقد استبد بهم اليأس، واتخذوا طريقهم إلى طرابلس. ولم يلبث «باليان إبلين»، ورينالد سيد صيدا، أن شقا لهما، بعد فترة قصيرة، طريقاً إلى خارج أرض المعركة، فكانا آخر من استطاع الهرب.

لم يعد عند الصليبيين أية بارقة أمل، ومع ذلك ولظروف الحصار، وعدم القدرة على الانسحاب، ظلوا يقاتلون، وهم ينسحبون إلى قمة التل، المعروف بقرني حطين. وتقرر نقل خيمة الملك الحمراء ونصبها في أعلى القمة، والتف حوله الفرسان.

وهنا يشهد الملك الأفضل ابن صلاح الدين الذي كان يقف إلى جانب والده بأن الفرنجة حملوا حملتين جريئتين ضد القوة التي يقف السلطان صلاح الدين إلى جانبها، وأن والده أفهمه أن الفرنجة لن يهزموا حتى تسقط خيمة الملك الموجودة في أعلى التل.

وهنا هوت خيمة الملك، عندئذ ترجل صلاح الدين عن فرسه وسجد شكراً لله تعالى.

الدروس التكتيكية المستفادة

برز جيش صلاح الدين في موقعة حطين بفضل اتباع أساليب قتال تفوقت على الأساليب المستخدمة من قبل جيش الفرنجة، وأهم الدروس المستفادة من ذلك:

ـــ نظم صلاح الدين «الاستطلاع» لكشف تحركات جيش الفرنجة بشكل يدعو للدهشة. فقد كانت المعلومات تصل إليه في حينه منذ أن كان في الأقحوانة والجيش الصليبي في الصفورية. والاستطلاع عين وأذن القائد وبدونهما لا يمكن للقائد أن يقود المعركة بشكل ناجح.

ـــ أن استخدام أسلوب الرمي بالنشاب على رتل العدو المتحرك بطريقة (الكر والفر)، أسلوب يعتبر في غاية التقدم العلمي العسكري. فلم يكن هناك حل لمواجهة تراص وانضباط جيش الفرنجة سوى هذا الأسلوب الرائع. وقد نجح فيه صلاح الدين أيما نجاح. فأرهق جنود العدو منذ بدأوا بالخروج من الصفورية، ولم يصل الجيش الفرنجي إلى منطقة لوبية حتى كان الجيش مرهقاً مثخناً بالجراح تنادي مؤخرته قبل مقدمته للتوقف واسترداد الأنفاس، وكان في ذلك هلاكهم.

ثم إن عمل رماة النشاب (المشاة الخفيفة والخيالة الخفيفة) من جيش صلاح الدين هو الذي أدى إلى فصل مشاة العدو عن خيالته. ومتى فصل هذان السلاحان عن بعضهما البعض وقعت الهزيمة الحتمية بالجيش الفرنجي.

ـــ لم يكن الفرنجة في معركة حطين مسيطرين في أي لحظة من لحظات المسير والمعركة، بل كان جيش صلاح الدين هو المسيطر، وهو صاحب المبادرة، وهو الذي كان يستطيع أن يفعل ما يريد. لذلك كان الفرنجة شبه محطمين منذ خروجهم من الصفورية.

ـــ أظهرت قوات الفرنجة ضعفها الواضح في المناورة. فلم تقم قوات الفرنجة بأية بادرة إيجابية في المعركة تطلبت من صلاح الدين تبذيلاً في تخطيط أعماله القتالية. بل كان جيش الفرنجة عبارة عن كتلة متراصة تسير بغباء من الصفورية، وعيونها مغلقة (بدون استطلاع) تتحرك باتجاه طبرية. وكان كل همها درء هجمات العرب والمسلمين والوصول إلى الماء وإلى أميرة طبرية.

ـــ في مقابل ضعف الفرنجة في المناورة، تبرز قوة مناورة الجيش العربي. فإن مناورة الكر والفر، ومناورات الالتفاف التي نفذتها الميمنة والميسرة، وتطويق القوات الصليبية كلها مناورات قاتلة للفرنجة.

ـــ أن استخدام إشعال النيران بالأعشاب الجافة، إضافة للتعطيش وتجويع الخيل، عمل أدى إلى زيادة مصائب جنود الفرنجة وإلى تمزق صفوفهم.

ـــ كانت خفة وسرعة حركة المقاتل العربي يقابلها ثقل وبطء في حركة المقاتل الفرنجي. ففي الوقت الذي كان جندي الفرنجة (من المشاة أو الخيالة) غير قادر على ترك الصفوف المتراصة، كان الخيال العربي قادراً على المناورة والجولان يقتنص الأعداء، ويستطيع ضرب النشاب أثناء الحركة السريعة، بما في ذلك ضرب النشاب إلى الخلف.

استنتاجات عسكرية استراتيجية من الصراع في حطين

يمكن أن نستخلص من كل ما ذكرناه عن القتال في حطين ما يلي:

ـــ أن اختيار الصفورية مكاناً لتحشد القوات الفرنجية كان عملاً ناجحاً. فالصفورية منطقة مروج تؤمن المياه للشرب والمراعي الجيدة لرعي الرواحل. كما أن مكانها ملائم لوجودها في منطقة تقاطع طرق هامة. حيث يمكن الوصول منها بسهولة إلى أية نقطة في الجليل، ومنها يمكن أيضاً رصد وملاحقة حركات صلاح الدين.

ـــ أن الجيش الصليبي، الذي اشترك في حطين، كان تجميعاً لقوى مملكة القدس ومن

الدويلات الفرنجية اللاتينية. وهي قوى قادرة على الدفاع في القلاع والحصون والمدن أكثر منها قوى صالحة للعمل في الميدان. لذا فإن سلوكها في القتال في حطين اتسم بالطابع السلبي، بالرغم من الشجاعة والجرأة التي ظهرت من قبل مجموعات صغيرة أو أفراد.

— أن تحرك العدو من منطقة مروج الصفورية الاستراتيجية كان خطأ استراتيجياً كبيراً أفقد العدو الماء والعلف، وجعل الجيش يتشتت.

— أن توقف الجيش الفرنجي في منطقة لوبية وحطين الجافتين في طقس حار، وبدون احتياط من الماء والأغذية، خطأ استراتيجي هام آخر.

— أن استخدام صلاح الدين لطُعْم طبرية، من أجل تحريك الفرنجة من الصفورية، كان حنكة عسكرية قيادية كبيرة، وعلى المستوى الاستراتيجي.

— أن قطع طرق الوصول إلى الماء في طبرية، ومهاجمة جيش الفرنجة من الخلف والجوانب، جعل العدو مطوقاً غير قادر على الحركة، الأمر الذي عجل بانهياره واستسلامه.

— أن فتح تقي الدين ثغرة لمرور قوة ريموند، وجعلها تفر من صفوف الجيش الصليبي، أوقع الرعب في قلوب بقية قادة الفرنج وجنودهم، الأمر الذي جعل معنوياتهم تنهار، ويصبحون جاهزين نفسياً للاستسلام.

— أن عدم امتلاك جيش الفرنجة لاحتياط يزجه في المعركة لتنفيذ مهمة إنقاذ معينة، خطأ استراتيجي ثالث. فالقائد الذي لا يملك احتياطاً يعتبر قائداً فاشلاً.

— للمعنويات أهمية كبرى في القتال، وخاصة عندما كان القتال ينفذ جسماً لجسم. لذا فإن إفزاع العدو وتخويفه عامل فعال في تخفيض مستوى الفعالية القتالية للفرد المقاتل. فعدا عاملي العطش والحر، فإن التهاليل الليلية، التي كان يطلقها جنود صلاح الدين جماعياً «الله أكبر.. لا إله إلا الله» كانت عملاً مفزعاً لجنود العدو بشهادة الكتاب من المؤرخين اللاتين.

— ظهر في موقعة حطين أن أسلوب القتال العربي المستخدم في تدمير جيش الفرنجة كان مناسباً للغاية. فقد استغل صلاح الدين كافة نقاط القوة في جيشه، وكافة الأخطاء التي وقع فيها جيش العدو.

— ظهرت بوضوح أهمية وحدة القائد في القتال. كان صلاح الدين قائداً وحيداً للجيش العربي، ولم يكن غي القائد الوحيد لجيش الفرنجة، لذلك عمل كل بارون بما يراه مناسباً لنفسه قبل أن يكون مناسباً للصالح العام.

— أن تدمير جيش الفرنجة في حطين أدى إلى زعزعة البنيان الفرنجي بأجمعه في بلاد الشام، فبتدمير قوة الفرنجة أصبح كل شيء مفتوحاً أمام الاستعادة العربية للأراضي.

— أعاد النصر في حطين للعرب مفاهيم كانوا قد نسوها أو ابتعدوا عنها في حينه:

— الوحدة تؤدي إلى القوة.

— القوة تؤدي إلى النصر.

— النصر يحرر الأرض ويعيد الكرامة.

●

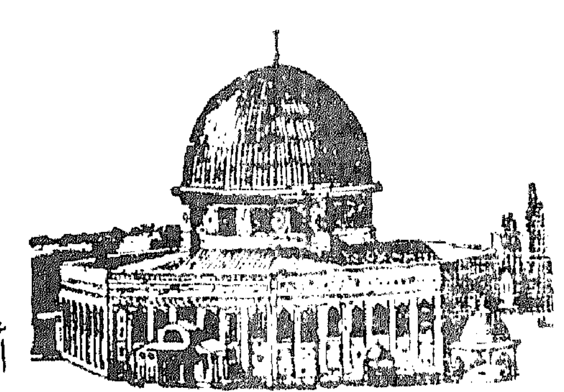
الهوامش

(١) أبو شامة ٢:٨ «كان والي دمشق، محكم في جميع قبائل العرب وعشائرهم... وهو يتولاهم ويجريهم على معتادهم في رسمهم ومعيشتهم وعدادهم».

(٢) من كتاب فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر، تأليف سميل، وترجمة العميد جلاد، وإصدار مركز الدراسات العسكرية، دمشق ١٩٨٢.

(٣) من كتاب فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر (ر. سي. سميل)، إصدار مركز الدراسات العسكرية.

● ●



أ. د. الحبيب الجنحاني

حطين

رمز الوحدة والتحرير

هل المطلوب إحياءً لهذه المناسبة التاريخية الكبرى في حياة الأمة العربية الإسلامية أن ندقق أحداث التاريخ، ونفصّلها، ونغوص في كتب الحوليات والسير لنسرد جزئياتها وملابساتها في أسلوب علمي رصين، وبمنهجية أكاديمية صرفة؟.

إنني لا أعتقد ذلك، ولا أؤمن بجدوى هذا المنهج، بالرغم من أنه عمل مفيد ــ دون ريب ــ بل قل إنه ضروري، خصوصاً أن جوانب مختلفة من الموضوع ما تزال حرية بالبحث والتمحيص، ولكن ذلك له إطاره الخاص، ومقامه المتميز.

المطلوب ــ إذن ــ إحياء بعض القيم الثابتة إلى الأذهان ربطاً بين الماضي والحاضر، وهو عمل لا يمس ــ في نظرنا ــ من قيمة الحقيقة العلمية، ولا يتناقض أبداً مع البحث التاريخي الموضوعي، بل إن اتباع مثل هذا الأسلوب ــ وأقدِّم من خلال هذه المناسبة التاريخية نموذجاً منه ــ يستلزم معرفة الواقع التاريخي معرفة موضوعية دقيقة.

تقدم لنا ذكرى هذا الحدث التاريخي الكبير موضوعاً جيداً من الموضوعات التي نؤمن فيها بضرورة توظيف التراث العربي الإسلامي في معركة الحاضر والمستقبل، إن المجال هنا لا يسمح بالإسهاب في قضية توظيف التراث، إنني ممن يذهبون هذا المذهب، مؤمناً بضرورة توظيف التراث في المرحلة التاريخية التي تمر بها اليوم المجتمعات النامية، وفي طليعتها المجتمعات العربية الإسلامية. إن قضايا مثل تحرير الأرض والقضاء على مظاهر التبعية، ودعم الهوية القومية والحضارية يمكنها أن تفيد كثيراً من منهج توظيف التراث إذا استعمل بأسلوب دقيق وذكي، ولم ينقلب إلى خطب حماسية، وشعارات جوفاء مخدرة.

أولاً
وضع المجتمع العربي الإسلامي قبل الغزو الفرنجي



إن قوة المجتمع العربي الإسلامي خلال عصور الازدهار لم تكن قوة سياسية عسكرية فحسب، بل كانت أولاً وقبل كل شيء قوة اقتصادية حضارية، فقد أصبح يمثل قلب الدورة الاقتصادية العالمية عصرئذ، مستقطباً النشاط الاقتصادي الدولي بحكم موقعه الاستراتيجي من جهة، وبفضل تلك الوحدة العمرانية، وبصفة أخص الوحدة الاقتصادية التي أضحى يمثلها خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، فشبكة المسالك التجارية لهذه الوحدة الجغرافية والاقتصادية تمتد من الجنوب الشرقي من سواحل أفريقيا الشرقية إلى الصين، وبلاد الترك والأورال، ومنطقة بحر قزوين، وتمتد من المغرب إلى المشرق من شواطىء المحيط الأطلسي إلى بغداد وكابول، ومنهما إلى منطقة المحيط الهندي.

وبالرغم من بداية الانقسام السياسي، وبروز مراكز ثلاثة للخلافة الإسلامية ابتداءً من القرن الرابع فإن الوحدة العمرانية الاقتصادية قد بوّأت المجتمع العربي الإسلامي ليؤدي دوراً حضارياً عالمياً، قادراً على مجابهة التحديات مشرقاً ومغرباً، فارضاً احترام حدود السيادة العربية الإسلامية براً وبحراً، فقد كانت القوة الاقتصادية تمثل الأس المتين للتفوق السياسي العسكري، والصمود طوال قرون أمام جبهتين أساسيتين: الجبهة البيزنطية في المشرق، وجبهة حركة الاسترداد في شمال الاندلس، ومع منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بدأ الخط البياني للتطور العمراني الاقتصادي يميل إلى الانحدار ليبلغ أوجه مع بداية عصور الركود والانحطاط[1].

وتزامن هذا الانحدار مع تفاقم ضعف السلطة المركزية سواء كان ذلك في بغداد، أو القاهرة، أو قرطبة، وبداية عصر التجزئة السياسية، وظهور الدويلات والإمارات المحلية، وما عصر ملوك الطوائف في الأندلس إلا نموذجاً لظاهرة تاريخية أوسع وأشمل.

وهكذا أصبحت السيادة العربية الإسلامية في حالة انحسار ودفاع بعد أن كانت في حالة تفوق ومبادرة، وبرز ذلك بوضوح أيضاً في مجال السياسة البحرية، فقد ضعفت القوة البحرية الإسلامية في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وأصبحت سواحل الأرض العربية هدفاً للغارات والاحتلال.

وتبرز في هذا الوضع المتردي سياسياً وعسكرياً وحضارياً قوى جديدة على مسرح الأحداث سيكون لها شأن خطير في تاريخ العالم العربي الإسلامي، وستنجح في مرحلة تاريخية معينة في الدفاع عن الأرض العربية المهددة، ويكاد ينحصر هذا النجاح في الساحة العسكرية، أما عوامل دبيب الهرم في المجتمع العربي الإسلامي، فقد استمر تأثيرها دافعةً للخط البياني المذكور نحو الانحدار، ولكن بدرجات متفاوتة في السرعة من منطقة جغرافية إلى أخرى.

ونعني أساساً بالقوى الجديدة قوة السلاجقة في المشرق، وقوة المرابطين في المغرب، فقد سيطر السلاجقة خلال فترة زمنية وجيزة على منطقة شاسعة تمتد من الحدود الغربية لبلاد الأفغان حتى البحر الأبيض المتوسط فتغلبوا على البيزنطيين، وواجهوا الخطر الصليبي.

وسيطر المرابطون في مدة زمنية لا تتجاوز ثلاثة عقود على منطقة تمتد من حوض نهر النيجر جنوباً إلى ضفاف الوادي الكبير في الأندلس شمالاً.

جاء السلاجقة ليضعوا حداً للتدهور السياسي والعسكري، ويوحدوا الجزء الأكبر من المشرق العربي الإسلامي، وزحفت قبائل المرابطين نحو الشمال لتقضي على التجزئة في الأندلس، وفي منطقة حساسة في المغرب العربي، وتوحد بالتالي بين بلاد العدوتين، قوتان جديدتان تصمدان أمام محاولات الغزو انطلاقاً من جبهتين قديمتين: الجبهة البيزنطية شرقاً، والأندلسية غرباً.

وأود التلميح هنا إلى أن القوتين تمثلان قبائل ريفية جاءت لتنقذ المجتمع الحضري، وتحمي المدن من الاحتلال، وتندرج هذه الظاهرة ضمن

إشكالية ذات أبعاد متنوعة في تاريخ المجتمع العربي الإسلامي الوسيطي، ألا وهي ظاهرة العلاقة بين المدينة والريف، وتكتسب هذه الظاهرة معنى متميزاً حين نحلل المذهبية الجديدة التي اعتنقتها تلك القوى الريفية، ومدى تأثيرها في تطور الحضارة العربية الإسلامية.

إنه من المعروف أن السلاجقة قد مهدوا للمرحلة الزنكية الأيوبية في المشرق، ومهّد المرابطون للمرحلة الموحدية في المغرب والأندلس(٢).

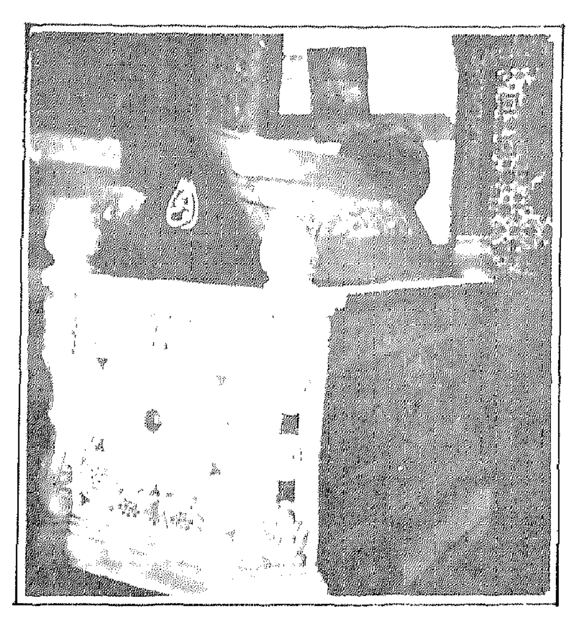
ثانياً:
المذهبية المتشددة ومقاومة التجزئة والاحتلال

القوى الجديدة التي برزت على مسرح الأحداث السياسية العسكرية مع منتصف القرن الخامس، أي قوى القبائل الريفية التي كانت دعامة النظامين: السلجوقي والمرابطي، قد التحمت بمذهبية متشددة هي السنية النصية التي يمثلها الأشاعرة مشرقاً، والدعوة المرابطية المتبنّية لمبادئهم، وإن عرفت بأنها دعوة دينية مستقلة تزعمها مؤسس المذهب والدولة عبدالله بن ياسين الجزولي.

إنني أميل إلى الاعتقاد بأن هذا التحول الجذري في المجال الفكري والمذهبي قد جاء نتيجة طبيعية لبروز معالم التدهور العمراني والاقتصادي من جهة، ومهّد لظاهرة نفوذ فئات فقهاء السنّة، وأهل الصلاح، والصوفية ابتداء من القرن الخامس الهجري من جهة أخرى.

وألاحظ هنا أن ذاك التحول يندرج ضمن ظاهرة عامة عرفها كثير من المجتمعات في فترات مختلفة من تاريخها. إن محاولة قوى جديدة الصمود أمام خطر أجنبي تتم عادة على حساب التسامح والتنوع.

إن السنية النصية الجديدة قد ساعدت على تنشئة جيل جديد في ظل الحكم السلجوقي والمرابطي يتصف بالصلابة الدينية والأخلاقية أسهمت إلى حد كبير في التغلب على الصليبيين.



□ قبر صلاح الدين.

ثالثاً:
طبيعة الغزو الفرنجي

(أ) طغيان صبغة التعصب الديني، والأخذ بثأر ماض سحيق(٣).

(ب) غزو استيطاني توسعي، فليس من الإسقاط، أو الغلو في شيء المقارنة التاريخية بين الاحتلال الفرنجي الصليبي، والاحتلال الصهيوني للأرض العربية.

(ج) إنه غزو جاء طامساً لحضارات شرقية عريقة عرفتها بلاد الشام، وتعايش معها العرب أولاً، ثم العرب المسلمون تأثراً وتأثيراً ليؤسس حضارة غازية مهيمنة هي حضارة «الشرق اللاتيني»، وهو الشرق الذي حاول الاستعمار الغربي الحديث أن يبعث تراثه، فقد عُدّ الغزو الفرنجي في العصر الوسيط تمهيداً للتأثير الفرنسي الحديث في المشرق العربي.

(د) إن التراث العربي الإسلامي جزء لا يتجزأ من التراث الثري والمتنوع لحضارات الشرق القديم في منطقة بلاد الرافدين، وبلاد الشام، فقد أفاد منه، وطوّره، وصهره في تراث مناطق حضارية أخرى عريقة مثل المناطق الأفريقية، أما مفهوم «الشرق اللاتيني»، فقد تجاهل تراث الشعوب السابقة، تراث السكان الأصليين، بل حاول طمسه وتشويهه، شأنه في

ذلك شأن فرض اليوم «التراث الصهيوني النقي»، وتندرج اليوم ضمن مخطط فرض تراث القوة الغازية محاولات تغيير الطابع التاريخي والحضاري والديني لمدينة القدس على الصعيدين المادي والروحي.

(هـ) لعله من نافلة القول التذكير هنا بتلك الهوة السحيقة التي فصلت بين الممالك الصليبية التي أسست في بلاد الشام، وبين المسيحيين الشرقيين على اختلاف مذاهبهم، فلم تخلط القيادة العربية الإسلامية يوماً ما بينهم، وبين الفرنجة الصليبيين[٤]، بل اعتبر كثير من مسيحي الشرق أنفسهم الممثلين الحقيقيين للتراث المسيحي، وهو تراث لا تعرف روح الحقد، والتعصب إليه سبيلاً، وانكشف أمر الفرنجة الغزاة بدفاعهم عن فكرة «الشرق اللاتيني»، بأن المعطيات الرومانية اللاتينية هي التي تعنيهم أولاً وبالذات في المسيحية، وليست المسيحية في أصالتها ونقاوتها.

وقد يتساءل البعض قائلاً: كيف يمكن الحديث عن التعايش وعدم الخلط، وقد اصطبغت مقاومة الفرنج بصبغة الجهاد؟

إنه جهاد تحريري لحماية الحدود، والذود عن الأرض.

رابعاً:
الجهاد التحريري

إن مفهوم الجهاد بمعنى نشر الدعوة الجديدة، وبالتالي مدّ رقعة الدولة الإسلامية قد توقف منذ القرون الإسلامية الأولى، وأصبح الجهاد بعد الغزو الفرنجي يحمل معنى تحرير الأرض من الاحتلال الأجنبي، وهو المفهوم الذي تواصل منذ ذلك العهد إلى عصر ثورات التحرر الوطني، ويكفي أن نذكّر هنا بمقاومة الشعب الليبي للغزو الفاشي الإيطالي، وبالانتفاضة الشعبية في بلاد الريف، وبالثورة الجزائرية.

ونشير في هذا الصدد إلى أن الإفرنج قد أصبحوا منذ عهد الامبراطور شارلمان يشنون حروباً توسعية تحت شعار نشر المسيحية بقوة السلاح.

خامساً:
الوحدة والتحرير

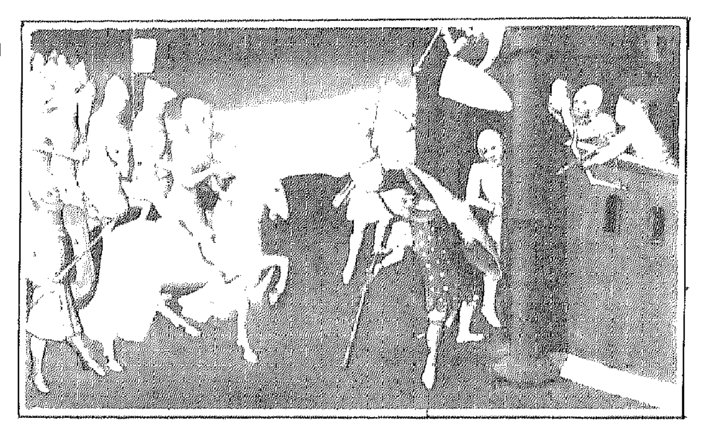
إن تحقيق الوحدة، ولو لمرحلة معينة، قد كان العامل الحاسم لتحقيق الانتصار وتحرير الأرض، فقد فهم كل من نورالدين، وصلاح الدين اهمية تحقيق الوحدة في مواجهة الغزو الفرنجي، وحققت استراتيجية الوحدة خطوتها الكبرى بزعامة صلاح الدين حين نجح في التوحيد بين مصر وبلاد الشام، فقد أدرك منذ البداية أنه لا أمل في التحرير قبل تحقيق الحدّ الأدنى من التضامن والاتحاد، وفي سبيل تحقيق الهدف الأسمى: تحرير الأرض تجاوزت القيادة الذكية الأمور الثانوية، وتنازلت عن أشياء كثيرة، فقد ترك صلاح الدين الأمراء المحليين وحكام الأطراف، بل زاد في نفوذ بعضهم، ووسع إقطاعاتهم في سبيل الاعتراف بقيادة عليا، والتضامن معها في قضية كبرى ووحيدة: قضية تحرير الأرض وطرد الغزاة.

إن التعبئة لم تكن سهلة، فقد كانت روح التخاذل والفرقة منتشرة وخاصة بين الحكام المحليين[٥]، ولكن حنكة القيادة، وخصوصاً إخلاصها قد بعثت يقظة شعبية ضاغطة على المتخاذلين من الحكام المحليين، وقد سعى صلاح الدين إلى أن يجعل من حركة الجهاد التحريري حركة واسعة النطاق يشارك فيها العالم العربي الإسلامي مشرقاً ومغرباً، فمن المعروف أنه راسل أبا يوسف يعقوب بن يوسف الموحدي يطلب النجدة البحرية.

وأود هنا لفت النظر إلى نقطتين:

١ ـ أنه وقع تجاوز التناقضات والخلافات الهامشية في سبيل التحرير، فقد تضامن سكان الريف مع سكان المدن والتحمت صفوف العرب، والترك، والتركمان، والأكراد فوق أرض النضال التحريري.

٢ ـ كان التضامن عاماً فقد أشارت النصوص إلى مظاهرات في بغداد، وانخراط المتطوعين من كل حدب وصوب في حركة الجهاد، وبذلت الأموال لشراء أسرى المسلمين، ولكن تغيير مجرى الأحداث والمواجهة الحقيقية



□ تحرير القدس على يد صلاح الدين.

الحاسمة التي كللت بالنصر نهضت بها قوى الجبهة الملتحمة بالغزاة، أي قوى بلاد الشام ومصر.

سادساً: سمات قيادة التحرير

تحتاج قيادة المعارك لتحرير الأرض إلى سمات معينة، والتشبع بقيم ثابتة بصرف النظر عن الظرفية التاريخية، فقد تحلى صلاح الدين بأبرز سمات قيادة التحرير، وكان لذلك شأن كبير في انتشار اليقظة الشعبية، وخصوصاً في مصر والشام، وقد خَبر سكانهما هذه السمات عن كثب، فهي قيادة تستند إلى شعبية بطل التحرير بعد أن عُجم عوده، وجُرب في ساحات العمل التحريري[٦].

سابعاً: أبرز نتائج النصر

إن الانتصار في معركة حطين قد حقق نتائج متعددة، فقد كان الخطوة الحاسمة نحو تحرير القدس، ثم تحطيم أسطورة «الشرق اللاتيني» والقضاء على نظم احتلال غريبة زُرعت داخل منطقة خطيرة في الوطن العربي هي منطقة بلاد الشام، ولكن النتيجة الكبرى تبقى صيانة الهوية العربية الإسلامية لمدينة القدس، ولبلاد الشام عامة.

ثامناً: بين الأمس واليوم

إن حطين، والقدس، وأرضيّ عربية شاسعة أخرى تعاني اليوم من احتلال أشد شراسة، وأكثر تعصباً وحقداً من الاحتلال الفرنجي اللاتيني والوطن العربي يشكو من التخلف والضعف والتجزئة وفي ظرفية تاريخية تختلف تماماً عن ظرفية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، أي عن المرحلة التاريخية التي حُقق فيها النصر الحاسم في حطين، فبالرغم من عوامل الضعف التي لمّحنا إليها في مطلع هذه الخواطر فقد كان المجتمع العربي الإسلامي يمثل قوة دولية كبرى عصرئذ، قوة في تراجع وتقلّص أمام صعود قوة جديدة على الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط، ولكن دون أن يتردى في وضع تابع، وهو فرق جوهري بين الأمس واليوم.

إن المأساة الكبرى التي يرزح تحت عبئها اليوم الوطن العربي هي التبعية، والنظم التابعة عاجزة عن التحرير، ومن هنا فإن الخطوة الأولى فوق درب التحرير هي — في نظرنا — التخلص من التبعية، ولا يمكن في ضوء العلاقات الدولية المعاصرة التغلب على ظاهرة التبعية إلا بالتضامن، وتنسيق الجهود وتوحيدها، وقد يبادر البعض قائلاً: إن القضية ستطول، وقوى الغزو مستمرة في تنفيذ مخططاتها التوسعية الاستيطانية.

قلت قبل قليل إن النظم التابعة عاجزة عن تحرير الأرض، وأضيف هنا أن الشعوب المقهورة عاجزةٌ أيضاً عن خوض معارك التحرير، فلا تحرير — إذن — بدون حرية، ولا حرية بدون ديمقراطية.. •

الملحق رقم ١

رسالة صلاح الدين إلى الخليفة العباسي في بغداد يصف فيها الوضع في مناطق كثيرة من العالم الإسلامي(*)

● «ثم أرسل السلطان الخطيب شمس الدين بن أبي المضاء رسولاً إلى الخليفة الإمام المستضيء بنورالله بن المستنجد برسالة فاضلية، تشتمل على تعداد ما للسلطان عليه من الآثار الجميلة والقيام بخدمة الدولة العباسية من جهاد العدو في أيام نورالدين، ثم فتح مصر، واليمن، وبلاد جمة من أطراف المغرب، وإقامة الخطبة العباسية بها، وأنه لم تخل سنة من غزو الفرنج براً وبحراً، ومركباً وظهراً، وفتح معاقل لهم من جملتها قلعة كانت بثغر أيلة قد بناها العدو في بحر الهند المسلوك منه إلى الحرمين، واليمن، وغزا ساحل الحرم فسبى منه خلقاً وخرق الكفر في ذلك الجانب خرقاً، ففتحت هذه القلعة وصارت معقلاً لجهاد المسلمين، وموئلاً للمسافرين، وفيه: فصل في ذكر أهل مصر: ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير وأموالهم واسعة، وكلمتهم جامعة، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السر فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر، وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف رجل، كلهم أغنام أعجام، إن هم إلا كالأنعام لا يعرفون رباً إلا ساكن قصره، ولا قبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه وامتثال أمره، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية، موضوعة عنهم الجزية، ولهم شوكة وشكة، وحمة، وحمية، لهم حواش لقصرهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخله، وتصيب العقول، مخاتله، ومن كُتّاب تفعل أقلامهم فعل الأسل، وخدام يجمعون إلى سواد الوجود سواد النحل، ودولة قد كبر عليها الصغير، ولم يعرف غيرها الكبير ومهابة تمنع من خطرات الضمير، فكيف بخطوات التدبير، هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة، وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائرة، وتحريف للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل، وكفر يسمى بغير اسمه، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه، فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار، ونتحيفهم تحيف الليالي والنهار بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير، فشرعنا في تلك الطوائف من الأجناد والسودان والأرمن، فأخرجناهم من القاهرة حتى بقي القصر ومن به من خدم وذرية قد تفرقت شيعه، وتمزقت بدعه، وأخفيت دعوته، وخفتت ضلالته، فهناك تمت لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخطبة والرفع للواء الأعظم الأسود وعجل الله للطاغية الأكبر بفنائه، وبرأنا من عهدة يمين كان إثم حنثها، أيسر من إثم إبقائه، إلا أنه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه وهلاك دولته.

فصل: وكان باليمن ما عُلم من أمر ابن مهدي الضال الملحد المبتدع المتمرد، وله آثار في الإسلام وثأر طالبه النبي عليه الصلاة والسلام لأنه سبا الشرائف الصالحات وباعهن بالثمن البخس، واستباح منهن كل ما لا تقر عليه نفس، ودان ببدعة صعبة، ودعا إلى قبر أبيه، وسماه كعبة، وأخذ أموال الرعايا المعصومة، وأحل الفروج المحرمة وأباحها.

فصل: ولنا بالمغرب أثر أغرب قد ملكنا مما تجاور منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسيرنا إليها عسكراً بعد عسكر، رجع بنصر بعد نصر من مشاهيرها: برقة، قفصة قسطيلية، توزر، كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا المستضيء بنور الله، سلام الله عليه.

ثم ذكر تشتت بلاد الشام بعد وفاة نورالدين وطمع العدو فيها لاختلاف الآراء، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمح إليه طالب، وساءت السيرة وخبثت السريرة.

فصل: وعرفنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه، وأمر الكفر إن لم نجرد العزم لقلعه وإلا نبتت عروقه، واتسعت على المسلمين خروقه، وكانت الحجة لله قائمة، وهمم القادرين بالقعود آثمة، وإنا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدواب التي بها على الجهاد قوة، وإذا جاوزناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليد قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة الجموع.

وإذا شد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله، ويد كل مسلم تحت برده، واستنقذنا أسيراً من المسجد الأقصى الذي أسرى الله إليه بعبده.

ثم ذكر فيه: أنه قدم الشام لإصلاح الأمور، وحفظ الثغور، وخدمة ابن نورالدين وكفالته، وتخليصه من قوم يأكلون الدنيا باسمه، ويبالغون في ظلمه.

ثم طلب من الخليفة المستضيء بنورالله تقليداً جامعاً بمصر والمغرب واليمن والشام، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفه، وسيوف عساكره ولمن يقيمه من أخ، أو ولد من بعده تقليداً يتضمن للنعمة تخليداً وللدعوة تجديداً».

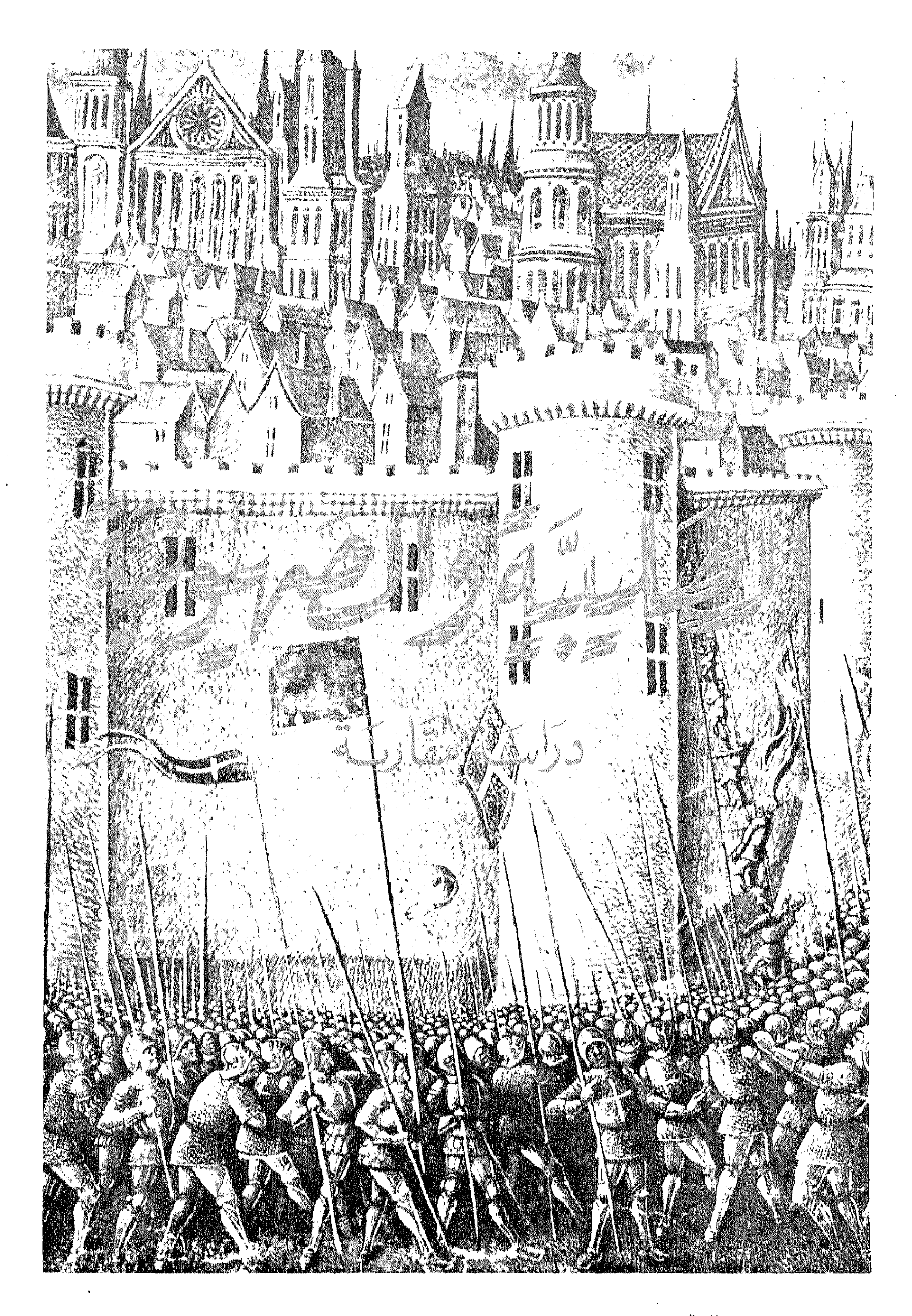
ملحق رقم ٢(*)

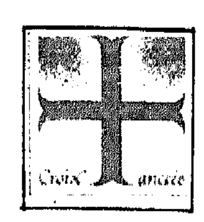
● «لما شرع نورالدين في الاستعداد لمواجهة الفرنج سنة ٥٥٩هـ راسل أمراء الأطراف يطلب منهم إعداد العدة للجهاد، وكان من بينهم فخرالدين قرا أرسلان أمير حصن كيفا، ولما سأله خواصه: «على أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نورالدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك، وكلهم وافقه على ذلك. فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة، فقال له أولئك: ما عدا مما بدا، فارقناك بالأمس على حال، ونرى الآن ضدها، فقال: إن نورالدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب، ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرأون كتب نورالدين ويبكون، ويلعنونني ويدعون عليّ، فلا بد من إجابة دعوته».

(*) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، القاهرة ١٩٥٧، ج ٢ ص ٢٥ وما بعدها.
(*) أبو شامة، كتاب الروضتين، القاهرة ١٩٦٢، ج ١ ق ٢ ص ٣٤٠.

الهوامش

(١) الحديث هنا عن الظاهرة العامة في المجتمع العربي الإسلامي، وهذا لا يمنع من بروز مراكز انتعاش هنا وهناك.
(٢) انظر الملحق رقم ١ عن وضع العالم العربي الإسلامي في مطلع المرحلة الأيوبية.
(٣) إن مقارنة سريعة بين تصرف الفرنجة الصليبيين تجاه المسلمين إثر انتصاراتهم العسكرية، وتصرف المسلمين غداة قضائهم على معاقل الصليبيين تثبت في جلاء مدى تعصب الإفرنج وحقدهم ومدى تسامح المسلمين، وخصوصاً في عصر صلاح الدين. انظر في هذا الصدد: ابن واصل، مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٥٧؛ أبو شامة، كتاب الروضتين، القاهرة ١٩٦٢.
(٤) إذا وقعت أحداث فردية معزولة مسّت التعايش الأخوي التاريخي القديم بين المسلمين والمسيحيين خلال هذه المرحلة، فالمسؤولية تقع أساساً باعتراف مؤرخين غربيين على عاتق الاحتلال الفرنجي.
(٥) انظر الملحق رقم ٢.
(٦) انظر على سبيل المثال: ابن واصل، مفرج الكروب، سبق ذكره؛ ابن شداد، سيرة صلاح الدين، القاهرة ١٩٦٤.


الصليبية والصهيونية
دراسة مقارنة



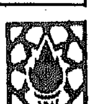
د. هيثم كيلاني

قد يكون الوطن العربي أكثر مناطق العالم شهوداً لحروب وغزوات أجنبية، جسّدت مطامع الدول والتيارات والحركات الغازية في أرضه وموقعه وثرواته. ومن بين هذه الغزوات، تشغل الغزوتان الصليبية والصهيونية، على ما بينهما من بعد زمني، موقعاً متميزاً في السياق التاريخي للأمة العربية، فهما تكادان تكونان متشابهتين في بعض المقوّمات والأسباب والأغراض والوسائل والوقائع.

وحين يتصدّى الباحث لدراسة هاتين الحركتين، الصليبية والصهيونية، يلحّ عليه سؤال هذا محوره: كيف حدث أن تكونت بيئة ايديولوجية ثقافية جعلت الغزوة الصليبية، ومن بعدها الغزوة الصهيونية، مقبولتين أخلاقياً لدى أوروبا القرن الثاني عشر وأوروبا القرن العشرين.

من أجل محاولة تلمس المتشابهات والمختلفات في الصليبية والصهيونية، ستبحث هذه الدراسة في أصول الحركتين، وفي منهاجهما الاستعماري الاستيطاني، ووسيلتيهما العنف والإرهاب، وفي الاستراتيجية التي طبّقاها، لتنتهي، بعد ذلك، إلى بعض الملاحظات الختامية.

أولاً:
في الأصــول



يمكننا القول إن مجموعة الأسباب والدوافع التي كَمَنت وراء الحركة الصليبية وحروبها، ترتدّ جميعها إلى الاستعمار، فكرة ومنهجاً وتخطيطاً وتنفيذاً. وإذا كان مفهوم الاستعمار في القرنين الحادي عشر والثاني عشر لم يبلغ مستوى النظرية السياسية المتكاملة، كمثل ما بلغه في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فإن المطامع والأغراض والمناهج والحروب التي جسّدتها الغزوة الصليبية، والأسباب والدوافع التي حركتها، والاحتلالات التي انتهت إليها، توفر للغزوة الصليبية جميع الصفات التي تصنّفها في تاريخ الاستعمار.

من المعروف أن الغزوة ارتدت حلّة الدين، وحمل أفرادها شارة الصليب، وادّعوا أن غايتهم انتزاع الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين.

وواقع الأمر أن هذه الحروب كانت وليدة تفاعل عوامل كثيرة متشابكة، سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية. ولقد ركّز عدد كبير من المؤرخين الغربيين على الأسباب الدينية، وجعلوها في المقام الأول، بل جعلها بعضهم السبب الوحيد لهذه الحروب، قاصدين إسقاط المفهوم الاستعماري عنها.

ويمكن دحض هذه الأهمية التي أعطيت للأسباب الدينية بوقائع الحروب ذاتها، فقد اقترف الصليبيون مجازر ضد السكان المسيحيين في المناطق التي عبروها في طريقهم إلى بلاد الشام، ووجهوا الحملة الصليبية الرابعة ضد دولة مسيحية هي الدولة البيزنطية، وضد عاصمتها القسطنطينية[1]. وقد أورد هذه الوقائع مؤرخون فرنجة رافقوا الحملات.

ولقد تواترت الدراسات والوقائع لتؤكّد أن العامل الديني لم يكن سوى تُكَأة ومحرّض لتعبئة الجماهير وسوقها إلى الغزو، وأن الغزوة الصليبية هدفت إلى القضاء على القوى

الإسلامية كقوة فعالة في قيادة بلاد الشام، وإلى احتلال بعض أطراف المشرق العربـي، وبخاصة فلسطين والمناطق التي حولها، لكفالة حمايتها والدفاع عنها. ولقد قويت هذه الفكرة في إطار الاستراتيجية البابوية، بعد هزيمة البيزنطيين في موقعة «ملاذ كرد» في العام ١٠٧١، وعجزهم عن صدّ اندفاع السلاجقة في الأراضي البيزنطية. وهو ما دعا البابوية إلى التفكـير في أن «تتولى أوروبا الدفاع عن المنطقة وحجاجها الأوروبيين، وذلك باحتلال بلاد الشام»[٢]، وأن تعمل لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية تحت سيطرتهـا، وبخاصة بعـد أن تتالت نـداءات النجدة من الأباطرة البيزنطيين إلى البابوية لمساعدتهم في صدّ السلاجقة المسلمين.

ولقد لقيت الدعوة البابوية القبول عند الملوك والأمراء في أوروبا، إذ راحوا يحلمون بإمارات يقيمونها في المشرق، تصبح من أملاكهم بأرضها وبشرها وثرواتها. فمن لم يستطع منهم أن يحوز ملكاً أو إمارة في أوروبا، نظراً إلى كثرة المطالبين بالملك والإمارة، فسيحقق بغيته في المشرق، ومن كان صاحب ملك أو إمارة، فستكون له غنيمة أخرى يضيفها إلى ما له من أملاك.

ولأنّ العامل الاقتصادي أحد أهم العوامل التي تشكّل مفهوم الاستعمار، وتحرك مؤسساته، فقد استطاع هذا العامـل أن يحرك جمـاهير الأوروبيين للانضمام إلى صفوف الذاهبين إلى غزو المشرق. وقد استمد العامل الاقتصـادي وجوده وتأثيره من النظام الإقطاعي والأوضاع الاقتصادية التي كانت سائدة في أوروبا آنذاك.

وبسبب الدافع الاقتصادي للغزوة الصليبية، احتل الغزاة منافذ طرق التجارة العالمية التي كانت تمر في المشرق العربـي، ففي الشمال إمارة الرها، وعلى الساحل الشامي إمارتـا إنطاكيـة وطرابلس ومملكة القدس، وفي الجنـوب إمارة الكَرَك، مقابل العقبة، وأرسوا أسطولاً لهم في البحـر الأحمر، ليُحْكمـوا الطرق حول منـافذ المنطقة.

وعند تقييم الغزوة الصليبية، يمكن الاقتباس من المؤرخ البريطاني برنارد لويس، حين قال إن الحملات الصليبية لم تكن سوى محاولة مبكرة للتـوسـع الاستعمـاري، وإن الدافـع وراءهـا هو الاعتبارات المادية، أمّا الدين فقد اتخـذ وسيلة لتهيئة النفوس لها[٣].

وعلى بعض اختلاف عن الغزوة الصليبية، انـطلقت الغـزوة الصهيـونيـة في عصر قـوّة الاستعمار وجبروته، فكرة ووسيلة. ولهذا كان من الطبيعي أن يلد الاستعمار الغربـي، وهو في أوج طغيانه ومدّه وانتشاره، في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، الحركة الصهيونية (اليهودية). وكان من الطبيعي أن يكون قادة هذه الحركة مخلصين لأفكار الاستعمار الأوروبـي وخططه وبرامجه، وأن ترعى الدول الاستعمارية وليدها، وتدعمه وتحميه.

وكان قد سبق نشـوء هذه الحـركة ولادة الصهيونية غير اليهوديـة من رحم الاستعمار الأوروبـي مرت عبر مخاض طويل، يعود مطلعه إلى ثلاثة قرون قبل أن يعقد ثيودور هـرتزل المؤتمر الصهيوني الأول في بازل في العام ١٨٩٦، حين تأسست المنظمة الصهيونية العالمية.

لقد شهدت هذه القرون الثلاثة، التي سبقت مـؤتمر بـازل، أفكار مجمـوعـة من المفكـرين والسياسيين من غير اليهود، بدأوا نشر الفكرة الصهيونية عن الوعي القومي اليهودي الموجّه نحو فلسطين. وقـد شكّلت حصيلة نظريـاتهم ومفاهيمهم وممارساتهم ما يسمّى «الصهيـونية غـير اليهـوديـة»، أو «الصهيـونيـة الأمميـة»، أو «صهيونية الأغيار». وقوام الصهيونية غـير اليهودية مجموعة من المعتقدات المنتشرة بين غير اليهود، والتي تهدف إلى تأييد قيام دولة قومية يهودية في فلسطين. وعلى ذلك، فالصهيونيون غير اليهـود هم أولئـك الذين يـؤيـدون أهـداف الصهيـونيـة، ويشجعـونهـا بشكـل صـريـح أو مقنّع[٤].

ولعلّ المنهج الذي سلكه نابوليون بونابرت، وهو يحاصر عكا في العام ١٧٩٩، مثل واضح على هذا النوع من الصهيونية المبكرة. فقد خطر له أن يستعين بيهود فلسطين في الاستيلاء عليها، فناداهم: «أيتها الأمّة الفريدة في نوعها، التي استطاعت شهوة الغزو والظلم، على مدى آلاف السنين، أن تحرمها من أرض أجدادها، ولكنها

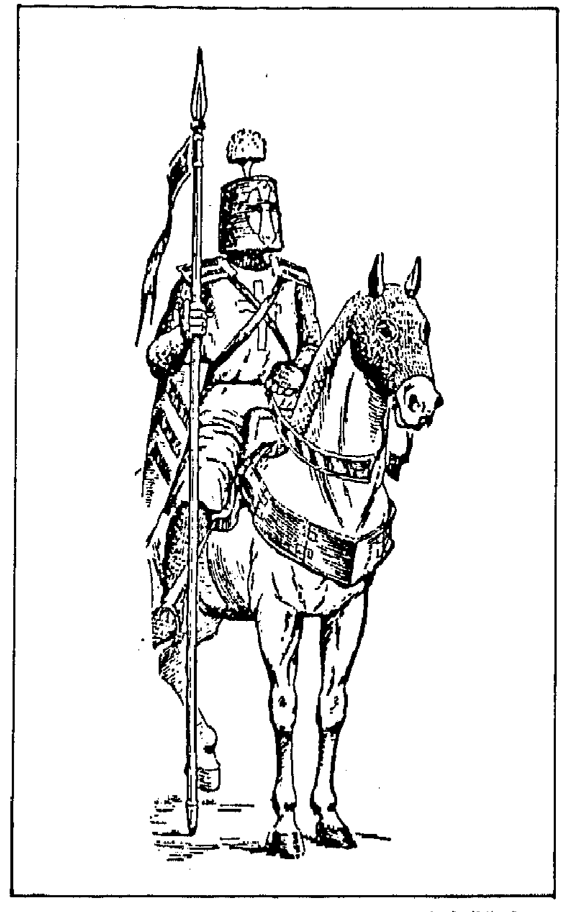
لم تقو على حرمانها من اسمها، ولا من وجودها القومي»[٥]. غير أن هذا النداء بقي بلا صدى، فاليهود في فلسطين كانوا أقلية جدّ صغيرة، ولم يكن عامل الزمن يسمح بتعبئة يهود أوروبا لنجدة نابليون، إضافة إلى أنّهم لم يكونوا قد استعدّوا بعد، ليصبحوا قوّة غازية.

وإذا كانت غزوة نابليون قد انتهت، في سنوات قليلة، إلى ما انتهت إليه الغزوة الصليبية في قرنين، فإنّها جذبت اهتمام أوروبا نحو «الأرض المقدسة ــ فلسطين»، ضمن الدراسات الحضارية والأثرية لمنطقة المشرق العربي، على يد المستشرقين وعلماء الآثار، حين كثرت الرحلات والبعثات بغرض التنقيب وجمع المعلومات عن فلسطين وأهلها وتاريخها وطبيعتها ومُناخها وجغرافيتها. ونُشرت دراسات كثيرة كانت في منزلة الأساس العلمي الذي مهد للصهيونية، فيما بعد، السبيل إلى اغتصاب فلسطين.

لم يكن تظاهر نابليون بالصهيونية، لفترة وجيزة من تاريخه، حدثاً منفصلا عن تاريخ الاستعمار الفرنسي، رغم أن الصهيونية في فرنسا كانت تفتقر إلى الاستمرارية والتدفق والثراء الفكري التي تميزت بها الصهيونية في إنكلترا في القرن الثامن عشر.

ولقد انتعشت الصهيونية غير اليهودية في فرنسا، فيما بعد نابليون، عندما تجدّدت المناشط الاستعمارية على نطاق واسع، فامتد الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر، والهند الصينية، وبرزت مطامعه في المنطقة العربية، وغيرها من مناطق آسيا وإفريقيا.

وفي حين برز ما يسمى المسألة الشرقية، ازداد بروز فكرة الوجود القومي اليهودي في الثقافة الأوروبية في أكثر الأوقات ملاءمة من الناحية السياسية. فارتبطت مطامع الاستعمار الأوروبي في المنطقة العربية بالأفكار والمطامع الصهيونية. ووجِدت فلسطين نفسها تسقط تحت قوى النفوذ الأوروبية المتصارعة. وكان لبريطانيا، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين، كمركزٍ رئيسي من مراكز الصهيونية غير اليهودية، وكقوة



□ خيالة فرنج.

استعمارية كبيرة، الدور الظافر في التأثير والتخطيط والتنفيذ لإقامة إسرائيل، على مراحل متتالية ومترابطة، وخطوة في إثر خطوة، كان آخرها منذ أربعين عاماً، حين أَوْرثتْ الولايات المتحدة المهمة التاريخية.

ومع مطلع القرن التاسع عشر، بدأت فكرة «العودة» تنتشر في الأوساط الفكرية والسياسية اليهودية في أوروبا، وأخذت تستقطب الأنصار والمفكرين. ثم تجسّد ذلك كله في تيّارات وجمعيات وحركات متعدّدة، ظهرت في عدّة عواصم أوروبية، على أساس المناداة «بالقومية اليهودية»، والتحرر الذاتي، والعودة.

ومع نهاية سبعينات القرن الماضي، كان المُناخ النفسي والفكري مهيّأ لتقبل دعوة الهجرة إلى فلسطين. وعلى شاكلة الحملات الصليبية التي كانت كل واحدة منها تحمل رقماً يميزها عن غيرها، كانت الهجرات اليهودية إلى فلسطين كذلك. فانطلقت الأولى في العام ١٨٨٢، وتلتها هجرات أخرى، هدفت إلى استعمار الأرض،

وإنشاء «المجتمع اليهودي المستقل»، ثم إقامة الدولة.

وفي الحقبة البريطانية من الإعداد للمشروع الصهيوني، الذي تجسّدت ملامحه وأهدافه في مؤتمر بازل في العام ١٨٩٧، لم يكن صعباً على الصهيونية اليهودية السياسية أن تجد أنصارها في إطارين: أولهما الصهيونية غير اليهودية، وثانيهما الاستعمارية ذات الفكر الراسخ، والمطامع الواضحة، والقوة المسلحة الطاغية.

وهكذا التقت المصالح البريطانية والصهيونية، وتماثلت جميعها في إطار الاستعمار الأوروبي. ووجد الصهيونيون البريطانيون غير اليهود أن من المناسب وضع فلسطين تحت الانتداب، تمهيداً لتهويدها. وفي إطار الصهيونية غير اليهودية، صدر وعد بلفور في العام ١٩١٧، من أجل «إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين». ولقد كان صدوره وليد تيّار صهيوني استعماري مشترك، كان مركزه وقوته الرئيسية قائمين في إنكلترا.

لقد كان للصهيونية غير اليهودية قادتها ومفكروها وسياسيوها وممثلوها في كل فترة من فترات التاريخ الذي يعود إلى القرن السادس عشر. ولقد تحوّل هذا النوع من الصهيونية إلى ايديولوجية سياسية للغرب المعاصر، لتفرز تلك المجموعة من القادة والسياسيين ـــ وبخاصة في إنكلترا والولايات المتحدة ـــ الذين أخذوا بيد الصهيونية وأقاموها في فلسطين كياناً استعمارياً استيطانياً.

ولقد هدفت تلك الايديولوجية إلى استعمار الوطن العربي، ثروات وموقعاً استراتيجياً، وسوقاً استثمارية وممرّاً إلى الهند. وليس هناك ما يلغي هذه المطامع، أو يحول دون تحقيقها، سوى مشروع وحدة عربية. وحتى تضع أوروبا الاستعمارية الحاجز الذي يعطّل ذلك المشروع، كان المشروع الصهيوني في قلب الوطن العربي، أي فلسطين. وإذا ما تحقق هذا المشروع، فسيكون القاعدة التي تضمن استمرار المصالح الغربية، بمختلف أشكالها وأنواعها، في هذه المنطقة الهامة من العالم.

إن هذا المفهوم السياسي الاستراتيجي الذي سيطر على العلاقة التناقضية بين الاستعمار الغربي والوطن العربي، يلقي الضوء على وقائع التاريخ الاستعماري وعلاقته بالحركة الصهيونية، فكراً ومفاهيم وخططاً وتنفيذاً، منذ نشوء الحركة حتى اليوم.

ولقد تواترت وتراكمت وقائع التاريخ الاستعماري الأوروبي، والتاريخ الأمبريالي الأميركي، وتاريخ الحركة الصهيونية، لتثبت أن المشروع الصهيوني مشروع استعماري، ورأس جسر للمصالح الغربية في الوطن العربي والعالم الإسلامي، أقامتهما الدول الاستعمارية، واستغلّت اليهود واليهودية من أجل تنفيذهما، بغية تحقيق أغراض استعمارية، هي أبعد ما تكون عن الدين، والأخلاق، والإنسانية.

ويداً بيد مع الاستعمار، سعت الصهيونية إلى تحويل اليهودية من رابطة دينية أخلاقية روحية إلى رابطة استعمارية عنصرية، وزعمت أن «المسألة اليهودية» مسألة قومية، وطرحت لها حلًا قومياً، هو الدولة الاستيطانية.

ولئن كانت الفكرة الواهية القائلة بارتباط التراث اليهودي بفلسطين، هي التي قادت الصهيونية إلى إقامة مشروعها في هذا البلد، فإن موقع فلسطين الاستراتيجي في قلب الوطن العربي، وموقع الوطن العربي بمجمله، كانا العامل الحاسم في هذا الاختيار، وفي تبني حركة الاستعمار العالمي للمشروع الصهيوني. وفي حين تولت الصليبية بنفسها، بنزعتها الاستعمارية، محاولة تحقيق مشروعها في السيطرة على قلب الوطن العربي، فإن الاستعمار العالمي الحديث استخدم الصهيونية لتنفيذ مشروعه.

ونظراً إلى أن ميزان القوى بين المراكز الاستعمارية والصهيونية غير متوازن بشكل كبير، كان لا بدّ لهذه المراكز من أن تقوم، بالتناوب، بدور «الدولة الأم» للمشروع الصهيوني.

وهكذا اشتركت المراكز الأمبريالية في بناء المشروع، وهو إقامة قاعدة متقدمة في قلب الوطن العربي، للعدوان عليه، والتصدّي للحركة القومية العربية المعادية للنفوذ الأمبريالي في المنطقة. والتقت مصالح الشريكين، المراكز الأمبريالية والحركة الصهيونية، على بناء القاعدة، قوية توسعية مهيمنة، هذا لعدوانه وذاك

لاستيطانه. فكانت للمشروع هذه المهمة المزدوجة منذ بدايته إلى يومنا هذا.

وحتى يؤدي المشروع مهمته المزدوجة هذه، كان على الصهيونية أن توفّر الأمن لقاعدتها الاستيطانية. وهو أمر لا يتحقق إلّا إذا كان الاستيطان إجلائيّاً، وذلك بنزع سكان البلاد الأصليين من وطنهم، وتغييب وجودهم كشعب، وتذويبهم خارج حدود فلسطين، وتهويد البلد كاملاً، أرضاً وشعباً.

والصهيونية، كحركة سياسية تعتمد التخطيط في عملها، قد وعت أبعاد مشروعها ومتطلباته، فأقامت لذلك مؤسسات خاصة، وصاغتها لتتلاءم مع الأغراض التي من أجلها أنشئت وعاشت في حضانة الأمبريالية والأطماع الغربية في المنطقة العربية.

ومن هنا يظهر ذلك التمايز بينها وبين الصليبية، التي فقدت التخطيط الهادف، وتعدّدت القيادات فيها، وتنازعت السلطة في بعض الأحيان، ولم توفّر للاستيطان أسبابه التي لا بدّ منها حتى يستقر ويستمر.

وإذ يشترك الكيانان اللّذان أقامتهما الصليبية والصهيونية، وهما الدويلات الفرنجية وإسرائيل، في ارتباطهما العضوي بالاستعمار، فلسفة وتطبيقاً، وفي صفتهما الطبيعية ككيانين غريبين في المنطقة العربية، فإن الكيان الصهيوني يتميز أو يتفوق أو يشارك الكيان الصليبي في ثلاث صفات:

الصفة الأولى هي العنصرية. وهي صفة متأصلة في الكيان الصهيوني، وأساسية، ودائمة، لأنها نابعة من صميم العقيدة الصهيونية. ذلك أن السلالة، وليس الدين أو اللّغة، هي التي تجعل الشخص «يهودياً»(٦) في نظر الصهيونية. وقد انتهت هذه الصفة المتأصلة إلى ثلاث نتائج: الانغلاق العنصري، والتمييز العنصري، والتفوق العنصري. وهي نتائج كان لا بدّ لها إلّا أن تنتهي، من وجهة نظر الصهيونية، إلى نفي الشعب الفلسطيني وإلغاء وجوده.

وفي مقابل ذلك، يمكن القول إن الصليبيين، إذ جاؤوا غزاة محتلين، كانوا يشعرون بالتفوق العنصري، وقد وجدوا أن بإمكانهم، كمستعمرين، أن يُعبّروا عن «تفوقهم» ضمن إطار من التعايش التراتبي الطبقي الاستعلائي، مع أهل المنطقة، دون أن يُخرجوهم من ديارهم، أو يَنْفوا وجودهم.

الصفة الثانية هي العنف والإرهاب. وسيأتي الحديث عنهما ببعض التفصيل فيما بعد. وما نود أن نشير إليه هنا، هو أن العنف والإرهاب دلالتان على استعماريّة الحركتين الصليبية والصهيونية، ذلك أنهما ــ العنف والإرهاب ــ من مقومات الاستعمار الأساسية.

والصفة الثالثة هي التوسع الإقليمي. وهي صفة مشتركة بين الصليبية والصهيونية. فقد واجهت الصليبيةُ المقاومةَ العربية، والخشيةَ من تطورها وقوتها، بتوسيع رقعة الاحتلال، فامتدت المطامع إلى مصر، ثم إلى تونس. ولكن تناميَ المقاومة العربية للاحتلال، وتقلصَ الدعم الأوروبي، وضمورَ الزخم الديني، وهُزال الأسباب الأخرى التي عبّأت الجماهير والحكومات الأوروبية للحروب الصليبية، أدت كلها إلى عجز الدويلات عن التوسع.

وفي حين واجهت الصليبية، في إثر ذلك، مصيرها المحتوم، نجد الصهيونية لا تزال يشتدّ عودها في العدوان والتوسع، لأنها لا تزال تتلقى جميع الوسائل اللازمة والكافية للعدوان والتوسع من الأمبريالية التي تتبناها وتحتضنها، وبخاصة من الولايات المتحدة. إن الأدبيات الصهيونية التي تُعبّر عن المطامع في التوسع والنفوذ والسيطرة والهيمنة كثيرة ومعبّرة، وهي ترسم صورة واضحة لامبراطورية صهيونية معاصرة، في عصر زالت فيه الامبراطوريات الاستعمارية.

وإذا كانت الدوافع الكامنة وراء الحروب الصليبية خليطاً من أسباب دينية واقتصادية واجتماعية مصاغة في قالب استعماري، فإن المشروع الصهيوني، في جوهره، ليس مشروعاً دينياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً، وإن لزمته هذه الصفات، تارة واضحة وتارة باهتة، وإنّما هو، أساساً، مشروع استعماري، ثمة ما يميّزه عن الوجود الصليبي في الأعوام المائتين التي حط خلالها رحاله في بلاد الشام، وما يميّزه أيضاً عن غيره من مشاريع الاستعمار الأخرى التي تشهدهاالعالم في العصر الحديث.



□ بن غوريون مع غولدا مائير.

وإذا كانت الدول الاستعمارية قد دخلت في حروب ومنازعات فيما بينها للانفراد بثمار الحركة الاستعمارية، فإن المشروع الصهيوني كان محل اتفاق جميع القوى الاستعمارية، فهي لم تختلف على أهميته وضرورته للمصالح الاستعمارية بمجموعها، وليس لمصلحة دولة استعمارية وحدها دون غيرها. وعلى هذا جاء المشروع الصهيوني استعمارياً «على المشاع»، جاهزاً للخدمة، وبخاصة إذا توافقت مصلحته مع مصلحة طالب الخدمة.

في حين التقت مصالح المراكز الاستعمارية عند الكيان الصهيوني، وتوافقت على تبنّيه ورعايته، لم تستطع المصالح الاستعمارية في الحركة الصليبية أن تستمرّ في توافقها وتعاونها لتُنجز مشروعها، إذ تفككت تلك المصالح تحت تأثير الحالة الاجتماعية والنظام الإقطاعي والنزاعات السلطوية، في الوقت الذي اشتدّت المقاومة العربية، وعمّ الوعي بمخاطر الغزوة، وولدت قيادات على قدر التحدي الذي جابهته الأمة العربية يومذاك.

لقد سيطرت النزعة الاستعمارية على الصليبية، فساقتها إلى المشرق على شكل غزوة مسلحة. وانطلقت الصهيونية من رحم الاستعمار الأوروبي، فجاءت وليداً شرعياً له، وأقامت دولة خاصة بمن أسمتهم «الأمّة اليهودية»، دولة يهودية خالصة، تابعة ومستقلة في آن، فهي وليدة الاستعمار، وهي، في الوقت نفسه لها استعمارها الخاص بُها.

ثانياً: في الاستيطان

لقد استغرقت سلسلة الحملات الصليبية حوالي مائتي عام، وهي مدّة طويلة جدّاً في تاريخ الحروب. وكان المستعمرون الذين استوطنوا بلاد الشام استطاعوا أن يحافظوا على أنفسهم بصعوبة كبيرة، ولم تبق الدويلات التي أقاموها تلك المدّة إلا بفضل الموجات المتعاقبة التي جاءت لنجدتهم على شكل حملات صليبية جديدة، وبفضل الحالة السيئة التي كان عليها المشرق العربي يومذاك.

كان هدف الفرنجة، منذ أول حملة صليبية، الاستيلاء على الأرض، وكان الاستيطان يتطلب حيازة أراض واسعة، ولهذا استقرت خطة الاستيطان على احتلال أراض على الساحل السوري، حتى تصان خطوط المواصلات مع الغرب، وعلى أراض في الداخل بعيدة قدر ما يستطيع الغزاة توفير الحماية لها. وفي جميع الأحوال، كانت الأرض مطلوبة حتى يُقيم الغزاة عليها، ويعيشوا منها، ويُقيموا إماراتهم وحكوماتهم عليها.

وكانت القوات الصليبية مؤلفة من القوات الإقطاعية، وقوات التعبئة العامة، وفرق الأخويّات الرهبانية الفرسانية العسكرية، وجماعات الحجيج، والمتطوّعة، والمرتزقة[٧]. وهي فئات مؤهلة للاستعمار الاستيطاني، والقيام بوظائفه، وإن ثبت، بعد ذلك، أنّها لم تكن كافية لترسيخ أسس الاستيطان ومؤسساته.

وكانت الحملة الأولى، بصورة خاصة، مجهزة بقوة تتراوح بين ستين ألفاً ومائة ألف، على اختلاف بين المؤرخين. وكانت تضم مجموعة غير قليلة من النساء والأطفال والشيوخ والقسس والأساقفة، وهم فئة غير مقاتلة. فكانت الحملة أشبه ما تكون بهجرة شعبية عزمت على الاحتلال والاستيطان بقوة السلاح، كجاليات مستعمرة في فلسطين وما يجاورها من البلاد[٨].

وكانت الطبقة الفرنجية الحاكمة في الإمارات الصليبية مؤلفة من الأرستقراطية العسكرية. وقد اعتمدت في حكمها على شبكة القلاع التي استولت عليها أو أقامتها. ويُلقي هذا الاعتماد ضوءاً على طبيعة الاستيطان الصليبي.

وكانت وظائف هذه القلاع تأمين الدفاع عن الحدود وعن الوجود الصليبي. وهي قواعد للهجوم، ومراكز لترسيخ السيطرة على مناطق الإمارة، وللاستعمار والتطوير الاقتصادي[٩]، ومساكن للإقامة والعيش، ومقرات للسلطة والقيادة، ومراكز إدارية، وثكن للجند، ومخافر للشرطة.

ولقد وجدت الصليبية في الحرب الأداة لغزو بلاد الشام وترسيخ كيان دويلاتها، والمحافظة على كيانها في المشرق. ولهذا كانت الحرب جزءاً لا يتجزأ من الحياة العامة في البلاد[١٠] وثمة مقولة مفادها أن «سورية اللاتينية أوجدت بالغزو والاستيطان»[١١]، وأن الدويلات الصليبية لم تكن «من نواح عدّة أكثر من مجرد مستوطنة عسكرية فجة»[١٢].

وبالرغم من تتالي الحملات، لم يستطع الصليبيون أن يشكلوا سوى أقلية قليلة في المناطق التي احتلوها. وكان فيهم المقاتلون والتجار، وقد ميزوا أنفسهم بما يميز به كل مستعمر غاز نفسه، من عنصرية وطبقية وقضاء مستقل واستعباد لأهل البلاد. وكان المقاتلون يمارسون في حياتهم اليومية، وفي غير أوقات القتال، الأعمال المدنية، المتمثلة في طبقة السادة الذين يديرون أملاكهم ويستخدمون الأجراء من أهل البلاد[١٣]، وفق نظام الإقطاع النافذ في أوروبا. وقد كان هذا النظام موضع صدام حاد بين سكان البلاد الأصليين والغزاة الأوروبيين[١٤].

ونقتبس من أحد المؤرخين قوله: «وكان الإفرنج قليلي العدد في ولاياتهم الخاصة. ولم يكونوا يوماً حتى في القدس وسواها من المدن المحتلة، أكثر من أقلية ضئيلة. ذلك أن كثيرين منهم، بعد أن تحقق الاستيلاء على القدس، اعتبروا أن تعهدهم قد أنجز، وعادوا أدراجهم إلى أوطانهم. ولا يخفى أن بقاء مثل هذه الدول الغربية كان رهناً بوصول إمدادات جديدة من المجندين بصورة متواصلة من الوطن الأول، وببقاء الأعداء مفككين لا تجمعهم قيادة قوية موحدة»[١٥].

لم تستطع القيادات الصليبية أن تُرسي قواعد راسخة للاستيطان في الأرض التي احتلتها، لتعدد تلك القيادات واختلافها، ولأنها عجزت عن مواجهة المشكلات العسكرية والاقتصادية والاجتماعية، في وقت أخذت فيه الموارد البشرية والمالية والمادية، وبخاصة الموارد العسكرية، تتقلص ثم تنضب. ولهذا كثرت طلبات التعزيز من أوروبا، التي فترت الروح الصليبية فيها، في إثر فشل الحملات المتتالية في الحفاظ على المكتسبات التي حازتها الحملات الأولى.

لقد كان بقاء الإمارات الصليبية مرهوناً، في نهاية المطاف، بوجود جيش ميداني مناسب، وحاميات كافية للقلاع. وقد عجز القادة

الصليبيون عن حل هـذه المشكلة، فانقرضت ولاياتهم، ولم يكن أمامهم حل سوى الانسحاب.

وحتّى تتحاشى الصهيونيـة أن تلقى هـذا المصير، فقد وعت الدرس الصليبي الفاشل في الاستيطان في بلاد الشام، واستوعبت أسبابه، وأخذت تُعدّ لمشروعها العوامل والمقوّمات التي تنهض به، فاستندت إلى مجموعة من المبادىء التي تُرسي استيطانها في فلسطين على قواعـد راسخة. ومن هذه المبادىء:

(أ) القوة فوق الحق. واستناداً إلى هذا المبدأ، يقرر هرتزل مؤسس الصهيونية أن «هذه الأمة اليهودية سوف تبقى، أما ما عداها فسوف يزول، بل ويجب القضاء عليه لأنّه غير أهـل للبقاء»[١٦].

(ب) القوة ضرورة حتمية لبلوغ أهداف الصهيـونية. والعمـل السياسي سبيـل لتعبئـة الطاقات للحركة، وتجنيد الهيئـات والمنظمـات الصديقة من أجل المساعدة على بلوغ الأهداف.

(ج) الاستعمـار الاستيطاني هـو الوسيلة للاستيـلاء عـلى الأرض، وهـو الذي يجسّـد الإنجازات السياسية عن طريق فرض الوجود الصهيوني في فلسطين.

(د) الحـركة الصهيـونية حليف عضـوي للأمبريالية. ولا غنى لها عن الارتباط العضوي بالدول التي تجسّد الأمبريالية وممارساتها.

(هـ) العمل العسكري ضرورة لا غنى عنها لفتـح المجال أمـام الاستعمـار الاستيـطاني، ليستولي على الأرض، وليحمي وجوده وإنجازاته. والرابـطة بين العمـل العسكـري والاستعمـار الاستيـطاني وثيقة لا انفصـام لهـا. فـالقـوة العسكرية هي الوسيلة التي توفر للاستعمـار الاستيـطاني النشـوء والوجـود. وعـلى هـذا الاستعمار أن يوفّر القاعدة الاجتماعيـة التي تسند القوة العسكرية، وتمدّها بالعناصر اللازمة لحياتها ونموها.

ومثلما تحولت الهجرة اليهوديـة من غايـة «لتحقيق الخـلاص» إلى وسيلة لدعم الكيـان الاستعمـاري في فلسطين، تحـوّل الاستعمـار الاستيطاني من غاية لتحقيق الوجود الصهيوني في فلسطين إلى وسيلة لفرض الأمر الواقع المترتب على كل توسع تحوزه إسرائيل في حروبها.

يمثّل الاستيطان في فلسطين التطبيق العملي للصهيونية. وتبقى المقـولة التي قالهـا الزعيم الصهيـوني جابـو تنسكي في العـام ١٩٣٣: «الصهيونية هي استيطان، ولذا فهي تحيا وتموت مع قضية القوة المسلحة»، تبقى مقولة لها مغزاها وبُعدها الاستراتيجي في اختزال مسألة الغزوة الصهيونية كلها.

ويمكن القول إن مسألة الاستيطان الصهيوني تشكّـل المحـور المـادي للصـراع العـربـي الصهيوني، منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم. وطوال هذه المـدة، شكّل الاستيـطان، بالنسبة إلى الصهيونية، الوسيلة والهدف معاً، واتصف بثنائية العمل في وقت واحد: عملية البناء الصهيوني وعملية هدم المجتمع العربـي القائم.

لقد وعت الصهيونية جيّداً ما تتطلبه عملية الاستيطان، وحدّدت عناصرها الرئيسية الثلاثة: الأرض والإنسان والماء، وخططت لإعداد هذه العنـاصر وتوفيـرها بـدقـة وشمـوليـة ونـظرة مستقبلية. واستخدمت الوسائل العلميـة التي أتاحتها لها حضارة القرن العشرين[١٧].

تعود أصول النزعة الاستيطانية اليهودية في فلسطين إلى أصول وأطماع أمبريـالية غـربية تجسّدت، في القرن السـابع عشر، في إنكلتـرا وفـرنسا[١٨] بـالدرجة الأولى، ثمّ في بـروسيـا والولايات المتحدة الأميركية[١٩] بالدرجة الثانية.

وعلى هذا يمكن القول إن عملية الاستيطان اليهودي في فلسطين قد تمّ إعدادها وتهيئتها في المراكز الاستعمارية الغربية، وبخاصة بريطانيا. لقد وجدت الرأسمالية في هذه الدول أن توطين اليهود في فلسطين يحقق لها فوائد جمة، ويخدم مصالحها الاستعمارية. وهنا التقت الرأسمالية اليهودية والرأسمـالية الأوروبيـة بمصالحهمـا المتداخلة، ليتمّ عن طريق هذا التلاقي تحريك اليهـود واستقـطابهم، ومن ثـم ضخّـهم إلى فلسطين.

أنتج تبنّي الاستعمار الأوروبـي لفكرة تهجير اليهـود إلى فلسـطين ولادة الأسس الفكـريـة والعقائدية للحركة الصهيونية، وكان للمفكرين اليهود الروس، في النصف الثاني من القـرن التاسع عشر، ضلع كبير في بلورة تلك الأسس.

وحين بلغت الفكرة الصهيونية، في رحلتها، تيودور هرتزل، ومؤتمر بازل في العام ١٨٩٧، انتقلت من الإطار الفكري والعمل غير المنظم، إلى الإطار المؤسسي والعمل المنظم. وفي هذه المرحلة، صعد المشروع الصهيوني إلى مستوى الاهتمام الدولي، إذ لقي العطف والتفاهم والدعم من حكومات ألمانيا وروسيا وبريطانيا، بخاصة من أجل الضغط على الدولة العثمانية حتى تفتح أبواب الهجرة لليهود إلى فلسطين.

شهدت عملية الاستيطان الصهيوني الهجرة الأولى بين العامين ١٨٨٢ و ١٩٠٣ (٢٥ ـ ٣٠ ألف مهاجر)، والهجرة الثانية بين العامين ١٩٠٤ و ١٩١٤ (٣٥ ـ ٤٠ ألف مهاجر)[٢٠]. حتى إذا وقعت الحرب العالمية الأولى، وثّقت الصهيونية علاقاتها بالطرفين الرئيسيين فيها، ألمانيا وإنكلترا. وحينما بدأت الهزيمة تحلّ بألمانيا، اتجهت إنكلترا إلى فرض انتدابها على فلسطين، وتبنّت الحركة الصهيونية وأهدافها تبنّياً مطلقاً، على أساس أن إنشاء كيان صهيوني في فلسطين يوطّد مصالحها في المنطقة العربية، ويوسّع امبراطوريتها الاستعمارية، ويؤسس لها قاعدة تتصدّى لحركة التحرر القومي العربي، وتفصل بين جناحي الوطن العربي. وقد كَمَنت هذه الأغراض كلّها في معنى وعد بلفور ومبناه.

وهكذا تدفقت الهجرة اليهودية إلى فلسطين. ففي حين كان عدد اليهود في العام ١٨٢٩ لا يتجاوز ٩٠٠٠، أخذ يزداد ليصبح ٢٤٠٠٠ في العام ١٨٨٢، و ٥٠٠٠٠ في العام ١٩٠٠، و ٨٥٠٠٠ في العام ١٩١٤، و ١٢٢٠٠٠ في العام ١٩٢٥، و ٣٥٥٢٠٠ في العام ١٩٣٥، و ٥٦٣٨٠٠ في العام ١٩٤٥، و ٦٠٨٢٠٠ في العام ١٩٤٦، و ٦٤٩٦٠٠ في العام ١٩٤٨[٢١].

لقد أدركت الدول الأوروبية والولايات المتحدة، أن إقامة كيان صهيوني في فلسطين يؤدّي خدمات جليلة لمصالحها في المنطقة العربية. وهذا ما يفسّر تسابق هذه الدول إلى خدمة المشروع الصهيوني، والسعي لتنفيذه، ومن ثم حمايته ودعمه.

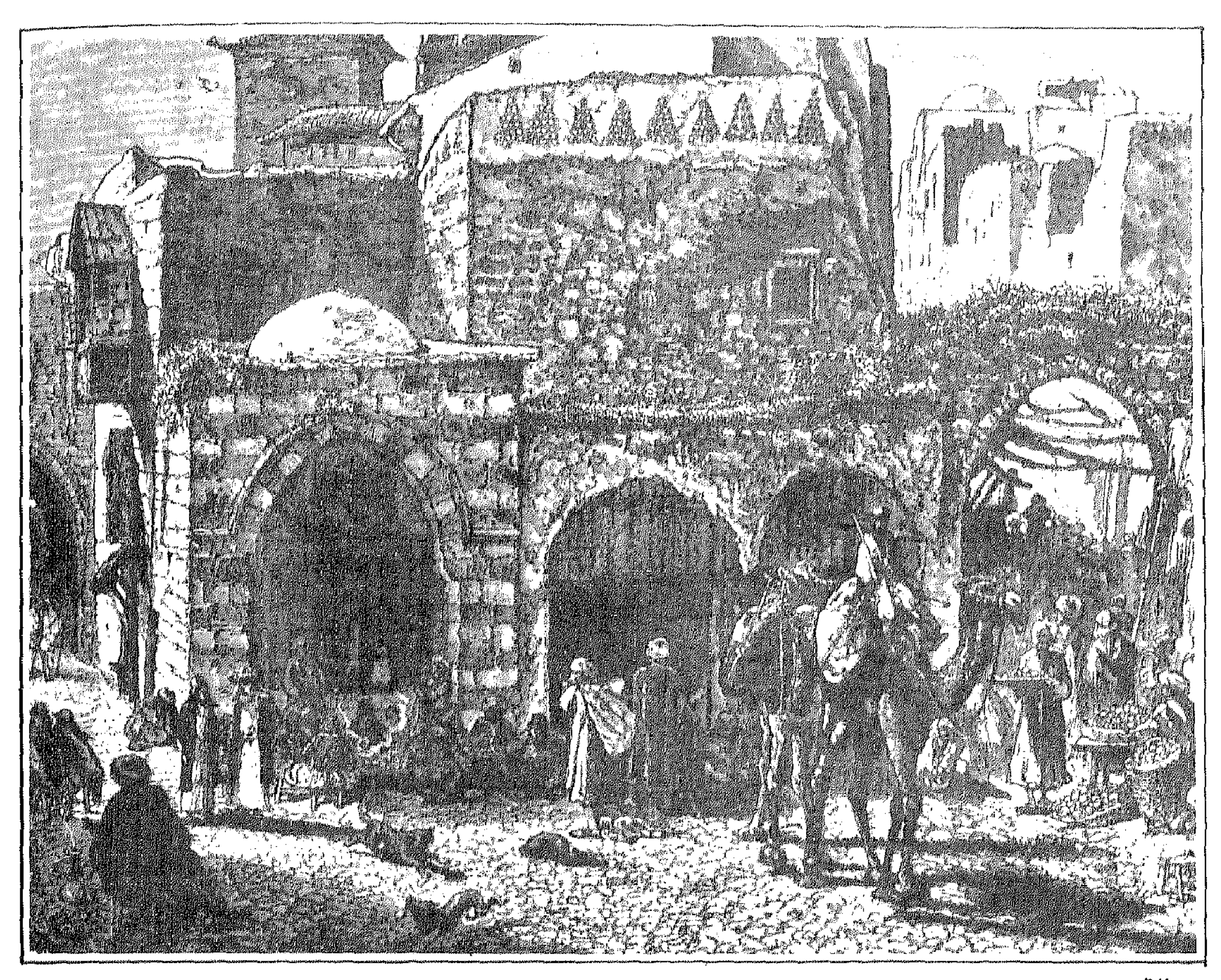
وبالرغم من أن أكثر من مائة عام مرت على هذا المشروع، وبالرغم من اختلاف المراحل التي مرّ بها وتنوعها، ظلت وسائله دون تغيير أساسي: الاستيلاء على الأرض بشتى الطرائق، وبأي ثمن، ونزع العرب من أرضهم بمختلف وسائل الإرهاب والتفقير وسلب لقمة العيش، واستقدام الإمكانات البشرية والمالية والعسكرية الضرورية لإقامة المستعمرات الاستيطانية ودعمها.

لقد مثّل المشروع الصهيوني، المولود من رحم الاستعمار الأوروبي، محاولة مخططة ومستمرة لخلق واقع استيطاني في فلسطين، قصد السيطرة عليها وتهويدها، فزرعت، منذ أواخر العهد العثماني، مستعمرات متفرقة، كانت أشبه بالجزر المعزولة في محيط عربي. ومع تبنّي الانتداب البريطاني لمشروع إقامة «الوطن القومي اليهودي في فلسطين»، أخذ الصهيونيون يستولون على مناطق كاملة. حتى إذا وفرت الدول الاستعمارية الغربية الشروط والعوامل الكافية لتكوّن الكيان الصهيوني في العام ١٩٤٨، أخذ الاستيطان كامل حريته ونشاطه فيما احتلته إسرائيل من أرض.

ومع احتلال إسرائيل أراضي جديدة في العام ١٩٦٧، حدث تطور أساسي جديد في إمكان استكمال المشروع الصهيوني، إذ أصبحت فلسطين بكاملها، وأراض عربية أخرى، واقعة تحت السيطرة الإسرائيلية، ليدخلها الاستعمار الاستيطاني على مراحل، بدءاً بما سمي «مناطق الأمن» المتمثلة، أساساً، في الجولان وغور الأردن وحول القدس، ومروراً بإقامة الكتل الاستيطانية والتجذر داخل المدن العربية الكبرى، واتجاهاً نحو «أرض إسرائيل الكاملة».

ثمة ثلاثة عوامل سيطرت على جميع خطط الاستيطان الصهيوني في فلسطين، سواء قبل الاحتلال في العام ١٩٤٨، أو بعد قيام إسرائيل، أو بعد حرب ١٩٦٧.

العامل الأول والأهم هو الدافع الأمني. فقد ارتبط تاريخ المستعمرات الصهيونية، بجميع أنواعها: كيبوتز، وموشاف، وناحال، بالخطط العسكرية الصهيونية، إنْ في تعيين مواقعها، أو تحديد عددها، أو في نوعيتها وتركيبها وطريقة بنائها. فهي قلاع عسكرية، مثلما هي مستوطنات مسكن وعمل، وسكانها جنود محاربون مدرّبون مسلّحون، مثلما هم عمّال ومزارعون. والوظيفة الأولى والأهم لهذه المستعمرات هي حماية



□ القدس.

الحدود والمناطق الاستراتيجية من أي هجوم أو ثورة أو نشاط فدائي. ويُلاحظ أن أكثر من نصف المستعمرات هو من نوع الناحال، أي من الوحدات العسكرية التي يعمل فيها المجنّدون، ويؤدّون خدمتهم العسكرية الإلزامية بإشراف الجيش.

ويتمثّل العامل السياسي في دور الأحزاب السياسية في دفع عملية الاستعمار الاستيطاني إلى أقصى مدى ممكن، بحيث تؤدّي العملية، في نهاية الأمر، إلى جعل انفصال الأراضي العربية المحتلة في العام ١٩٦٧ عن جسم الكيان الصهيوني أمراً مستحيلاً، ديمغرافياً واقتصادياً وواقعياً.

ويُراد من المستعمرات أن تخدم اقتصادياً ــ وهذا هو العامل الثالث ــ فتؤمّن مأوى للمهاجرين اليهود الذين لا تزال الصهيونية تطمع باستقدامهم إلى فلسطين المحتلة من مختلف أنحاء الأرض[٢٣]. وعلى هذه المستعمرات أن تعمل لاستغلال خيرات الأرض العربية، وأن تزاحم السكان العرب في أرضهم ورزقهم وعيشهم، وأن يؤدّي، في نهاية الأمر، إلى اقتلاع أو طرد أو تهجير هؤلاء السكان من وطنهم، لتصفو الأرض خالصة للصهيونيين.

وإذا كان الصليبيون قد تعايشوا مع سكان البلاد التي احتلوها، وحاولوا استغلالهم وبسط السيطرة عليهم، وبخاصة خلال الفترة التي ضعفت فيها المقاومة العربية للاحتلال، فإنهم لم يعملوا لإجلائهم عن وطنهم. أمّا الغزوة الصهيونية فإنها، بطبيعة دوافعها وأهدافها، نفي للشعب العربي في فلسطين، وإلغاء له ونقض لوجوده.

وفي حين كانت الغزوة الصليبية قوية وعنيفة منذ انطلاقتها الأولى، لأنها صدرت عن حركة غنية بطاقاتها البشرية والسياسية والاقتصادية

والدينية، فشلت الحركة الصهيونية خلال السنوات الثلاثين التي سبقت الحرب العالمية الأولى، في تطبيق برنامجها الاستعماري، حين تصدّت وحدها لتنفيذه[٢٣]. ولم يكن، بدّ، حينذاك، من أن يمدّ الاستعمار الأوروبي، ممثلاً بإنكلترا، يده إلى وليده، ليعينه على السير في مشروعه.

وبمثل ما توافرت ظروف وأسباب أدت إلى عجز الصليبية عن التوسّع في الإمارات المحتلة، وإلى ضمور الموارد التي كانت تصبّ على هذه الإمارات من أوروبا الأم، وإلى تضيّق الشرايين حتى الاختناق، تجد الصهيونية نفسها اليوم عاجزة عن هضم ما احتلته توسعاً واستعماراً. وإذا كانت الأسباب متعدّدة، فإن أحدها نضوب التدفق البشري اليهودي على الأرض المحتلة. فبعد احتلال دام عشرين عاماً في الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان، واستعمار استيطاني نشيط محموم، لم تجد إسرائيل أكثر من خمسين ألف شخص يعيشون في حوالي مائتي مستعمرة، أقاموها وحموها بقوة جيش الاحتلال. وهنا يقول وزير الخارجية الإسرائيلي السابق أبا إيبان: «لا يمكن، في أيّة فترة، أن يتجاوز عدد الإسرائيليين في تلك المناطق نسبة ٤ أو ٥ من مجموع السكان هناك. ويعني هذا أن فكرة الضم قد فشلت قانونياً وديمغرافياً على حد سواء[٢٤].

ويشدّ انتباهنا هنا، ونحن في صدد المقارنة بين الصليبية والصهيونية، أن نلاحظ أن الصهيونية تعلّمت من التجربة الصليبية في الاستيطان، واستوعبت دروسها، ووفّرت لاستيطانها جميع الأدوات اللازمة له، وبخاصة أنها اتخذته وسيلة وهدفاً في آن واحد. وتجنّبت الأخطاء التي وقعت فيها الصليبية، التي لم تول الاستعمار الاستيطاني العناية الكافية، ولم توال تنفيذه كوسيلة وهدف، حتى إذا ضعفت الأسباب التي ولّدت انطلاق الحملات، وهَزَلت الروح الكامنة وراءها، تقلّص المدّ بالرجال والسلاح، إلى أن وجدت الصليبية نفسها أمام مصيرها الذي لا بدّ أن تلاقيه.

وفي حين ظنّت الغزوة الصليبية أن الوجود العسكري والمؤسسات المدنية تكفي لإقامة دويلات تحكم وتستمر في الحكم، على أن تبقى الشرايين بين أوروبا وهذه الدويلات مفتوحة ونشيطة، وبخاصة لنقل الإمدادات والقوى من الشمال إلى الجَنوب، تداركت الصهيونية ما اعتور التجربة الصليبية من نقص، حين أدركت أن الاستعمار الاستيطاني، أي الاستيلاء على الأرض، هو الوسيلة إلى إقامة الدويلة، وليست الدولة هي المنطلق للاستيطان، وإن كانت هي الوسيلة، فيما بعد، لاستكمال مشروع الاستعمار الاستيطاني.

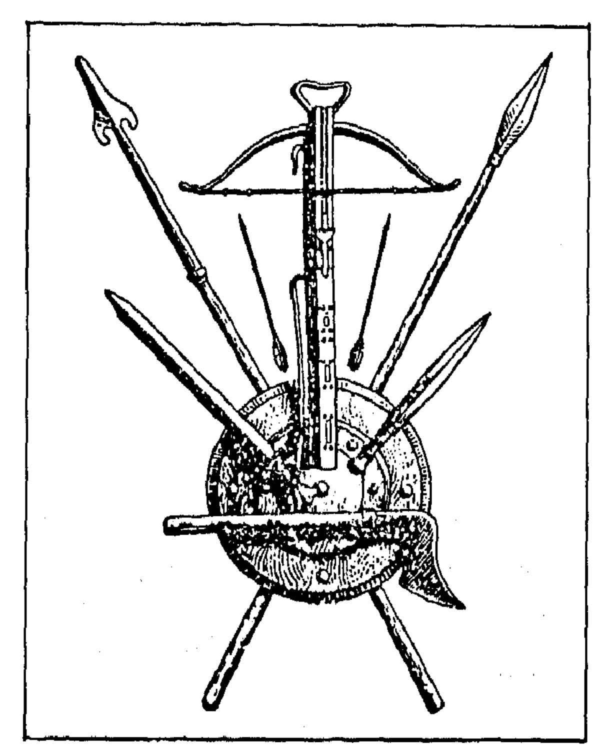
وهذا ما يفسّر تلك القداسة التي أحاطت بها الصهيونية مفهوم الأرض، من خلال تشديدها على الارتباط بها، ورفعها مهمة «افتداء الأرض» أي الاستيلاء على الأراضي العربية، إلى مستوى الفريضة الدينية[٢٥].

ثالثاً:
في العنف والإرهاب

شهد التاريخ، قديمه وحديثه، غزوات وفتوحات وحروباً كثيرة. وفي صفحات هذا التاريخ، تحتلّ الحركتان الصليبية والصهيونية مكانة عالية في عمليات العنف والإرهاب، على اختلاف ما بينهما من أهداف في تلك العمليات، ومن ولوغ في القتل حتى الإبادة.

وإذا ما أردنا أن نختار بعض الأمثلة من الغزوة الصليبية، فإن ما جرى في معرة النعمان قد يكون أحد النماذج الواضحة. فبعد أن دخلها الصليبيون يوم ١٣/١/١٠٩٩، قتلوا جميع السكان على بَكرة أبيهم، وفيهم جميع النساء والأطفال، ليبثّوا الرعب في قلوب العرب، ويُضعفوا مقاومتهم، ثمّ أكلوا لحوم الأطفال العرب بعد طهيها. وأكملوا عملهم بأن أحرقوا المدينة[٣٦].

وفي القدس، اقتحم الصليبيون المسجد الأقصى. وروى مؤرخوهم الذين شهدوا الموقعة، أن الجنود كانوا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين[٣٧]. ثمّ إنهم جمعوا جثث القتلى حتى تعالت أكوامهم فحاذت البيوت ارتفاعاً[٣٨]. ولم يختلف هذا الوصف، بقليل أو كثير، عمّا رواه المؤرخ العربي ابن الأثير[٢٩].



□ اسلحة صليبيّة

وثمة من يقول إن عدد المسلمين الذين قتلهم الصليبيون منذ خروجهم من القسطنطينية حتى احتلالهم القدس، في تموز/يوليو ١٠٩٩، قد تجاوز نصف مليون إنسان، فيهم الكثير من النساء والأطفال. ويذكر ابن الجوزي أن عدد من ذبحوا من المسلمين في القدس وحدها تجاوز سبعين ألف شخص(٣٠). وقد وصف عدد من المؤرخين الطرائق الوحشية التي اتبعها الصليبيون في إزهاق هذه الأرواح(٣١).

وإذا كان الصليبيون، غداة استيلائهم على القدس، قد أحرقوا اليهود في معبدهم، فإن صلاح الدين الأيوبي، الذي كان يستعيد القدس في العام ١١٨٧، قد أذن لليهود بالعودة إلى المدينة المقدسة(٣٢).

وإذا كانت القرون الوسطى لم تعرف الإرهاب، بأشكاله وأساليبه المعاصرة، فإن الصهيونية أضافت إلى وسائلها في القتل والإبادة، هذا الإرهاب المعاصر، حتى احتلت المنزلة العليا في استخدامه والتفنن في أشكاله وأساليبه. ذلك أنّها بالعنف والإرهاب، وحدهما، اغتصبت أرضا وأبادت ونفت واضطهدت شعباً. وما من مسؤول صهيوني، إلّا كان إرهابياً، في الفكر أو الممارسة، أو في كليهما معاً. ومن يراجع تاريخ الإرهاب الصهيوني، سواء قبل إقامة الدولة الصهيونية أو بعدها، يجد أن معظم القادة والمسؤولين الصهيونيين هم قادة للمنظمات الإرهابية، السريّة والعلنية، أو مسؤولون أو عاملون فيها.

ولقد كان الإرهاب، على مدى أكثر من نصف قرن، أحد المقومات الفكرية الأساسيّة للحركة الصهيونية، وأحد الأساليب التي طبقتها الصهيونية لتحقيق غرضها الأول، وهو إقامة إسرائيل. لذا فقد اقترن إنشاء الكيان الصهيوني بأبشع أشكال الإرهاب وأفظع أنواعه. ثم أخذت إسرائيل عن الصهيونية الإرهاب، فكراً وأسلوباً، لتمارسه ضد الشعب العربي الفلسطيني والدول العربية المجاورة.

وتاريخ الحركة الصهيونية وإسرائيل حافل بسلسلة طويلة من أعمال الإرهاب والقتل الجماعي، بمثل ما هو التراث الفكري الصهيوني غنيّ جدّاً بالأعمال الفكرية التي تعبّر عن الإرهاب، عقيدة ووقائع. فقد نشر قادة الصهيونية وزعماء إسرائيل ومفكروهما مؤلفات كثيرة، بحثوا فيها الإرهاب، كعقيدة وسياسة ووسيلة، وتحدّثوا عن المنظمات الإرهابية وايديولوجيتها ونشوئها وتنظيمها وأهدافها وإنجازاتها والجرائم التي ارتكبتها. ويمكن القول إنه ليس في العالم القديم أو المعاصر تراث عسكري أو سياسي، لأي مجتمع بشري أو حركة سياسية، يشبه التراث الصهيوني والإسرائيلي عن الإرهاب.

وعندما فكّرت الصهيونية في إقامة دولة يهودية خالصة في فلسطين، رأت أن ذلك لن يتمّ إلّا بإبادة سكان البلاد الأصليين، أو طردهم، عن طريق الإرهاب والترعيب والتخويف. وعلى هذا، شكّل الإرهاب والعنف، منذ البداية، صلب الخطة الصهيونية الرامية إلى احتلال فلسطين.

وهكذا استعملت الصهيونية في غزوها فلسطين، ومن ثمّ إسرائيل في تثبيت كيانها وتوسيع حدود احتلالها وتفريغ فلسطين من أهلها، أساليب كثيرة ومتنوعة، منها: القنابل في المقاهي والأسواق وعلى وسائط النقل، القنابل على الدوائر المدنية الحكومية، الاغتيال السياسي داخل فلسطين وخارجها، أخذ الرهائن ثم قتلهم،

نسف الفنادق، نسف سفارات أجنبية خارج فلسطين، لغم سيارات الإسعاف، نسف البنوك والسطو على أموالها، الرسائل الملغومة خارج فلسطين، نسف بيوت قروية ومبان سكنية بسكانها، ضرب أحياء مدينة بالمدافع، شنّ حرب نفسية لحمل المدنيين على الرحيل، نهب المدن، اغتيال موظفي الأمم المتحدة، مصادرة جماعية لممتلكات النازحين والغائبين، هدم قرى مواطنين بكاملها، طرد جماعي لمواطنين من البلاد، إطلاق الرشاشات على قبائل بدوية من أجل طردهم جماعياً من البلاد، نسف طائرات ركاب خاصة مع ركابها، استعمال النابالم ضدّ المستشفيات، قصف وإطلاق النار على أفواج اللاجئين الفلسطينيين، هجوم بالقنابل برّاً وجوّاً على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، طرد قادة فلسطينيين ومحاولة اغتيالهم، ضرب المدن العربية بقنابل النابالم، الاغتيال بطريقة لغم السيارات الخاصة، احتجاز نساء وأطفال من أقرباء المشبوهين كرهائن في معسكرات الاعتقال، قتل سكان قرى عربية، مثل: مذبحة دير ياسين، حيث قتل رجال عصابتي إرغون وشتيرن الإرهابيتين ٢٥٤ رجلاً وامرأة وطفلاً ومثّلوا بهم، ليلة ٩ ـــ ١٠/٤/١٩٤٨ ـــ مذبحة قبية، حيث قتل الجيش الإسرائيلي ٤٢ رجلاً وامرأة وطفلاً ومثّل بهم، ونسف ٤١ بيتاً، ليلة ١٤ ـــ ١٥/١٠/١٩٥٣ ـــ مذبحة كفر قاسم، حيث قتل حرس الحدود الإسرائيليون ٤٧ رجلاً وامرأة وطفلاً، يوم ٢٩/١٠/١٩٥٦ ـــ مذبحة مخيم اللاجئين في خان يونس، حيث قتل الجيش الإسرائيلي ٢٧٥ رجلاً وامرأة وطفلاً، يوم ٣/١١/١٩٥٦ ـــ مذبحة مخيم اللاجئين في رفح، حيث قتل الجيش ١١١ رجلاً وامرأة وطفلاً، يوم ١٢/١١/١٩٥٦.

وثمّة حقيقة أخرى كُشف عنها الغطاء في أواخر العام ١٩٨٦، تثبت أن خروج القسم الأكبر من الفلسطينيين من المناطق التي احتلتها الهاغناه في فلسطين في مرحلة إقامة إسرائيل، كانت نتيجة مباشرة للعمليات الإرهابية التي نفّذتها الهاغناه ومنظمتا إرغون وشتيرن، وليست نتيجة رغبات ونداءات الهيئة العربية العليا لفلسطين والحكومات العربية المجاورة، وهي الدعوى التي تشبثت بها الصهيونية لتفسير ظاهرة الهجرة الجماعية الفلسطينية من مناطق الاحتلال.

ولقد كُشف عن هذه الحقيقة الكاتب الإسرائيلي «بيني موريس» حين نَشر في كتاب حديث له[٣٣]، وثيقة هي تقرير من مخابرات الجيش الإسرائيلي، تاريخه ٣٠/٦/١٩٤٨، ويغطي المدّة من ٢٩/١١/١٩٤٧ إلى ١/٦/١٩٤٨، وجاء فيه أنّه، خلال المدّة المذكورة، غادر فلسطين ٢٣٩ ألف عربي من المناطق التي خضعت «للدولة اليهودية» في قرار الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين، و ١٥٢ ألف عربي من المناطق التي احتلتها القوات الصهيونية من أراضي الدولة الفلسطينية.

يثبت التقرير أن الهجرة العربية كانت ٥٥ ٪ منها بسبب عمليات الهاغناه (ثمّ الجيش بعد قيام إسرائيل في ١٥/٥/١٩٤٨)، في حين أنّ ١٥ ٪ من الهجرة كانت بسبب عمليات منظمتي إرغون وشتيرن، وما تبقى من الهجرة (أي ٣٠ ٪) كان نتيجة الذعر من تلك العمليات.

ويثبت التقرير أيضاً أن الهجرة العربية كانت على عكس رغبات الهيئة العربية العلياوحكومات الدول العربية المجاورة، وأن هذه الحكومات كافحت الهجرة «بالتهديد والترغيب وفرض العقوبات».

إضافة إلى ذلك، تشهد وثائق الأمم المتحدة، وبخاصة تقارير لجان التحقيق وقرارات الجمعية العامة ومجلس الأمن، على أن إسرائيل لم تترك مبدأ أو حُكْماً من مبادىء القانون الدولي وأحكامه إلّا خرقته أو انتهكته. وجميع تلك الانتهاكات تتعلق بحقوق الإنسان. والوسيلة التي اتبعتها في ذلك هي الإرهاب. وقد جرت وقائع ذلك كلّه ضدّ الشعب الفلسطيني بصورة خاصة، إذ قامت إسرائيل بأعمال القتل الفردي والجماعي، وإخراج السكان العرب من أراضيهم ومصادرتها، وترحيلهم وطردهم وتشريدهم واعتقالهم وسجنهم وتعذيبهم حتى الموت، وفرض العقوبات الجماعية عليهم، والتعدّي على حرياتهم ومعتقداتهم الدينية، ومحاولة حرق أو تهديم الأماكن المقدسة، وتدنيسها، وحصار المدن والأحياء والقرى، ومنع التجول. وهي أعمال تقوم

بها سلطات الاحتلال والمستوطنون المستعمرون الإسرائيليون، بمعرفة السلطات أو تشجيعها أو تغاضيها عن أعمالهم. وينتظم هؤلاء في منظمات إرهابية سريّة، إلى جانب منظمات أخرى تعمل في الجهيرة، مثل: «منظمة الإرهاب ضد الإرهاب» (رمزها: ت.ن.ت)، و «غوش إيمونيم ــ كتلة الأوفياء»، و «حركة كاخ ــ هكذا»، و «ديكوي بوغديم ــ سحق الخونة»، وغيرها. وتؤكد الوقائع أن هذه المنظمات العلنية والسريّة، تلقى التأييد الضمني من الحكومة وبعض الأحزاب ومن سلطات الاحتلال.

وحينما تدعو «حركة كاخ» إلى طرد المواطنين العرب من فلسطين كلّها، ولا ترى «أي ظلم في قتل الفلسطينيين»، فإنّها تعبّر، في الجهيرة، عن نيّة الحكومة والأحزاب الإسرائيلية. وإذا لم تكن هذه قد كشفت عن نيّتها، فإنّ سلوكها وممارساتها تشهد على أنها تخلق جميع الظروف والعوامل لطرد المواطنين العرب من فلسطين، سواء بتهجيرهم بالقوة، أو بأن يهاجروا من وطنهم كرهاً بعد أن تغلق في وجوههم جميع أبواب العيش بأمن وكرامة.

وإضافة إلى هذه المنظمات المتخصصة، ذات الأهداف المحدّدة، والقيادات المسؤولة، يمكن اعتبار المستوطنين المستعمرين في الضفة الغربية وغزة والجولان في عداد الإرهابيين. فهم يقومون، وفي العلن، وبرعاية القانون الإسرائيلي، وحماية قوات الاحتلال، باعتداءات يومية، على المواطنين العرب، في المدن والقرى والمخيّمات. وهي اعتداءات دموية وحشية، تبلغ حدّ القتل الفردي والجماعي، كمثل ذلك الهجوم الذي شنّه بعض المستوطنين المستعمرين على بلدة حلحول، قرب الخليل، في شهر آذار/مارس ١٩٧٩، وأطلقوا النار على المواطنين العرب، دون تمييز، فقتلوا وجرحوا كثيرين.

ولقد تنوعت أشكال «إرهاب الدولة» وأساليبه في الكيان الصهيوني، مثل خطف الجيش الإسرائيلي خمسة ضباط سوريين ولبنانيين (٢١/٦/١٩٧٢) كانوا داخل الأرض اللبنانية، ومثل الغارة الجويّة على مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس (١/١٠/١٩٨٥).

وكانت مذبحة مخيمي صبرا وشاتيلا، اللذين يضمان عشرات الألوف من اللاجئين الفلسطينيين، قرب بيروت (١٦ ــ ١٨/٩/١٩٨٢) نموذجاً يجسّد «إرهاب الدولة». فقد وضعت قيادة الجيش الإسرائيلي خطة المذبحة، وأشرفت على تنفيذها. وحاصرت المخيّمين، وحمت مرتكبي المذبحة، وقدّمت إليهم المساعدات. وانتهت العملية بقتل ٣٢٩٧ شهيداً.

وقد بلغ الأمر بالصهيونية أنّها لم تتورّع عن أن تستخدم الإرهاب، بمختلف أشكاله ووسائله، حتى ضدّ اليهود أنفسهم، إذا ما كان ذلك يساعد على تحقيق أغراضها. وثمّة أمثلة كثيرة على ذلك، منها نسف السفينتين «باتريا ــ ١٩٤٠» و «ستروما ــ ١٩٤٢» وإغراقهما بمن عليهما من ركاب يهود (٢٥٢ على الأولى، و ٧٦٠ على الثانية). ومن ذلك أيضاً ما أثبتته الوثائق والمعلومات بشأن تعاون الصهيونية مع النازية قبل الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها، من أجل إجبار اليهود الألمان على الهجرة إلى فلسطين، فكان اضطهاد النازية لليهود الوسيلة التي اتفق عليها الطرفان من أجل بلوغ ذلك الهدف، وإلقاء القنابل على البيعات والأمكنة التي يتجمع فيها اليهود في بغداد وفي بعض مدن المغرب العربي، في الخمسينات. وتكررت هذه العمليات في عدّة مدن أوروبية، للغرض نفسه.

وإذا كان التركيز في هذه الدراسة قد وَضَح على العنف والإرهاب الصهيونيين، فلأنّ مصادر المعلومات عنهما غنية ومتوافرة، ولأنّهما جناحا صفة هي من طبيعة الصهيونية وعناصرها المكوِّنة لها. ولا يعني هذا التركيز نفياً أو إهمالاً للعنف والإرهاب الصليبيين، فكتب التاريخ سردت معلومات وتفصيلات كثيرة وذات دلالة.

رابعاً:
في الاستراتيجية

ثمة مقولة في العلم العسكري، هي أن كل قوة عسكرية تقيم أو تفرض وضعاً معيّناً، تضع لنفسها، بطريقة ما من الطرائق، مفاهيمها الأمنية. وإذا كانت تلك القوّة استعمارية استيطانية، فلا بدّ لها من أن تشتمل مفاهيمها

الأمنية، من بين ما تشتمل، على مبادىء ثلاثة: احتلال الأرض، وتدمير العدو، والحسم.

وإن نحن عدنا إلى تاريخ الحركتين، لوجدنا أن الصليبية استطاعت، بواسطة الحملات المتتالية المتدفقة، أن تحتل من الأرض ما ظنّته، في المراحل الأولى من غزوتها، كافيا للاستيطان والاستقرار والاستمرار، وإقامة المؤسسات الحاكمة والمسيطرة والقادرة على مواجهة العدو. وكانت خطة الاحتلال تتضمن الأرض المطلوبة، وهي الأرض المقدسة، والبلاد المحيطة بها والكافية لحمايتها والدفاع عنها، والبلاد الساحلية التي تُبقي شرايين الاتصال والإمداد مفتوحة بين مصادر الحرب من جهة، ومواقعها الاحتلالية من جهة أخرى.

وحينما شعرت القيادات الصليبية أن ما احتلته من الأرض في بلاد الشام، لم يكن كافياً لحماية الإمارات الصليبية، وأن مصر تشكّل الطرف الثاني للكماشة العربية الإسلامية، توجهت إحدى الحملات إلى مصر لتجبرها على الكف عن تحرّشها بالقوات الصليبية، وعلى الخروج من ساحة الصراع. ولكن الحملة فشلت وارتدت على الغزاة هزيمة.

إلى جانب ذلك، لم تستطع الحملات، على تتاليها وغزارة تدفقاتها وإمداداتها، أن تدمّر عدوها، القوات والجماهير العربية، وإن هي تغلبت عليها هنا وهناك. ذلك لأن مصادر إمداد القوات العربية الإسلامية، وتدريبها، وتمرّس قياداتها التي توحّدت فيما بعد، وسيطرة أفكار ومفاهيم وأهداف استراتيجية واحدة على قيادة موحدة، أدّت جميعها إلى استعادة زمام المبادرة إلى أيدي القيادة المشرقية، والانطلاق بهجوم معاكس استراتيجي، استطاع أن يدمر جزءاً هاماً من قوات الخصم، وأن ينمّي في نفس العدو، بمرور الزمن، وتوالي الضغط والمقاومة الشعبية والصراع المسلح، اقتناعاً بأنّ الاستمرار في الصراع سيجرّه إلى خسارات متتالية، واستنزاف دائم لقواه.

ولأنّ الغزوة الصليبية لم تستطع أن تحتلّ من الأرض ما يكفي لحماية استعمارها وإماراتها وأهدافها، ولم تتمكّن من تدمير عدو يقيم في أرضه حيث الإمداد والتموين والدعم والدفاع



مشاة افرنج

عن الأرض والدين والمقدسات والأهل والحضارة، فقد فات الغزوة الصليبية القدرة على الحسم. وما كان لها من انتصارات تكتيكية في أغلب الأحيان، واستراتيجية في بعض الأحيان، لم تكن كافية لبلوغ الحسم الاستراتيجي النهائي المصيري. ولأنّها لم تستطع أن تبلغ هذه المرحلة الحاسمة من الحسم الاستراتيجي، فقد انكفأت على نفسها، وقلّصت حجمها، حتى تلاشت من الوجود.

هذا في التجربة الصليبية. أمّا في التجربة الصهيونية، فقد كانت الدروس السابقة متراكمة أمام عيني الصهيونية، ومستوعَبة في فكرها، وبخاصة أن قاعدة الانطلاق نحو المشرق كانت، للصليبية والصهيونية، واحدة، وهي أوروبا، وأن محطة الاحتلال واحدة، وهي فلسطين، وأن الوسيلة واحدة، وهي الغزو الاستعماري الاستيطاني.

فكيف تحرّكت الصهيونية نحو هدفها، وكيف بلغته، وماذا فعلت بالمبادىء الأمنية الاستراتيجية التي ذكرناها.

ثمّة ملاحظات أولية يجدر ذكرها، ذلك أن أوروبا أرسلت حملاتها الغازية إلى المشرق في حرب معلنة جهاراً نهاراً، مع كل ما يترتب على الحرب من احتلال وقتل وتدمير. يضاف إلى ذلك،

أن أوروبا البابوية لم تكن ذات وجود مادي في المشرق. وكانت الامبراطورية البيزنطية ذات الكنيسة المنشقة، وهي إفراز أوروبي في الأصل، تعاني الضمور وتخشى الهزيمة.

هكذا كان الوضع حين انطلقت الصليبية نحو المشرق. أمّا الصهيونية، فلم يكن باستطاعتها أن تعبّىء أوروبا لتقاتل معها في العلن، ولم يكن لها من القوة البشرية والعسكرية ما يكفي لغزوة كاسحة تحتلّ الأرض وتدمّر العدو وتحسم الأمر. فلجأت إلى أسلوب آخر جدّ مختلف. فقد سبقتها أوروبا الاستعمارية إلى المنطقة العربية، سواء بواسطة النفوذ والهيمنة زمن الامبراطورية العثمانية، أو بواسطة الوجود الاستعماري البريطاني في فلسطين إثر الحرب العالمية الأولى.

وطالما أن أوروبا، ممثّلة بإنكلترا، موجودة في محطة الاحتلال، وهي فلسطين، فلتبدأ الرحلة نحو الهدف، تسللاً، ثم هجرة، ثم غزوة مسلحة.

وهكذا أخذت الهجرات تتتابع، وأخذ اليهود يبنون المستعمرات، ويصادرون الأرض أو يغتصبونها أو يشترونها بالعنف والإكراه، وذلك كله ضمن خطة استراتيجية محكمة، يموّلها الاثرياء اليهود والصهيونيون في أوروبا وأميركا، وترعاها إنكلترا بالتشريع والإدارة والحماية والتنفيذ.

وحينما توافرت الظروف لتطوير شبكة الاستعمار الاستيطاني إلى كيان دولة، استطاعت قوات الهاغناه والبالماخ والارغون وشتيرن أن تربط ما بين المستعمرات، باحتلال ما بينها من أرض، وأن تخرج «العدو» منها.

وإذا كانت الغزوة الصهيونية قد استطاعت، في حرب ١٩٤٨، أن تحتل أرضاً، فإنها لم تستطع أن تدمّر عدوها، وبذلك هي لم تبلغ الحسم. ولا تزال الغزوة الصهيونية، بعد أربعين عاماً من انطلاقها العسكري، على ما هي عليه، تزداد اتساعاً في احتلالها أرضاً، ولكنها لم تقدر على تدمير عدوها. لذا فلا تزال الغزوة قائمة، ولا تزال مقاومتها فاعلة، ولا تزال الحرب سجالاً.

كانت القوة، اذن، هي الأساس الذي قامت عليه الامارات الصليبية في بلاد الشام، واستمرت بها فترة من الزمن. وكان عماد هذه القوة [illegible]

الميدان والمعاقل المحصنة. وكانت هذه المعاقل، والتي تشمل القلاع والحصون والمدن المحصنة، هي الأماكن التي مثلت الجزر التي استقرت فيها معظم مظاهر الاستعمار الاستيطاني الصليبي وكانت مجموعة المعاقل المحصنة تشكّل أشبه ما تكون بمنظومة دفاعية مترابطة، ترفدها منشآت عسكرية استيطانية أخرى.

يضاف إلى ذلك، أن الإمارات الصليبية كانت محميّة بسلاسل من الجبال والمرتفعات التي تفصل بين السهل الساحلي والوادي الانهدامي. وقد أقام الصليبيون أهم تحصيناتهم على الضهرات الجبلية والممرات التي تربط ما بين الساحل والداخل.

وكانت القلاع الحدودية تتيح للصليبيين ملاقاة عدوهم قبل أن يتوغل عميقاً في الأرض المحتلة. وكان الجيش الميداني يحتشد في منطقة تقع خلف الحدود، حيث تتلاقى القوات القادمة من المعاقل المحصنة. وتستند القوات الصليبية، في قتالها، إلى هذه المعاقل، لتستمدّ منها العون والإمداد، وتلجأ إليها في حال التراجع.

كانت الصهيونية في مجال الأمن الاستراتيجي، أعمق فكراً وأشمل نظرة وأكثر حرصاً من الصليبية، فقد أدركت، منذ البداية، أن نجاح مشروعها الاستعماري والاستيطاني يتوقف على ما تستطيع توفيره من حماية وأمن لمستعمراتها. وهكذا نشأت التنظيمات المسلحة الصهيونية، وأبرزها هاشومير (١٩٠٩)، والهاغناه (١٩٢٠). ولم يقتصر مفهوم الأمن الصهيوني للهجرات والمستعمرات على الجانب العسكري فقط، بل تعدّاه إلى الأمن الاقتصادي والثقافي والمعنوي. وهكذا أرست الهجرة اليهودية الثانية إلى فلسطين (١٩٠٤ ــ ١٩١٤) أسس المشروع الصهيوني بمختلف جوانبه.

وكانت المستعمرات، في الأصل، مجتمعاً عاملاً مقاتلاً مسلحاً. فإلى جانب مهمتها كمؤسسات استعمارية استيطانية بشرية عاملة، كانت مراكز قيادة للوحدات المقاتلة، وقلاعاً للدفاع، وقواعد للهجوم، ومراكز للتدريب على القتال. وكانت تشكّل، مجتمعة، نظاماً متكاملاً للدفاع الإقليمي، وبخاصة انها بنيت في مناطق حيوية تسيطر على

محاور الهجوم والاختراق من جهة، وعلى موارد المياه والمراكز الاقتصادية من جهة أخرى.

وإلى مثل ما هدفت إليه الاستراتيجية الصهيونية، وهو شطر الوطن العربي إلى جزءين لا اتصال جغرافياً بينهما، وذلك باحتلال فلسطين، كانت الصليبية سعت قبلها إلى الهدف نفسه، وزادت عليه توسيع رقعة احتلالها، حتى تقطع الاتصال بين جناحي الوطن العربي، وبخاصة بين مصر والشام. لكن المدن الشامية الهامة، مثل دمشق وحلب وحمص وحماه، استعصت على الصليبيين، كما استعصت مصر عليهم فيما بعد. وحينما أصبح هذا الحزام من بلاد الشام إلى جانب مصر تحت قيادة صلاح الدين، أصبح في قدرته أن يسحق الإمارات الصليبية وينهي وجودها تقريباً.

وبمثل ما كانت القوة هي الوسيلة الأولى والمباشرة بين يدي الصليبية لتنفيذ استراتيجيتها، كانت القوة هي الوسيلة الطاغية والدائمة بين يدي الصهيونية لتنفيذ استراتيجيتها، لهذا كان من الطبيعي أن يقوم الفكر العسكري بالدور الأول والأهم في رسم السياسة الصهيونية الهادفة إلى زرع الوجود الصهيوني في فلسطين، وتطويره حتى يبلغ مرحلة الدولة، ثم حمايته وتوسيع إطاره الجغرافي والديمغرافي وحدود هيمنته وسيطرته. واستتبع ذلك أن تتبوأ المؤسسة العسكرية الصهيونية المنزلة العليا، سواء في مرحلة إنشاء الدولة أو بعد قيامها.

خامساً:
ملاحظات ختامية

كان من الطبيعي أن تكون أوروبا ظهيراً للغزوة الصليبية. فإذا ما تخلّى هذا الظهير عن وليده الذي نما واشتد عوده حتى عاش حوالي القرنين، كان لا بدّ لهذا الوليد من أن يضمر حتى يموت. وقد بدأ هذا الضمور حين أخذت بذور معارضة الفكرة الصليبية تظهر في أوساط المثقفين الأوروبيين، منذ أن فشلت الحملة الثانية، أي بعد نحو مائة عام من انطلاق الغزوة. وقد نمت المعارضة بمرور الزمن، وتتابع الهزائم في ميادين القتال، فخفت الحماسة، وأخذت الشرايين بين أوروبا والإمارات في المشرق تضعُف وتتقطع، حتى جاء ذلك اليوم الذي واجه فيه الوليد مصيره النهائي.

ويبدو أن هذا الدرس يلقى صداه في أذهان الباحثين الإسرائيليين. ولنأخذ مثلاً على ذلك كتاب المؤرخ اليهودي يوشع براور[٣٤]، أستاذ تاريخ العصور الوسطى في الجامعة العبرية بالقدس. ففي كتابه «عالم الحروب الصليبية»، لا يُخفي هلعه من المصير الذي آلت إليه المستعمرات والإمارات الصليبية في المشرق، بعد أن تخلى الظهير الغربي عنها، وبخاصة أنه يلاحظ نضوب الموارد البشرية التي كان يجب أن تتدفق من أوروبا على الإمارات حتى يستمرّ الوجود الصليبي قادراً على العيش والمقاومة والترسّخ.

وإذا كانت الصليبية استطاعت أن تحتلّ فلسطين وبعض أطراف الشام، فلأن التمزقات والصراعات وكثرة الدويلات وتنازع الحكام في المشرق العربي كانت الأرضية التي دخلت الصليبية عليها إلى المنطقة. وحينما استطاع نورالدين محمود، ومن بعده صلاح‌الدين، أن يوحّدا المشرق بشامه ومصره، تحرّرت القدس، وانسحر الوجود الصليبي.

ولقد ظلت هذه المعادلة قانوناً حكم الصراع آنذاك، فما إن عاد التمزق يفعل فعله في الدولة الموحّدة، حتى عاد الوجود الصليبي سيرته الأولى، فاحتل الساحل الفلسطيني ثانية، وسعى لغزو مصر، حتى يستقرّ له الأمر والحكم والاستيطان.

ولقد تميّزت المرحلة الأخيرة من الحروب الصليبية، بتعرض المشرق العربي لغزوين معاً، صليبي ومغولي. ففي حين كان المغول يدقّون أبواب بلاد الشام، كان لويس التاسع ملك فرنسا يقود حملة صليبية جديدة نحو مصر. ولقد فكّر لويس التاسع في التحالف مع المغول ليضع المشرق العربي بين طرفي كماشة. ولكن صلف المغول وقلّة خبرتهم عطّلا المشروع الصليبي[٣٥].

ولم تغب هذه الصفحة من تاريخ الصليبية عن واضعي المشروع الصهيوني، الذين

استولدوا المشروع من رحم المراكز الاستعمارية ذاتها. ولهذا سهل على الصهيونية أن تتحالف مع إنكلترا وفرنسا في شنّ حرب ١٩٥٦ على مصر.

وكان من الطبيعي أن يصاب المشرق العربي، في إثر هزيمته أمام الغزوة الصليبية، بعقدة فقدان الثقة بالنفس. فها هم قوم يقلّون عنهم حضارة، وعدداً وعدّة، يُنزلون بهم النكبات، ويحتلون أرضهم، ويقضون على مؤسساتهم، ويُخضعونهم لحكمهم.

ولعل ذلك يرجع إلى عجز القوى العسكرية في المشرق عن توفير الحماية للناس، لتعدّد دويلات تلك القوى، وتنازع حكامها السلطة، وعدم استيعابهم دلالات التحدّي الصليبي، وتغليب مصالحهم ومنافعهم الأنانية على مصالح الأمة. وحينما توافرت قيادات، مثل عمادالدين زنكي، ونورالدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، انعكس اتجاه هذه السلبيات، وعادت الثقة إلى النفوس، وردمت الهوة بين السلطة والجماهير. وبسلاح الوحدة، بدأ الهجوم المعاكس الاستراتيجي على الغزوة الصليبية.

وبمثل ما كانت الصليبية بعيدة عن رسالة المسيح، ولا مستند تاريخياً لأهدافها، ولا حق تتكىء عليه، كانت الصهيونية عدوة الأديان السماوية كلها. فقد زوّرت التاريخ، وانتهكت ما استقرت عليه الإنسانية من قوانين وشرائع وأخلاق، واستمرت بفضل القوة، وبالمال والسلاح يتدفقان عليها من وطنها الأصلي، الغرب، تماماً كما كانت عليه الصليبية منذ ثمانية قرون.

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا، أن انتصار الصليبية لم يكن تعبيراً حقيقياً عن ميزان القوى بين طرفي الصراع، بقدر ما كان مجسّداً لفراغ الكفة العربية الموقت من الميزان. فقد كانت القوات العربية، وما في المنطقة من موارد بشرية واقتصادية، كافية، إذا ما عُبّئت في جبهة موحدة، لصدّ الغزوة الصليبية وهزمها. وقد أثبتت هذه المقولة صحتها بعد نحو مائتي عام.

وبمثل ما كانت الحال في القرن الثاني عشر، كانت الحال أيضاً في القرن العشرين، تجاه الغزوة الصهيونية. ولا حاجة إلى التدليل على ذلك، فلدى العرب من الطاقات، إذا ما عُبّئت في إطار جامع موحد، ما يجعل منهم أمّة ذات قوة عالمية كبرى.

لقد نبعت الحركة الصليبية في أوروبا، ونظّمت صفوفها وهاجرت إلى المشرق العربي غازية مستعمرة. ومثلها فعلت الصهيونية، حين وُلدت في أوروبا، ومنها استمدت أصولها، وفيها تجذّرت أفكارها وتهيّأ لها المُناخ للنمو والتعبئة، ثم للهجرة إلى المنطقة ذاتها غازية مستعمرة.

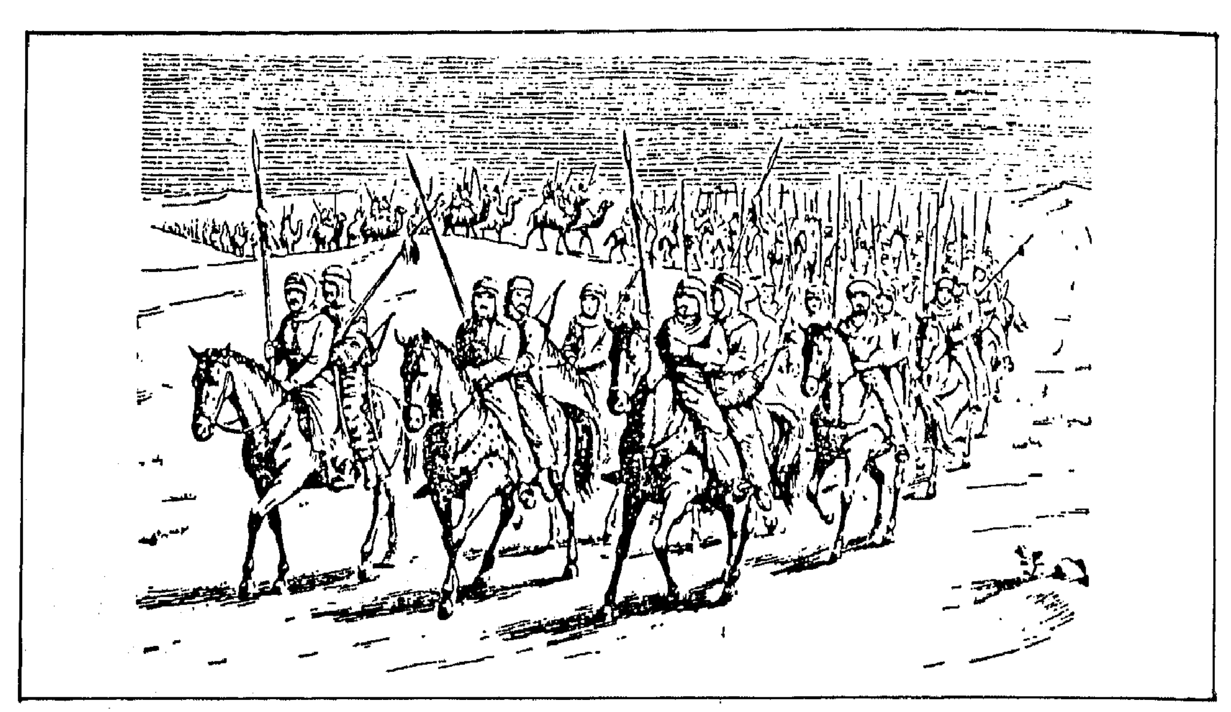
وإذا كان هذا التشابه في الجذور والأصول جاذباً للتفكير، فإن الظروف التي ساعدت الصليبية على النجاح في تحقيق أهدافها، ولو لمدة من الزمن، تكاد تكون هي نفسها التي وفرت للصهيونية عوامل نجاحها، مع التركيز على أوجه الخلاف ما بين الحركتين، وما بين القرون الوسطى والقرن العشرين.

ولأنّ الحركتين، على ما بينهما من بعد زمني، قد وُلدتا في بيئة واحدة، وتوجّهتا إلى مكان واحد، واشتركتا في الأغراض والوسائل، فهما تندرجان، حُكماً، في سياق تاريخي واحد. ذلك أن المنطقة العربية، والتي يُطلِق عليها الغرب أسماء متعددة، كانت منذ أكثر من عشرات القرون، ولا تزال، منطقة الصراع المصيري الرئيسي بين دول الشرق وحضاراته من ناحية، والأقوام والدول والحضارات الغازية من ناحية أخرى.

كان هذا هو مغزى غزوات الإسكندر المكدوني، والأباطرة الرومان، والحروب الصليبية، والاستعمار الأوروبي، والغزوة الصهيونية، وما بين ذلك وما بعده من غزوات واختراقات متنوعة ومتعددة، عسكرية واقتصادية وثقافية وغيرها[٣٦].

ولقد كانت أغراض الغزوات، التي امتدّت منذ الحروب الصليبية حتى الحروب الصهيونية، مجدولة، على تنوعها وتعدّدها واختلافها، حول محور واحد، هو تحطيم المحاولات الهادفة إلى إنشاء دولة عربية واحدة قوية في قلب منطقة الحضارة الإسلامية.

وهكذا يمكن القول، إذ نستقرىء التاريخ، إن ما يسمى أزمة الشرق الأوسط، لم تنشأ ابتداء من قضية فلسطين، وإنّما نشأت مع الحروب الصليبية، ونمت مع الاستعمار والأمبريالية،



□ طليعة للقوات العربية في القرن الثاني عشر أثناء التحرك.

وتعقدت مع الصهيونية. وذهبت، في كل مراحلها وأشكالها، وعلى تعدّد أدواتها وأساليبها، ذهبت إلى إلغاء الدولة العربية الواحدة، تحطيماً أو منعاً.

وليس غريباً أن يقودنا هذا الاستقراء للتاريخ، إلى القول إن الصهيونية، بالرغم من خصائصها المميّزة، ليست سوى الوجه المعاصر الأكثر عنصرية والأكثر عدوانية للاستعمار الغربي، كما كانت الصليبية، في عصرها منذ ثمانية قرون، ذلك الوجه المعبّر عن الاستعمار الغربي في القرون الوسطى.

إن بعض أوجه الشبه القائمة بين الصليبية والصهيونية، وبخاصة فيما يتعلق بالأهداف والوسائل والاستراتيجية، إضافة إلى الأحوال التي كان عليها المشرق العربي حين غزته الصليبية، والأحوال التي يعيشها الوطن العربي اليوم حين غزته الصهيونية، والنتيجة التي انتهت إليها الغزوة الصليبية، والأسباب العربية التي أدت إلى تلك النتيجة، إن ذلك كله يُغرينا بأن نُسقط ملامح الماضي على الحاضر، ونسبر العظات ونمتح العبر. وحينما نفعل ذلك، فإننا لا ننطلق من مقولة إن التاريخ يعيد نفسه، بالرغم من أن بعض أهل العلم والتاريخ «لم ينفوا أنه إذا وجدت الأسباب والظروف نفسها التي أدت إلى بروز ظاهرة من الظواهر أن تعود هذه الظاهرة ثانية»(٣٧).

وإذا ما ألقينا نظرة خاطفة على تاريخ العلاقات بين وطننا العربي والغرب، واستقرأنا أحداثه، حواراً وأخذاً وعطاء، وحرباً وسلماً، وتلاقح حضارات وتفاعل ثقافات، فإننا لا نستطيع إلّا أن نشعر بثقل الذكريات على وجداننا، ونحن في عصر تحرّر الشعوب وحقوق الإنسان وسقوط الاستعمار، ولا نستطيع إلّا أن ننظر إلى الوجود الصهيوني في وطننا على أنه امتداد للوجود الصليبي، بشكل ما من الأشكال، بالرغم ممّا يمكن أن نسوقه من اختلافات بين الوجودين، في الأصول والجذور والأسباب والوقائع والنتائج. إننا نذكر صلاح الدين الأوبي كثيراً، ونبحث عنه. ونحن نتطلّع إلى الوحدة العربية، ونصبو إلى لقاء سورية ومصر، ويُبَرِّح بنا الحزن إذ اقتنص الأعداء مصر وأخرجوها من مسيرة أمتها. ونحن نسمي أحد ألوية جيش التحرير الفلسطيني «لواء حطين». وما ندوتنا هذه سوى أحدث دليل على ما قلت. •

* * *

الهوامش

(١) د. امينة البيطار، «رؤية معاصرة للحملة الصليبية الأولى»، **مجلة الفكر الاستراتيجي العربي**، ع ٢، تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨١، ص ١٨٩.
(٢) **اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس**، ترجمة حسن حبيشي، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٨، ص ٧.
(٣) برنارد لويس، **العرب في التاريخ**، بيروت ١٩٥٤، ص ٢١٤، نقلاً عن: تيسير بن موسى، **نظرة عربية على غزوات الإفرنج**، الدار العربية للكتاب، طرابلس ليبيا، د.ت، ص ١٠٦.
(٤) ريجينا الشريف، **الصهيونية غير اليهودية، جذورها في التاريخ الغربي**، عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٥، ص (٨ ــ ١٠).
(٥) كما ورد في: Franz Kobler, Napoleon and the Jews, New York 1975, p. 55.
(٦) د. فايز صايغ، **الاستعمار الصهيوني في فلسطين**، مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت ١٩٦٥، ص ٣٠.
(٧) ر. سي. سميل، **فن الحرب عند الصليبيين**، ترجمة العميد محمد وليد الجلاد، دار طلاس، دمشق ١٩٨٥، ص ١٤٩.
(٨) حسن حبشي، **الحرب الصليبية الأولى**، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٥٨، ص ٨٥.
(٩) ر. سي. سميل: **فن الحرب عند الصليبيين**، مصدر سابق، ص ١٠٧.
(١٠) المصدر ذاته، ص ٢٤.
(١١) المصدر ذاته، ص ٢٥.
(١٢) Barker, Sir Ernest, *Legacy of Islam*, T. Arnold and A. Guillaume, Oxford 1931, p. 54.
نقلاً عن سميل، ص ٤٣.
(١٣) تيسير بن موسى، **نظرة عربية على غزوات الإفرنج**، الدار العربية للكتاب، طرابلس ليبيا، د.ت، ص ٨٩.
(١٤) المصدر نفسه، ص ١٠٨.
(١٥) فيليب حتي، نقلاً عن: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، **القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني**، بيروت ١٩٧٣، ص ٣٦. ولم يذكر ناشر الكتاب المرجع الذي اقتبس منه.
(١٦) تيودور هرتزل، **دولة اليهود**، نيويورك ١٩٠٤، ص ١٢، نقلاً عن: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، **العسكرية الصهيونية**، ج ٢، القاهرة ١٩٧٤، ص ٢٣.
(١٧) عبدالرحمن أبو عرفة، **الاستيطان التطبيق العملي للصهيونية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١، ص ٢.
(١٨) مثال على ذلك: طلب البيوريتانيون في إنكلترا من الحكومة، في العام ١٦٤٩ مساعدة اليهود على الاستيطان في فلسطين. وفي العام ١٧٩٨ أعدت الحكومة الفرنسية خطة سرية لإقامة كومنولث يهودي في فلسطين.
(١٩) كانت بروسيا والولايات المتحدة مصدر حماية لأعداد كبيرة من اليهود دخلوا فلسطين بطرائق غير شرعية. كما قامت الكنائس الأميركية بتقديم المساعدات إلى هؤلاء المهاجرين.
(٢٠) د. عبدالعزيز محمد عوض، **مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث**، ١٨٣١ ــ ١٩١٤، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٣، ص ٢٧، نقلاً عن:
Statistical Abstract of Palestine (1944-1945), p. 234, Department of statistical of the Jewish Agency for Palestine.
(٢١) وليم فهيم، **الهجرة اليهودية إلى إسرائيل**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، ص ١٤٦، وكذلك:
Alex Weingrad, *Israel*, Pall Mal Press, London 1965, p. 12.
(٢٢) د. أنيس صايغ، **المستعمرات الإسرائيلية الجديدة منذ عدوان ١٩٦٧**، مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت ١٩٦٩، ص ٩ ــ ١٤.
(٢٣) د. فايز صايغ، **الاستعمار الصهيوني في فلسطين**، مصدر سابق، ص ١٦.
(٢٤) مقالة أبا إيبان «الضفة الغربية وغزّة: الخطر من الداخل»، جريدة **سيتيزن** الكندية، ٢/٥/١٩٨٧.
(٢٥) خالد عايد، **الاستعمار الاستيطاني للمناطق العربية المحتلة خلال عهد الليكود ١٩٧٥ ــ ١٩٨٤**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، نيقوسيا ١٩٨٦، ص ٣.
(٢٦) Amin Maluf, *The Crusades Thraugh Arab Eyes*, Al Saqi Books, London 1984.
نقلاً عن د. رؤوف عباس، مجلة **المستقبل العربي**، ع ٨، بيروت ٨/١٩٨٥، ص ١٦٧.
(٢٧) سعيد عبدالفتاح عاشور، **الحركة الصليبية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٣، ج ١، ص ٢٤٣ ــ ٢٤٤.
(٢٨) **اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس**، مصدر سابق، ص ١١٩ ــ ١٢٠.

(٢٩) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، بيروت ١٩٦٦، ج ١، ص ٢٨٣ ــ ٢٨٤.
(٣٠) أبو الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، حيدر آباد ١٣٥٨هـ، ج ٩، ص ١٠٥.
(٣١) تيسير بن موسى، **نظرة عربية على غزوات الإفرنج**، مصدر سابق، ص ٧٩.
(٣٢) روجيه غارودي، **أحلام الصهيونية وأضاليلها**، كتاب نشر بحلقات في جريدة «السفير» اللبنانية، ١٩٨٣/٣/١٤.
(٣٣) Benny Marris, *The Origins of the Palestinion Refugee Problem*, Cambridge University Press, 1987.
(٣٤) J. Prawer, *The World of the Crusades*, New York and Jerusalem, 1972.
(٣٥) أمين معلوف، مصدر سابق، د. رؤوف عباس، **مجلة المستقبل العربي**، ع ٨، بيروت ١٩٨٥/٨، ص ١٦٧.
(٣٦) ورقة د. أنور عبدالملك، في ندوة «**الصهيونية العنصرية**»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٧، ج ٢، ص ١٥٥.
(٣٧) د. أمينة البيطار، مجلة **الفكر الاستراتيجي العربي**، مصدر سابق، ص ١٨١.



برقية شكر وتقدير للرئيس حافظ الأسد من ندوة حطين

● تلقى السيد الرئيس حافظ الأسد برقية تحية وتقدير وشكر من المؤرخين العرب المشاركين في ندوة حطين، التي انعقدت في دمشق رفعتها باسمهم الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة رئيسة الندوة.

وهذا نص البرقية:

إن المؤرخين والباحثين العرب المجتمعين في ندوة حطين التاريخية الكبرى، يرفعون إلى سيادتكم بالغ تقديرهم وخالص شكرهم، على مبادرتكم في إقامة هذه الندوة على أرض الشام، حيث جرت المعركة الفاصلة بقيادة البطل صلاح الدين الأيوبي، وحيث كانت دمشق منطلق الزحف والتحرير، وكانت العامل الحاسم في وحدة المشرق العربي، التي أدت إلى انتصار العرب على الفرنجة الصليبيين، انتصاراً مجيداً خالداً في تاريخ هذه البقعة المباركة من الأرض.

إننا يا سيادة الرئيس ندرك الشبه والصلة بين غزو الفرنجة للمشرق العربي وعدوان إسرائيل على البلاد العربية، ونعرف من الوثائق التاريخية التي بين أيدينا ومن الأبحاث التي قدمت في ندوتنا، أن غاية الصليبيين والصهيونيين واحدة وهي الاستعمار والاستيطان والاغتصاب والقتل والتشريد، ولكننا نثق أن تحرير الأرض واسترداد الحقوق في المعركة مع إسرائيل سيكون مماثلاً للتحرير واسترداد بيت المقدس في المعركة مع الصليبيين، ونثق أنكم في قيادتكم الحكيمة والشجاعة ستأخذون بالشعب العربي في طريق النصر، كما أخذ صلاح الدين المشرق العربي في طريق النصر، وأن الوحدة العربية التي تعملون لها وتبذلون في سبيلها ستكون أساس هذا النصر، ما دامت الوحدة هي حجر الزاوية في كل كفاح عربي مظفر.

وما من شك أن الأرض العربية التي أعطت أمتنا صلاح الدين الأيوبي، هي نفسها التي أعطت هذه الأمة حافظ الأسد، وأن البطولة في غدنا ستكون على مستوى البطولة في أمسنا، وأنكم القائد المرتجى للمعركة الحاسمة والمظفرة التي نخوضها مع عدوتنا إسرائيل في الزمان والمكان الملائمين.

دمتم ذخراً للعرب وأملاً والله يحفظكم ويأخذ بيدكم إلى ما فيه نصرة الأمة العربية على أعدائها.

وقائع معركة حطين

بقلم: د. سهيل زكار

من المسلّم به أن الحرب هي في البداية قرار سياسي وكذلك في النهاية هي استثمار سياسي ودبلوماسي وعسكري واقتصادي، وتأتي مسائل استيعاب نتائج الموقعة الحربية من نصر أو هزيمة على رأس المشاكل التي تثيرها الحروب، والقيادة السياسية هي وحدها التي تقع على عاتقها مسؤولية استثمار النصر العسكري ضمن الخطط العامة لقرار الحرب، وضمن المعطيات الجديدة بحيث يتحول النصر إلى إنجاز له صفة الديمومة أو القدرة على الاستمرار، لهذا لا بد من دراسة للحالة السياسية داخل إمارات الصليبيين بشكل عام ومملكة القدس بشكل خاص مع دراسة لدولة صلاح الدين والتركيز على الجوانب التي أثر بها الوضع السياسي والإدارة السياسية على المعركة.



نضيف إلى ما سبق هناك لا بد من استيعاب لقضايا الترابط والتنسيق بين القيادات السياسية والقيادات العسكرية ثم تأمين المساندة الشعبية للحروب التي تخوضها الجيوش مع الدعم الاقتصادي والأمني الداخلي، ذلك أن أي جيش يدخل الحرب بلا ظهير شعبي لا بد أن يخسر، ويسهل هذا علينا فهم ما حدث في حطين، فالصليبيون كانوا غرباء عن الشام وأهله، عبارة عن أعضاء مؤسسة عسكرية بلا ظهير شعبي، يعتمدون اقتصادياً ومالياً على ما وراء البحار، وعلى الرغم من السمة العسكرية البحتة للمؤسسة الصليبية فإن الترابط والتنسيق بين السياسيين والعسكريين والاقتصاديين كان منعدماً.

فقبل حطين بأمد كانت مملكة القدس الصليبية تعيش صراعات على السلطة كان أبرز أطرافها ريموند الثالث كونت طرابلس وزعماء الداوية والاسبتارية، وبسبب هذا تهاون ريموند مع صلاح الدين، وتسلم ملك جديد اسمه غوى لعرش القدس، وحاول غوى احتلال طبرية التي كانت من أملاك زوجة ريموند، فتقرب هذا من صلاح الدين. واستغل صلاح الدين هذه الأزمة فبعث بسرية استطلاع قادها ابنه الأفضل سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، وتمكنت هذه السرية من الوصول إلى أراضي الناصرة، وعندما حاولت قوة من الفرسان الصليبيين من الداوية التصدي لها أبادتها بشكل كامل، وعادت إلى صلاح الدين تحمل إليه من الأخبار ما شجعه على قرار التوجه

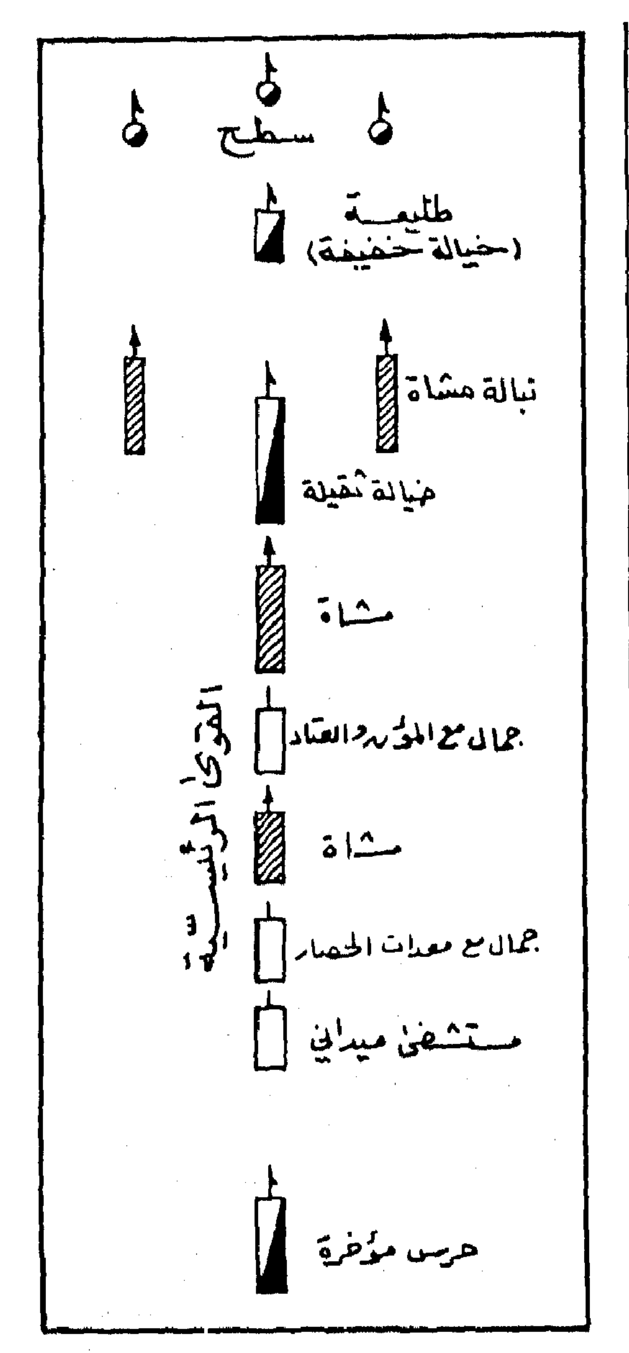
في حملته الكبرى، حملة حطين.

وإثر وضوح التهديدات الإسلامية جرى صلح شكلي بين قوى مملكة القدس، لكن هذا الصلح لم يُزل عشية حطين العداوات الشخصية والأحقاد، مما كان له أبعاد استراتيجية عميقة استغلها صلاح الدين في الحكم والمناورة السياسية والعسكرية وليس من الغلو بمكان القول بأن في هذا وحده يكمن مقياس النجاح في القتال بين جيشين كانا على الأقل متكافئين، ثم إن ما قام به من ترتيبات عملية أثناء القتال، وبراعة في استخدامه لقواته، خاصة في اليوم الأخير للمعركة، يقابله إخفاق الفرنجة في تنفيذ خططهم، وإن هذا كله ترابط بانسجام مع خطته العامة وجاء نتيجة لمناورته في الأيام التي سبقت الملحمة الفاصلة، وهو يدل على أنه كان لدى صلاح الدين عبقرية عسكرية لا تقل عن عبقريته السياسية والإدارية، ثم علينا أن نضيف إلى هذا كله أن التكتيك الذي أظهره المسلمون في المعركة هو على درجة عالية من الأهمية، ويبين بوضوح بعض أسس فن الحرب في الشرق الإسلامي في القرن الثاني عشر.

ويروى أن صلاح الدين قد أصيب بمرض عضال سنة ١١٨٥م وأنه عندما وقف بين الحياة والموت، رأى أن مصير الصليبيين معلق بالميزان، وتصور ببصيرته أن موته كان معناه بلا شك زوال الوحدة من بين صفوف المسلمين والعودة إلى حياة الفوضى وتبديد الطاقات مما سيمنح فرصة حياة جديدة للصليبيين في بلاد الشام.

ويروى أن صلاح الدين امتلأ بشعور عميق أن الله تعالى قد أنذره حتى يكف عن متابعة توسيع ملكه على حساب المسلمين، ذلك أن واجبه هو طرد الصليبيين المحتلين لذلك اتخذ قراره بإعلان الجهاد، وصمم على الزحف ضد القدس سنة ١١٨٧م بعدما ازدادت وعود أرناط حاكم الكرك.

وفي ربيع سنة ١١٨٧م دعا صلاح الدين إلى الجهاد وأخذت القوات تتقاطر نحو دمشق، وبعدما نجحت سرية ابنه الأفضل أوعز إليه في حلب لعقد هدنة مع فرنجة إنطاكية حتى تتمكن عساكر حلب من المشاركة في الحملة المقررة وقد فعل صلاح الدين ذلك على أرضية الخلافات



مخطط ترتيب المسير للقوات العربية في القرن العاشر.

الحادة التي كانت قائمة آنذاك بين القدس وإنطاكية.

وقام صلاح الدين بعرض جيوشه عند تل عشترا في أحواز بلدة لوى على مقربة من حدود الأراضي المقدسة، شرقي بحيرة طبرية، ومع حلول الأسبوع الثالث من حزيران وصل جميع الجند المسلم، وفي ٢٤ من الشهر نفسه عقد صلاح مجلساً حربياً لوضع الشكل التنفيذي

للخطط المرسومة، وصدرت الأوامر بالزحف ضد مملكة القدس، ويروى أن عدد القوات التي مرت أمام عارض جيوش صلاح الدين كان حوالي العشرين ألفاً من العساكر الديوانية والمتطوعة، ويقدر أن الذي تجمع للفرنجة هو العدد نفسه عند المقل، والضعف عند كثير من المؤرخين المنصفين، هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أنه حتى لو قبلنا بأن تعداد الفرنجة كان عشرين ألفاً فإن الطاقة القتالية لهذه القوات كانت لا تقل عن ثلاثة أضعاف قوات صلاح الدين نظراً لنوعية التسليح.

وأمر صلاح الدين قواته بالشروع بالزحف وقت صلاة الجمعة من يوم ٢٦ حزيران، ساعة وقوف الخطباء على المنابر في أنحاء الأرض وهم يتوجهون بالدعاء إلى الله تعالى بنصر المجاهدين في سبيله وإعزاز دينه، وبعد ما عبرت القوات الإسلامية الأردن جنوب بحيرة طبرية عسكرت هناك، وهكذا بدأ الهجوم فعلياً.

وفي هذه الأثناء كان الفرنجة قد حشدوا كل ما توفر لديهم من قوى، وأخرجوا صليب الصلبوت، ووصلتهم مساعدات مالية من أوروبا لا سيما من انكلترا، وتوجه ريموند نحو طبرية لتحصينها، وترك زوجته فيها ونصحها بمغادرة المدينة إذا ما هاجمها صلاح الدين وعجزت عن الدفاع عنها، ويشير قبولها بالبقاء في طبرية لا إلى شجاعتها فحسب ولكن لشدة تعصبها وحماسها الصليبي، وقد أظهر الصليبيون فيما بعد مثل هذا التعصب والحماس حين هبوا للدفاع عنها، فقادهم ذلك إلى حتفهم، ولا شك أن صلاح الدين كان مدركاً لهذا كله وقد أحسن استغلاله ببراعة متناهية.

واجتمع الجيش الصليبي العملاق في بلدة الصورية، وهو وإن ملك التفوق العسكري على الجيش المسلم كان بلا ظهير شعبي أو احتياط محلي، فقد ظل الصليبيون على الرغم من المدن الطويلة التي مرت على وجودهم في المشرق مجرد أفراد مؤسسة عسكرية غريبة ومرفوضة من جميع النواحي تعيش داخل قلاع حصينة كأجسام غير مقبولة وملفوظة.

وبعد ما حشد الفرنجة جيوشهم اللجبة في الفورية برزت أمام الملك غوى وأركانه مشكلة التكتيك، والاستراتيجية: كيف يمكن استخدام هذه القوات بشكل نافع ومؤثر، ويبدو أن غوى جمع هذه القوات في مكان واحد ولم يوزعها على القلاع والمدن لأنه شعر أن الصراع المقبل حاسم، صراع بين دولتين وحاكمين كل طرف منهما يمثل دين وحضارة وشعوب وأهداف ومطامع وقضايا.

ووقع الاختيار على منطقة الصفورية لتكون قاعدة للصليبيين لما تمتعت به من مزايا، فالصفورية لم تكن بعيدة عن الناصرة وبجوارها نبع ماء غني يكفي الجيش كله حتى في فصل الصيف وكانت المؤن متوفرة في القرى المجاورة.

وعلى بعد حوالي خمسة عشر ميلاً جثت مدينة طبرية على الشاطىء الغربي للبحيرة التي حملت اسمها، وذلك على مستوى ستمائة قدم تحت سطح البحر، وترتفع الأرض خلف المدينة وتمتد جنوباً منها بشكل حاد إلى مستوى ألف قدم فوق سطح البحر، وتمتد جنوباً محاذية للبحرية وتشكل شرقاً صخرياً له ارتفاعات متساوية تقريباً، ويبدأ هذا الشرف في مقابلة المدينة مباشرة بالانحراف باتجاه الشمال الغربي ثم باتجاه الغرب، وعلى مسافة خمسة أميال إلى الغرب هناك تل مزدوج القمة ارتفاعه فوق ألف قدم، ويعرف باسم (قرني حطين) وهو مكان احتفالات طقوسية موسمية (عيدالنبي شعيب) وبمتابعة التوجه غرباً يصل الشرف إلى أقصى ارتفاعه وهو سبعمائة وألف من الأقدام. وذلك عند جبل ترعان على بعد خمسة أميال، وتقع قرية حطين على مسافة قصيرة إلى الشمال مباشرة من (قرني حطين) في الوادي، ويمكن أن يرى ارتفاع هذه الهضاب من الشرق والشمال أي من طبرية وحطين، حيث أنها لا تبدو هكذا من الجنوب والغرب، ومرد هذا جزئياً أن الشرق يرتفع من شواطىء بحيرة طبرية من مستوى ستمائة وعشرين قدماً تحت مستوى سطح البحر وجزئياً أن الأرض إلى جهة الجنوب والغرب عبارة عن هضبة بخطوط ارتفاع متساوية تتراوح من ثمانمائة إلى ثمانمائة وخمسين قدماً، وهي مليئة بصخور كبيرة، ومقطعة بالوديان التي قد تنتهي إلى الأرض المنخفضة شمال شرقي صفورية أو جنوب شرقي وادي سهل الأحما (كفر

الأحما)(*).

وتشير خرائط ما قبل الحرب العالمية الثانية إلى وجود ممرين كانا يعبران التل، وسار أحد الطريقين من الشرق مباشرة من منطقة في أهواز صفورية وعبر التل إلى الجنوب من طبرية مباشرة، وكان الطريق الثاني ينحرف شمالاً في منتصف الطريق بين صفورية وطبرية ويماشي في الغرب حواف قرني حطين، ويستمر باتجاه الشمال منحدراً إلى قرية حطين، ويتابع انحداره هابطاً باتجاه الشرق إلى شواطىء بحيرة طبرية، وعلى الرغم من أن طرق العصر الحديث يمكن ألا تتماشى مع طرق القرن الثاني عشر، نجد أن الأوصاف المعاصرة للصليبيين، والروايات التي شرحت أوصاف مسيرة جيوشهم من صفورية تبين أنهم ساروا أولاً عبر طريق مباشرة، ساروا باتجاه الشرق يريدون طبرية، ثم انحرفوا في منتصف الطريق شمالاً نحو ممر قريب من القرنين، وواضح أن في هذا مطابقة تامة للطرق قبيل الاستعمار الإنكليزي لفلسطين.

ويعبر هذان الطريقان بين صفورية وتل قرني حطين مع ما يجاوره من الأراضي المرتفعة حوالي عشرة أميال من الأراضي الصخرية التي تأخذ شكل هضبة، وهي منطقة بلا ماء، أو على الأقل بلا نبع غزير أو جدول فيه مياه كافية لجيش كبير أثناء زحفه في أشهر الصيف الحارة، وكان هناك ماء وفير وراء هذه السلسلة من الكتل الصخرية: في الشمال من حطين أو في الشرق حذاء البحيرة، وقرب بلدة طبرية، وكان هناك ماء إلى الجنوب في وادي سهل (الأحما)، لكن على الطريق المباشر ما بين الكتلة الكبيرة غربي طبرية ومعسكر الصليبيين في صفورية لم يتوفر منه شيء أبداً.

ولا نعرف السبب الذي دفع الصليبيين إلى البقاء في الصفورية وإحجامهم عن منع صلاح الدين من عبور الأردن والزحف نحو طبرية، لعل مرد ذلك إلى خلاف بالرأي بين قادتهم، وأنهم كانوا في الصفورية متأكدين من توفر المياه لديهم والمؤن ولقربهم من قلاعهم وبلدانهم المسورة، وكان عليهم انتظار هجوم صلاح الدين فهم كانوا على ثقة بأنفسهم واطمئنان فقد حشدوا أكبر جيش حشده الصليبيون في فلسطين منذ حصار القدس للمرة الأولى.

ولم تكن الحرب بالنسبة لصلاح الدين مغامرة أو هواية، بل إن حملته كانت قرارا استراتيجياً له أبعاده السياسية والعسكرية التكتيكية وتم اتخاذ قرار صلاح الدين بعد دراسة شاملة واستطلاع إخباري وميداني واسع، وكان صلاح الدين يدرك بعد عبوره للأردن تمام الإدراك أحوال الفرنجة الداخلية، ويعرف سلامة أوضاعهم وطاقاتهم حيث هم، لذلك كان عليه اقتلاعهم من قاعدتهم وجذبهم نحوه، واستدراجهم إلى شراك نصبها لهم، وعبأ صلاح الدين قواته على شكل قاد فيه شخصياً القلب، وقاد تقي الدين عمر صاحب حماه الميمنة والقائد مظفر الدين الميسرة، وحرك صلاح الدين قواته أولاً إلى منطقة (كفرسبت) وجهد في سبيل تحريك الصليبيين واقتلاعهم عن طريق المناوشات، لكن عبثاً حاول، وأخفقت هذه الطرائق في إثارتهم، وفي هذا دليل واضح على أن غالبية الفرنجة ظلوا حتى ذلك الوقت متحلين بالصبر والحكمة، متمسكين بقرارهم في الاستفادة من وضعهم المناسب، وهنا قرر صلاح الدين أن يغامر بكل شيء، إنما بشكل مدروس وفي غاية البراعة، على أنه والحق يقال كان تحركاً خطراً أيضاً، لقد قرر مهاجمة مدينة طبرية.

لقد عرف صلاح الدين بوجود زوجة ريموند في طبرية، وكان يعرف أخلاق فرسان الصليبيين وسهولة إثارة روح الفروسية لديهم، وكان هؤلاء إذا ما اندفعوا في اتجاه أصروا على اندفاعهم ولو كان في ذلك الموت الأكيد.

وقام صلاح الدين بمغامرته المدروسة فهاجم طبرية وأثار الفرنجة وجعلهم يغامرون لعبور الطريق بين صفورية وطبرية، وهو طريق بلا ماء ما إن يسلك لا مخرج منه، ففي يوم الثلاثاء الثاني من تموز وضع صلاح الدين الجزء الأساسي من قواته فوق المرتفعات تحت الشرف الصخري إلى الغرب من طبرية حيث تمكنت من إغلاق الطريق المباشر إلى المدينة وظلت تتحكم بالممرات والقدرة على تأمين المياة لأنفسها، كما كان بإمكانها التحكم بطريق الوصول عبر الممر الآخر، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذا الجيش قد تمركز في مكان كانت الهزيمة فيه

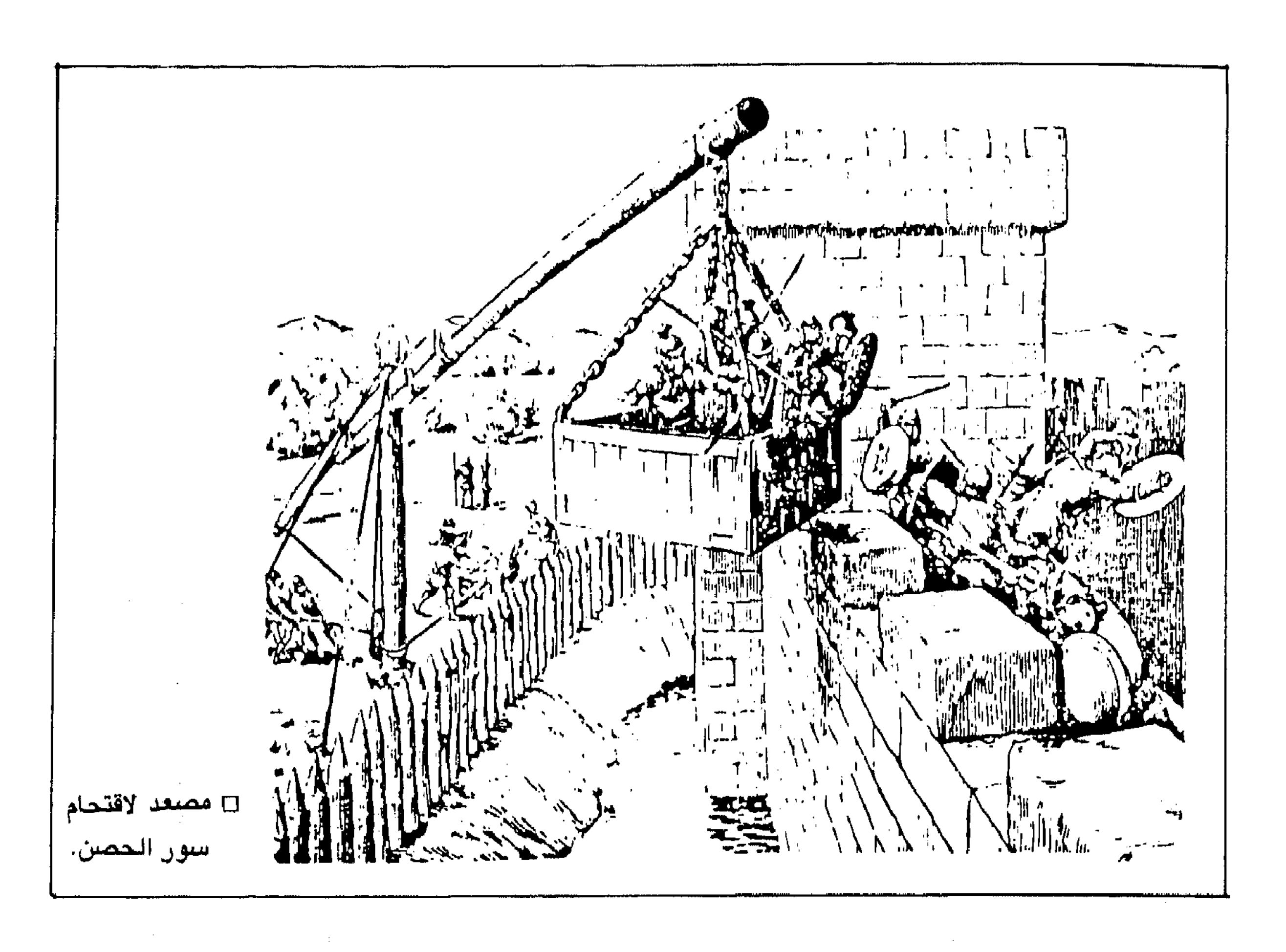
بالنسبة له أبسط معانيها كارثة الفناء والموت غرقاً، فوجود البحيرة ونهر الأردن في خلفه كان سيجعل الانسحاب في غاية الصعوبة إن لم يكن مستحيلاً في ظروف الفرار بعد القتال، ومع هذا كله نجد أن صلاح الدين قام بنفسه بالهبوط على رأس قطعة صغيرة من قواته على طبرية، ونجح بسرعة في الاستيلاء على المدينة، ولم يستغرق الأمر أكثر من ساعة من الزمن، لكن حصن المدينة صمد ولم يسقط له، وهناك اعتصمت السيدة النبيلة مع حاميتها الصغيرة، وقامت هذه السيدة على الفور بتدبيج رسالة انفذتها إلى الجيش الصليبي المعسكر في صفورية، تصف سقوط طبرية وما نزل بها وبمن معها من ضيق شديد وخطر محدق.

وقيل لقد استطاعت أميرة طرابلس وطبرية بطريقة ما تأمين رسول تسرب بالرسالة حتى أوصلها إلى المعسكر الصليبي مساء يوم الخميس، ويتساءل المرء هل تسرب الرسول ببراعته الشخصية، أم أن أعين رجالات صلاح الدين شاهدته، لكن تركته يذهب، مثلما تركت قلعة طبرية بيد سيدتها، فهذا كان موجوداً في أصل الخطة؟ المهم أن الرسول أخبر الصليبيين أنهم ما لم يهبوا بكل سرعة وحماس إلى تقديم المساعدات والنجدات لطبرية فإن المدينة سيتم فقدانها إلى الأبد، وأنه غادرها والمسلمون يقومون بأعمال النهب والإحراق في أجزاء المدينة.

لقد خلقت هذه الرسالة أزمة استراتيجية للصليبيين، فهم يرغبون الآن رغبة شديدة وقد طال بهم القعود ـــ بالتحرك والإقدام على تخليص طبرية ولإنقاذ السيدة المحاصرة وتشعبت آراء القادة حول هذا الموضوع، وتوحدت عواطف الفرسان، وكان رأي جيرالد مقدم الداوية وأرناط صاحب الكرك مع غالبية الفرسان بأن عليهم التحرك في الصباح الباكر وقالوا أن الشرف ومثل الفروسية يتطلبان، لا بل يفرضان ذلك، قالوا ذلك تحركهم عواطفهم وغرائزهم، مع أن مثل هذا التحرك كان من أشد الأعمال حماقة، وفي الطريق إلى طبرية كان هناك عشرة أميال من الأراضي الوعرة الجافة الصعبة المجاز، كما كان أيضاً جيش صلاح الدين المتمركز تحت الشرف والمتحكم بالمرات والمغلق لها جميعاً، لقد كان ـــ في الحقيقة ـــ شرك منصوب لهم، لكن (الطعم) كان مغرياً لأصحاب العواطف الجياشة.

وكان الملك غوى قد عقد مجلساً حربياً لمناقشة الأمر حضره جميع البارونات ورجال الأكليروس، وخلال المناقشات حذر ريموند صاحب طرابلس من التوجه إلى طبرية واقترح التراجع نحو عكا واستدراج صلاح الدين نحوها، وبعد أخذ ورد، على الرغم من موقف أرناط وجيرالد رفض المجلس في حوالي منتصف الليل وانصرف البارونات إلى خيمهم وهم على ثقة تامة أن الأوامر لن تصدر للجيش بالتحرك، وسيبقى تلك الليلة في معسكره حتى يجد جديد فيجري بحثه، وجلس الملك بعد ذلك في سرادقه يروح عن نفسه إلى ساعة متأخرة من الليل، ودخل عليه في تلك الأثناء جيرالد مقدم الداوية، وكان عظيم التأثير عليه، وهو الذي جعل منه ملكاً للقدس، ولامه جيرالد على موقفه المؤيد لرأي ريموند وقال مخاطباً إياه: «هل تصدق ما قاله هذا الخائن، وتؤمن بما قدمه من مشورة وآراء، إنه عار عليك أصلاً أن تستمع إليه، وأن يقوم بتقديم النصيحة لك، وأنه أيضاً لعار عليك عظيم، كما هو مهين بالنسبة لك ـــ وأنت الذي توجت ملكاً منذ زمن غير بعيد، واستطعت على الرغم من ذلك حشد جيش كبير لم يجتمع مثله لملك قبلك في هذه الأرض ـــ أن تتراخى وتتهاون، وتدع مدينة هي على بعد ستة أميال منك، نفقدها لعدونا، إن هذه أولى المهام التي ألقيت على عاتقك، وأول الواجبات التي عهد بها إليك منذ جرى تتويجك واعلم جيداً، قبل أن ترى، أن الداوية سيجعلون أقبيتهم البيضاء ويبيعونها أو يرهنونها ما لم ينتقم من المسلمين ما حل بي وبهم من عار وإذلال (يشير إلى واقعة الناصرة) امض واعلن في الجيش كله، أن على كل رجل حمل سلاحه الانضمام إلى جماعته للانضواء تحت لواء الصليب المقدس» والزحف نحو طبرية.

وقضت قوانين الفرنجة وتقاليدهم بعدم رفض أو تعديل مثل هذه الأوامر بعد صدورها، وكانت ساعة إصدار الأوامر أسوأ ساعات الليل، فيها ترتخي الأجساد وتهبط المعنويات وتكثر الأحلام،



□ مصعد لاقتحام سور الحصن.

ويصف مؤرخ فرنجي يعتقد أنه كان في ذلك الجيش حالة الانزعاج بين الجند وأن بعضهم أصر على معرفة السبب في اتخاذ هذا القرار، لكن الملك رفض إعطاء التفسير وأصر على الزحف، فأطاعوه مكرهين والأسى يملأ قلوبهم ولربما ـــ حسب عبارته ـــ كان خيراً لهم وللمسيحية لو أنهم رفضوا إطاعة أوامره».

ولقد حفظ لنا أدب حطين قصصاً كثيرة تصور الحالة النفسية المتدهورة للصليبيين في تلك الساعة من ذلك أن واحداً من مشاة المؤخرة ألقى القبض على امرأة مسلمة عجوز فأعلن أنها كانت ساحرة وظفها صلاح الدين وبعث بها لتلقي بسحرها على الجيش الصليبي، وانتشر الخبر، وهاج الجيش وماج، واضطرب الحال، وفقد الجميع السيطرة على عقولهم، وجرى إيقاد نار عظيمة لإحراقها، وقيل أنها ألقيت في النار فلم تؤثر بها، وزاد الاضطراب والهياج حتى أقدم أخيراً أحد الدجالة فاجتث رأسها ببلطة هولندية كانت بيديه، وتناثر دماغها في كل مكان، وأصاب دمها الكثيرين، حتى قيل أن الرجال والخيول على السواء تأثروا بسحرها، ولقد رفضت الخيول ملامسة الماء طوال النهار والليل قبل أن يتحرك الجيش، ثم تخلت عن خيالتها في اليوم التالي:

لقد كان الجيش الصليبي مؤلفاً من ثلاثة أقسام، ففي المقدمة سار ريموند على أسس مرتبة، وبسبب أن الزحف كان في أراضيه، ووقف الملك في القلب ومع رجاله وفرسانه وصليب الصلبوت محمولاً من قبل سقفي عكا واللد وبقي في المؤخرة «بالين صاحب إبلين» ومعه فرسان الداوية.

في فجر يوم الجمعة الثالث من تموز بدأ زحف القوات الصليبية، وكان معسكرهم مرصوداً من قبل المسلمين، ولذلك نقلت الأخبار بسرعة إلى صلاح الدين، الذي ما إن سمع بذلك حتى سر سروراً كبيراً ولسان حاله يقول: «جاءنا من نريد ونحن أولو بأس شديد، وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع، ولا عن فتحه وازع» وتخلى صلاح الدين عن الأشراف على تحرير قلعة طبرية والتحق بقواته تحت الشرف الكبير.

وما ان أخذ الصليبيون الطريق حتى شرع المسلمون في مناوشتهم من جميع الجوانب تمهيداً لفصل الرجالة عن الفرسان، ومضى الصباح وارتفعت الشمس نحو قبة السماء واشتد الحر وازداد العطش وعظم ولم يكن هنالك ماء وواضح أن التحرك المفاجيء للجيش، وصدور الأوامر إليه بعيد منتصف الليل، واحتمال أن قادة الصليبيين قد تخيلوا أنهم سيكونون في طبرية مع إشراقة الصباح. قد جعل الفرنجة لا يحملون معهم الماء ولا حتى المؤن، ولعلهم لم يكن لديهم أوعية لحفظ الماء فنقله أثناء معسكرتهم في الصفورية، ومهما يكن السبب لقد تبرهن أن معركة حطين كانت بالفعل معركة الماء.

وزحف الصليبيون نحو طبرية في ظل ظروف صعبة جداً، ونبال المسلمين تصيبهم وتعقر خيولهم، ووصلوا في حوالي منتصف النهار إلى قرية لوبية وهي في وسط الطريق إلى طبرية، وهنا ازداد ضغط كتائب الإسلام عليهم من كل ناحية وبدأ المسلمون في تنفيذ المرحلة الحاسمة من خطتهم في فصل الفرسان عن الرجالة، وكان فرسان الداوية يسيرون في مؤخرة الجيش، وضغط المسلمون ضغطاً هائلاً عليهم، وصل إلى حد أرغم فيه الملك غوى على إصدار أوامره بالتوقف ونصب الخيم وإقامة معسكر، وكان هذا قراراً انتحارياً وغلطة قاتلة، وباتت المسألة الآن ليست وقفاً على قرب المسافة من الماء، أو بعدها، بل على حقيقة أنه لم يعد بإمكان الفرنجة العودة إلى الصفورية ولا التقدم نحو الأمام إلا بصورة انتحارية لأنهم باتوا محاصرين داخل طوق شديد متين، وكان المكوث في المعسكر أمراً ليس ممكناً لانعدام الماء والطعام ولأنه ليس هناك أمل بنجدات، لأن الملك غوى لم يدع وراءه أي نوع من الاحتياط، فحتى حاميات القلاع كان قد ساقها معه وترك كل مكان بدون جند.

وتشير بعض الروايات إلى أن غوى قصد من إقامة معسكره في لوبية جمع شتات قواته والقيام بهجوم يوصله إلى الماء، وتعذر الهجوم وهنا اقترح عليه الانعطاف نحو التلال المودية إلى قرية حطين لقضاء الليل هناك حيث الماء وإمكانية الدفاع.

ويلاحظ المتتبع لتاريخ المعارك في العصور الإسلامية والعصور الوسطى الأوروبية أن إصدار بعض الأوامر في الساعات الحرجة بتبديل الجيش لمواقعه القتالية كانت تقود إلى الفوضى وتؤدي إلى الهزيمة، وبالفعل ما ان غير الملك اتجاهه حتى فقد جيشه نظامه وتماسكه مما شجع المسلمين على زيادة هجماتهم، ومن جديد عندما وصل الملك إلى قمة حطين توقف ونصب سرادقه.

وحل ظلام وبات الآن على اللاتين مواجهة ليلة ليلاء وهم تحت السلاح دونما أمل بالماء أو بالنجاة، وبلغ الإنهاك الجسدي لديهم حداً عالياً، وباتت البشائر واضحة تشير إلى أن ساعة دمار المؤسسة العسكرية اللاتينية باتت قاب قوسين أو أدنى.

لقد انتصرت العقيدة القتالية لدى المسلمين بعد هزائم عديدة مضت، انتصرت لأن تطبيقها جرى بشكل نموذجي، فقد زحف الصليبيون من صفورية يشكلون جيشاً عملاقاً، تخيلوا أنه لن يقهر، وأن ما من قوة على وجه الأرض يمكنها أن تتصدى له أو تعترض سبيله سار به قادته على الطريق المباشر نحو طبرية وهم يخيل إليهم الوصول إليها في سويعات اعتماداً على عددهم وعدتهم وشجاعتهم وتعصبهم، لكن فاتهم أن الشجاعة بلا عقل حماقة، وأن العقل قادر على قهر جميع القوى، فقد ساروا عبر أرض لم يقع اختيارهم عليها، بل استدرجوا إليها وأرغموا على التوجه حيث دمارهم، حين غرقوا في بحر من الفوضى والتعب وصحيح أنهم صاروا على مشارف طبرية، لكن كان هناك القوات الأساسية من جيوش الإسلام واقفة تنتظرهم فقط لتجهز عليهم.

لم يلمس الصليبيون في ليلتهم مع خيولهم الماء، وبات المسلمون حولهم في بحبوحة وفي راحة وتمكن حيث كانت قرب وروايا الماء تنقل إليهم على ظهور الجمال من البحيرة باستمرار، وتبعاً لبعض الرواة أمر صلاح بصب بعض الماء على الأرض على مرأى من الصليبيين ومسمع ليزيد عذابهم، وأحاط المسلمون بالصليبيين من كافة الجهات وكانوا قريبين منهم إلى درجة أن سنوراً لم يكن بمقدوره النجاة من داخل المعسكر

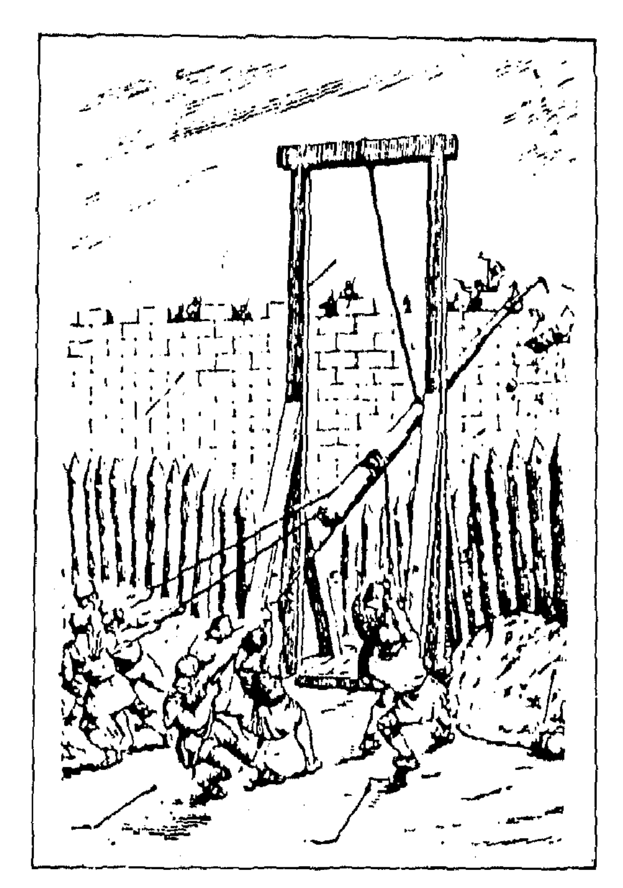
الصليبي، ولم تتوقف الهجمات وإطلاق النشاب والمواد المحرقة، وأصغى الصليبيون طوال الليل إلى أصوات «الله أكبر، لا إله إلا الله»، ولذلك لم يعرفوا مذاق الراحة وغرقت في ظلمة الليل آمالهم كلها، وزالت معها شجاعتهم، أو لنقل ما بقي لديهم من شجاعة.

كان المسلمون حتى الساعة يخشون الصليبيين ويهابون اللقاء بهم، لكن قويت الآن قلوبهم فبفضل قيادة صلاح الدين لهم وهم داخل الشرك الذي نصبوه لهم، وحقاً صنع العماد الأصفهاني الكاتب، وكان من شهود المعركة، حين وصف تلك الليلة بقوله: «وحجز بينهم وبين الماء، واليوم قيظ، وللقوم غيظ، وحجز الليل بين الفريقين، وحجرت الخيل على الطريقين، وهيئت وركات النيران، وهنئت درجات الجنان، وانتظر مالك، واستبشر رضوان، فهي ليلة القدر خير من ألف شهر ــ تنزل فيها الملائكة والروح، وفي سحرها نشر الظفر يفوح، وفي صباحها الفتوح، فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة، فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم: «فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة»، وبتنا والجنة معروضة، والسنة مفروضة، والكوثر واقفة سقاته، والخلد قاطفة جناته، والسلسبيل واضح سبيله والإقبال ظاهر قبيله، والظهور قائم دليله، والله ناصر الإسلام وبديله».

وسهر صلاح الدين ليلته بطولها وهو يشرف على ترتيبات المعركة لليوم التالي، فأعطى كل كتيبة من الجند مهماتها ووزع كميات هائلة من النشاب، وأوقف «سبعين جمازة في حمى الوغى، يأخذ منها من خلت جعابه، وفرغ نشابه» وصلى الجميع وتوجهوا بالدعاء إلى الله.

وفي صباح يوم السبت الرابع من تموز كان الفريقان جاهزين، من أجل الصراع النهائي ولا شك أن كلا منهما أدرك أن مستقبل المملكة اللاتينية والوجود الصليبي في الشرق متوقف على نتيجة الصراع وعلى الرغم مما كان حدث في اليوم الماضي كان سلاح الفرسان الصليبي في الحقيقة ما يزال يملك قدرات هائلة على الخرق، ويبدو أن خطة عمل الفرنجة قامت على الانقضاض ثانية من أجل الوصول إلى الممر إلى الشمال من القرنين ومن ثم الوصول إلى الماء مهما كان الثمن، وكانت المنطقة وعرة لا مجال فسيحاً فيها لعمل الفرسان الثقال ولحملتهم، وأدرك صلاح الدين هذا وهنا ظهرت عبقريته مجدداً، فقد كان ريموند الثالث في المقدمة ومعه أبناء زوجته الأربعة وريموند أمير إنطاكية وفرسانه، ومن جديد استدرج المسلمون هؤلاء الفرسان إلى «ما ظنوه مجالاً رحباً للحملة» لعزلهم عن الرجالة، وكان صلاح الدين يرغب في تأخير الملحمة حتى تصبح الشمس في كبد السماء وتشتد الحرارة، وفتحت قوات صلاح الدين الطريق قليلاً، وأفسحت المرور به، إنما دون أن تكون لديها الرغبة في تلك الساعة بالسماح لمقدمة الفرنجة بالوصول إلى أهدافها أو النجاة ونتيجة لهذا وصل ريموند إلى الممر، لكنه وجد المسلمين هناك قد سدوا المنافذ كلها أمامه، وحاول أن يتخطاهم، ويفتح ثغرة أو منفذاً بين صفوفهم فحبطت أعماله، وأجبرت الرمايات الكثيفة مقدمة ريموند على الانحراف نحو السهل القائم إلى جنوب قرني حطين، وتبعها بقية الفرنجة، وهناك التحمت القوتان الرئيستان من الجيشين، وكان الآن ترتيب الجيش الصليبي مختلفاً عما كان عليه بالأمس، ولدينا وصف وثائقي قدمه أحد الرواة الحضور في المعركة جاء فيه: «بعدما جرى تقسيم الجيش إلى وحدات وصفوف قتالية، صدرت الأوامر إلى المشاة بالقيام بمهمة حماية الجيش بواسطة الرمايات، وذلك بغية تمكين الفرسان من القيام بمواجهة العدو بسهولة، وعليه تتم حمايتهم برماحهم، ويمنعون العدو من الانقضاض عليهم، ويغدو بهذه الطريقة كل فريق آمناً من خلال التعاون مع الفريق الآخر».

ويبدو أن الرجالة والسرجنتية المسلمين بالقسي العقارة والفؤوس قد وقفوا في الأمام وعلى الجناحين تمهيداً لهجوم الفرسان الثقال، وعندما حان وقت انقضاض الفرسان أفسح الرجالة السبيل لهم في الأمام، ثم ما لبثوا أن تجمعوا لحماية المؤخرة والجناحين ويبدو أن الملك غوى قد تمركز ومعه فرسانه المختارون وصليب الصلبوت في قلب القطاع الرئيسي وكان هناك أيضاً الداوية والاسبتارية، ومن المقرر أن صليب



□ خطاف طويل لتخريب السور وفتح ثغرة.

الصلبوت كان الينبوع المتبقي لدى الصليبيين ليبعث فيهم الشجاعة والصبر حتى يتمكنوا من خوض غمار ذلك اليوم الحاسم.

وهجم الفرسان وضغطوا على المسلمين ضغطاً شديداً، فقتلوا عدداً منهم، وتراجع المسلمون امامهم، ولم يكن عملهم هذا فراراً، بل عملاً تكتيكياً مرسوماً، لذلك أحبط جهد الفرسان وكان بلا مردود، وأخفقت خطة الفرنجة، فقد كان هجوم الفرسان بحاجة إلى دعم وحماية الرجالة، لكن هؤلاء عجزوا عن تلبية هذا المطلب، وأدى هذا إلى عزل سلاح الفرسان عن سلاح الرجالة، وتكتل الرجالة في مكان واحد، ورفضوا أوامر القتال، ولم يعد الآن بإمكان الفرسان الثقال والتركبلي إيقاف زحف المسلمين الذين تقدموا بتشكيلة غطوا فيها كل الجوانب، استغاث الفرسان بالملك فلم يستطع إغاثتهم وكل ما فعله أمر مجدداً بنصب الخيم من أجل حماية صليب الصلبوت وعلى أمل اتخاذ موقف دفاعي في وجه هجمات المسلمين، فقد أمل الملك أن تكون الخيم مكاناً لتجمع القوات المتبعثرة ولتعوض عن خسارة المشاة، لكن ما حدث مجدداً هو أن المقاتلين تراجعوا بشكل فوضوي، وصارت خيول الفرسان الدارعين بلا حماية.

لقد كان تكتيك المسلمين رائعاً، وأعمالهم القتالية مدهشة، تراهم ساعة في موقف الدفاع، وأخرى في موقف الهجوم المتحرك، وظل كونت طرابلس في المقدمة بعيداً عن الملك وعندما رأى آخر أعمال الملك عجز عن التراجع نحوه، وقرر الفرار حيث نظر نحو وجه من كان حوله وقال: «من استطاع العبور فليعبر، فالمعركة ليست لصالحنا، والقتال لا يمكن الاستمرار به».

وتخلى في تلك الساعة ستة من الصليبيين عن مواقعهم بعدما أصابهم اليأس، وذهبوا إلى جيش صلاح الدين وأخبروه بالحال الصعب الذي كان فيه الجيش الصليبي، وأعلموه أن هذا الجيش لن يستطيع الصمود إلا قليلاً، فالشمس أحرقته والعطش أنهك قواه، وأسقف عكا ــ أحد الأوصياء على صليب الصلبوت ــ أصيب بضربة قاتلة، فسلم الصليب إلى أسقف اللد.

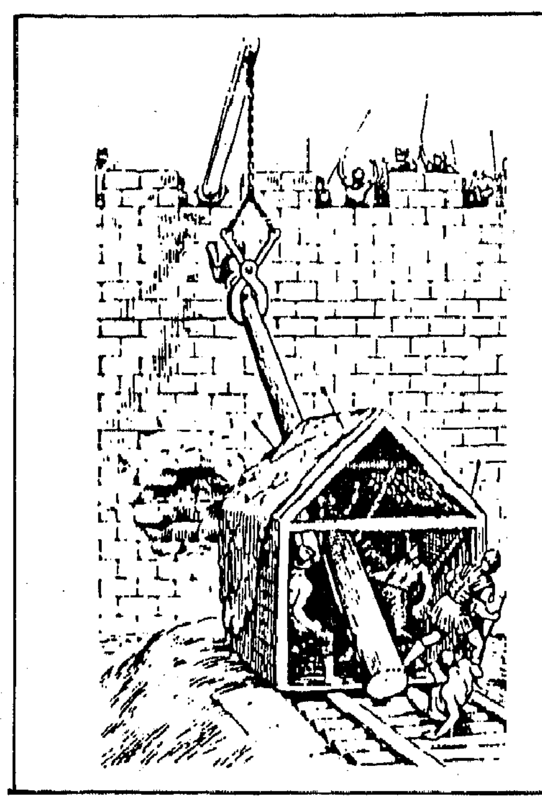
واستفاد المسلمون من المعلومات الجديدة، ووضحت صورة الأوضاع داخل الجيش الصليبي لديهم، فاندفعوا باتجاه الهضبة إلى حيث التجأ المشاة وضغطوا حتى إبادتهم قتلاً وأسراً، وقام ريموند بحملة يائسة على ميمنة المسلمين فصد أولاً، ثم أخلي له الطريق وأغلق خلفه، ويبدو أن هذا حدث عند الظهر، وصحح أن ريموند صار الآن منفصلاً تماماً عن الجيش الصليبي. لقد فقد الصليبيون أمهر قادتهم مع كمية كبيرة من الفرسان وغدت الرقعة التي كانت تشغلها هذه القوة خاوية، فاندفع المسلمون إليها وشغلوها، وبذلك أصبح الطوق المضروب حول الفرنجة محكماً وأكثر ضيقاً، واقترب القتال من النهاية.

وحين شغل تقي الدين هذه الساحة فعل ذلك على شكل هجوم ساحق، وأجبر الفرنجة على التراجع إلى المنطقة الصخرية الصعبة، لكن المعركة لم تنته واستمر القتال عنيفاً جداً، وصلاح الدين يتابع الأخبار بنفسه ويوجه المعركة.

وتعرض الفرنجة الآن لمحنة جديدة، وجاء ذلك نتيجة لعبقرية المسلمين المتفوقة، فقد لاحظ واحد من المتطوعة من جيش صلاح الدين أن اتجاه الريح هو نحو الجيش الصليبي، فرمى النار في الأعشاب التي كانت تغطي المنطقة، ونتيجة لهذا نجد أن أولئك الرجال مع مطاياهم، الذين كانوا بلا ماء لساعات طوال، وكان قد أنهكهم القتال الشديد تحت شمس تموز المحرقة، ضاقت الآن صدورهم، وكادوا يختنقون من الدخان الذي ملأ الهواء، لا بل ربما فقد بعضهم حياته فعلاً نتيجة لذلك.

واشتد حال الصليبيين سوءاً، وزاد الضغط عليهم وعظم بشكل مؤلم، فصاروا يعانون أكثر فأكثر من الحرارة والدخان، وقد أنقص شجاعتهم تخلي عدد كبير من الجيش وفراره مع مقتل أعداد كبيرة أخرى من مقاتليهم، ولهذا تدنت معنوياتهم إلى الحضيض، لكن على الرغم من ذلك فإن بأسهم أعطاهم بعض الشجاعة التي كانت كافية لمتابعة الدفاع حتى آخر ساعات المعركة، واضطر بالتدريج الذين لم يقتلوا أو يهربوا إلى التراجع إلى أحد القرنين، ربما إلى القرن نفسه الذي التجأ إليه الرجالة من قبل، وعندما تجمع هؤلاء المقاتلون المنهكون هناك من أجل الدفاع النهائي، حلت بهم أقسى ضربة مذ دخلوا الحرب ضربة المتهم إيلاماً شديداً أكثر من الحر والعطش والدخان والنشاب، وحتى من الهزيمة نفسها، ذلك أن تقى عمر صاحب حماة وقائد الميمنة قد تمكن بهجومه الكاسح الذي جاء عقب فرار ريموند من الاستيلاء على صليب الصلبوت، وكانت هذه الخشبة هي مصدر العواطف والمعنويات الوحيد الذي تبقى لدى الصليبيين.

وقد يكون من الصعب بالنسبة للإنسان المعاصر تصور معنى خسارة تلك القطعة من الخشب بالنسبة لأولئك الرجال، لكن الذين يفقهون في أساليب الحرب النفسية والتوجيه المعنوي يقدرون عظيم التقدير مكانة أية أداة تؤثر على المقاتلين خاصة أثناء القتال، وكانت خشبة الصليب في العصور الوسطى ذات مكانة سامية جداً لدى المسيحيين عامة والكاثوليك منهم



□ ملقط جبار لالتقاط راس كبش يقوم بثقب ثغرة في السور.

خاصة، فهي الأداة التي من أجلها أثار هرقل — امبراطور بيزنطة صليبية القرن السابع ضد الامبراطورية الساسانية، لقد حملت هذه الخشبة مع الفرنجة في جميع معاركهم الرئيسية، لاعتقادهم أنها تجلب — لا بل تضمن — التأييد السماوي لأعمالهم، وقد حفظ الفرنجة جذع الخشبة، وأعتنوا بها عناية فائقة، ولم يتم استرداد هذه الخشبة من قبل الفرنجة ثانية، واختفت آثارها، وقد بكاها المؤرخون والكتاب اللاتين وحزنوا حزناً شديداً لفقدانها حتى أن بعضهم اعتبر فقدانها خاتمة للمعركة.

وكان المسلمون قد عرفوا دين عدوهم، وأدركوا مكانة هذه الخشبة في معتقداته وقدروا كم هو مهم الاستيلاء عليها، وهكذا نعاود التأكيد على أن معركة حطين انتصر فيها التكتيك الإسلامي المطبق بعقل وشجاعة والتزام، ولذلك كان النصر فيها باهظ الثمن وقد حدثنا العماد الأصفهاني عن الصليب وعملية الاستيلاء عليه: «ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت، وأهلك دونه أهل الطاغوت وهو الذي إذا نصب

وأقيم ورفع سجد له كل نصراني وركع، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ومسجودهم، وقد غلفوه بالذهب الأحمر، وكللوه بالدرر والجوهر، وأعدوه ليوم الروع المشهود، ولموسم عيدهم الموعود، فإذا أخرجته القسوس، وحماته الرؤوس، تبادروا إليه وانهالوا عليه، ولا يسع لأحدهم عنه التخلف، ولا يسوغ للمتخلف عن اتباعه في نفسه التصرف، وأخذه أعظم عندهم من أسر الملك، وهو أشد مصاباً لهم، في ذلك المعترك، فإن الصليب السليب ماله عوض، ولا لهم في سواه غرض، والتأله له عليهم مفترض، فهو إلههم، وتعفر له جباههم، وتسبح له أفواههم، يتعاشون عند إحضاره، ويتعاشون لإبصاره، ويتلاشون لإظهاره، ويتغاضون إذا شاهدوه، ويتواجدون إذا وجدوه ويبذلون دونه المهج، ويطلبون به الفرج، بل صاغوا على مثاله صلباناً يعبدونها، ويخشعون لها في بيوتهم ويشهدونها، فلما أخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم، ووهت أصلابهم، وكان الجمع المكسور عظيماً، والموقف المنصور كريماً، فكأنهم لما عرفوا إخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد عن يومهم العصيب، فهلكوا قتلاً وأسراً، وملكوا قهراً وقسراً».

وعلى الرغم من أثر خسران خشبة الصليب القاصم على الجزء الأعظم من عساكر الفرنجة، فإن عصبة منهم ثابرت على المنافخة، وبقي في نفوسها بعض الشجاعة، وفي أبدانها بعض القوة لمثابرة الصراع والدفاع، وتجمع هؤلاء حول الملك، وتمكنوا بطريقة ما من نصب خيمته وقاموا بهجوم، ربما أملوا من ورائه شق طريق للفرار، وبعد نجاح أولي تمكنوا فيه من دفع المسلمين إلى الخلف حيث وقف صلاح الدين، بادر هذا القائد الشجاع، فأمر على الفور بهجوم معاكس رد الصليبيين على أعقابهم، ومكن المسلمين المعاصرين هذه الخاتمة بقوله:

ولما حمل الإفرنج «تلك الحملات ازدادوا عطشاً وقد كانوا يرجون الخلاص في تلك الحملات مما هم فيه، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً، فنزلوا عن دوابهم، وجلسوا على الأرض، فصعد المسلمون إليهم، فألقوا خيمة الملك، وأسروهم عن بكرة أبيهم».

وجاءت نهاية المعركة قرابة العصر، وأفضل وصف وثائقي لساعتها الأخيرة ولأحداثها المثيرة ما رواه ابن الأثير عن الملك الأفضل بن صلاح الدين، قال: كتبت إلى جانب أبي في ذلك المصاف، وهو أول مصاف شاهدته، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي، قال: فنظرت إليه وقد علته كآبة، وأربد لونه، وأمسك بلحيته، وتقدم وهو يصيح: كذب الشيطان، قال: فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصعدوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي: هزمناهم، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى، وألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثلما فعل، وعطف المسلمون عليهم، فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضاً: هزمناهم، فالتفت والدي إلي وقال: اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، قال: فهو يقول لي، وإذا الخيمة، فنزل السلطان، وسجد- شكراً لله تعالى، فبكى من فرحه، وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشاً، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً، فنزلوا عن دوابهم، وجلسوا على الأرض، فصعد المسلمون إليهم، فألقوا خيمة الملك، وأسروهم عن بكرة أبيهم، وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك، ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين. وأسروا أيضاً صاحب جبيل، وابن هنفري، ومقدم الداوية وكان من أعظم الفرنج شأناً، وأسروا أيضاً بليبانوس صاحب البترون، وهيوج صاحب جبلة وصاحب مرقية»، وجماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية، وكثر القتل والأسر فيهم، فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحداً، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً، وما أصيب الفرنج مذ خرجوا إلى الساحل... إلى الآن بمثل هذه الوقعة.

لقد كان عدد الذين قتلوا أو أسروا يعدون بالآلاف، والذين لم يقتلوا كانوا منهكين وقد هدهم فقدان صليب الصلبوت إلى حد أنهم يحاولون الفرار، ذلك أنهم وضعوا بالأسر، وتركوا

بلا حراسة حتى حملوا إلى دمشق وسواها. ويقول ابن شداد في المحاسن اليوسفية: «وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفاً على نفسه، ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصاً واحداً معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون اسيراً أخذهم وحده لخذلان وقع عليهم».

ولما انتهت أعمال القتال، وفرغ المسلمون من جمع الأسرى: «نزل صلاح الدين من خيمته، وأحضر ملك الفرنج عنده، وبرنس أرناط صاحب الكرك، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش، فسقاه ماء مثلوجاً، فتسرب وأعطى فصله برنس أرناط صاحب الكرك فتشرب، فقال صلاح الدين: إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني ثـ كلم البرنس وقرعه بذنوبه، وعدد عليه عوراته، وقام إليه بنفسه فضرب رقبته، وقال: كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به، إحداها لما أراد المسير إلى مكة والمدينة، والثانية لما أخذ القفل غدراً، فلما قتله وسحب وأخرج، ارتعدت فرائص الملك، فسكن جأشه وأمنه».

لقد عومل الأسرى معاملة إنسانية ممتازة وحملوا إلى دمشق حيث نودي بهم أو أطلق سراحهم، وذلك باستثناء أرناط صاحب الكرك وفرسان الداوية والاسبتارية، حيث اعتبرهم صلاح الدين مجرمي حرب حكم عليهم بالإعدام.

وكان عدد الفرسان الجرحى قليلاً، لكن لم ينج من حيولهم فرس واحد، ووصف العماد الكاتب ما رآه على ساحة المعركة، وقد أثر به المنظر تأثيراً عظيماً فقال: «إلى من عجائب هذه الوقعة، وغرائب هذه الدفعة أن فارسهم ما دام فرسه سالماً لم يذل للصرعة، فإن مَن لبسه الزردي من قرنه إلى قدمه كان كأنه قطعة حديد، ودراك الضرب إليه غير مفيد، لكن فرسه إذا هلك فرسى وملك، ولم يغنم من خيلهم ودوابهم، وكانت ألوفا ما هو سالم، وما ترجل فارس إلا والطعن والرمي لمركوبه كالم».

وهكذا ربح صلاح الدين معركة حطين، بعد جهود جبارة مضنية، ربحها بعدما بدد قوى عدوه وصان قواه وأحسن استغلالها، وربح صلاح الدين لأنه تفوق على عدوه الجبار بالاستراتيجية والتكتيك، فلقد عوض التفاوت المادي بين قواته وقوات عدوه عن طريق استغلاله لعوامل الطبيعة ونجح فيما استهدفه فدمر المؤسسة العسكرية الصليبية وخط بذلك بداية النهاية للوجود الفرنجي في الشرق، وبات تحرير القدس وبقية الأرض في متناول اليد.

لم يكن صلاح الدين من هواة الحرب، بل من أبطال التحرير، وقد انتمى إلى حضارة فيها «الرأي قبل شجاعة الشجعان» فالرأي هو الذي انتصر في حطين، وكان على كل حال رأياً مدعوماً بالقوة والعقيدة والأخلاق والشجاعة والإيمان وبراعة التنفيذ[1]. •

الهوامش

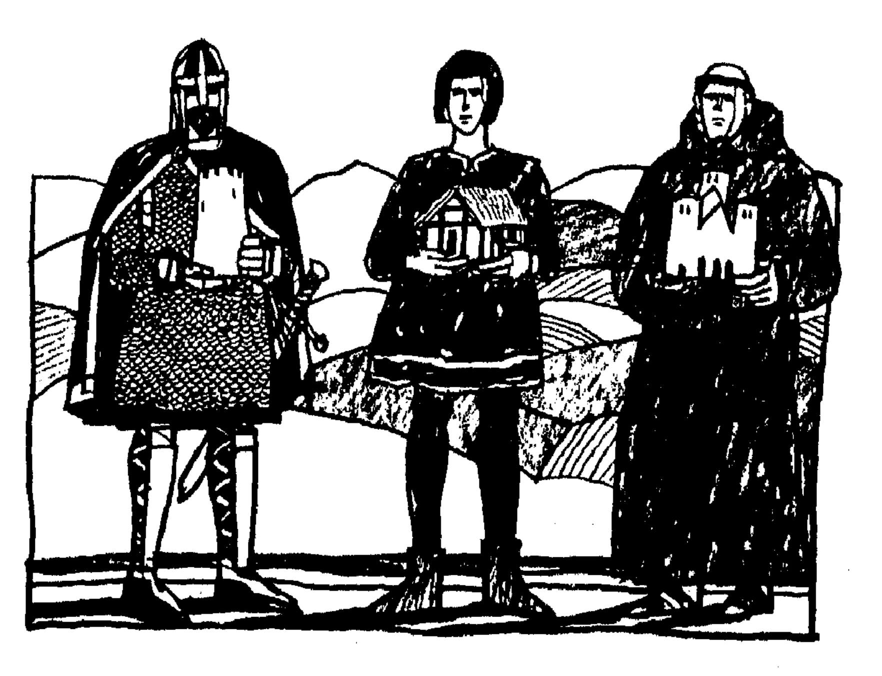
(*) قبل لوبية على اليسار، وما بين لوبية وقرية ناصرالدين وامتداداً إلى الجنوب حيث قرية كفرسبت في منطقة الشجرة.

(١) الفتح القسي: ٣٦ ــ ٥٠ النوادر السلطانية: ٤٩ ــ ٦٦، الروضتين: ٧٥ ــ ٨١. الإنس الجليل: ١/٣١٦ ــ ٣٢١. عيون الروضتين: ٢٢٣٣ ــ ٢٢٣٩. سفاء القلوب: ١٢٨ ــ ١٣٠. الكامل لابن الأثير: ١١/٥٤٦ ــ ٥٥٣. شذرات الذهب: ٤/٣٧٤ ــ ٢٧٥. البداية والنهاية: ١٢/٣٢٣ ــ ٣٢٧. السلوك: ١/٩٢ ــ ٩٣. المختصر في أخبار البشر: ٣/٧١ ــ ٧٤. طبقات الشافعية: ٤/٣٢٥ ــ ٣٤١. زبدة الحب: ٨٣٩. مرآة الزمان: ١/٣٨٩ ــ ٤٠٢. الإعلام والتبيين: ٨١ ــ ٨٥. الحروب الصليبية لرفيق التميمي: ١٥٥ ــ ١٦٧. حياة صلاح الدين الأيوبي لأحمد بيلي: ١٥٣ ــ ٢١٠. الحروب الصليبية في المشرق والمغرب: ٥٦ ــ ٦٩.

The Crusades, by R. Pernqud, 163 — 176. The Art of war, by C. oman, 57 — 73. Crusading warfare, by. R. Smail 189 — 198. Raymond III of tripolis by. M. Baldwin, 96 — 135. A. History of the crusadesvol — I opp 563 — 621. the crusaders in the East, by W. Stevenson, 240 — 250, the crusades, by. T. Ancher, 265 — 281. A. History of the crusades, by S. Runciman, voi II, 436 — 474, Lane pool, 197 — 216 Saladin, 195 — 224.

□ صور هذا الموضوع ماخوذة من دراسة اللواء الركن المجاز سعيد الطيان.

□ ثالثوث الحملات الصليبية: الكنيسة، الاقطاع والنبلاء — المرتزقين.



د. عبد الحميد حاجيات

الحملة الصليبية الأولى وأثرها في تطور العالم العربي

إن تقييم المعارك الكبرى في تطور الشعوب السياسي والحضاري، يتطلب التعرض إلى مختلف العوامل التي أدت إليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة، والتي تشكل جذوره المتغلغلة في أعماق الأزمنة السالفة. ويقتضي من جهة أخرى التعرف على النتائج المترتبة عنها، التي قد تمتد عبر فترات طويلة.

والحملة الصليبية الأولى التي هي موضوع حديثنا هذا، من بين الحوادث التي تركت أثراً بالغاً على مدى الأزمنة والعصور، والتي تمخضت عن أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية سبقتها ومهدت لها خلال الحقب السالفة.

ولا شك أن تعليل الأحداث، الذي دعا اله ابن خلدون في مقدمته الشهيرة، وحثّ عليه الباحثين، يمكن من تسليط الأضواء عليها، وتبين الدوافع الحقيقية التي أدت إليها وأحاطت بها. وفيما يخص الحملة الصليبية الأولى، فينبغي وضعها في إطار ذلك الصراع الطويل الذي ظل قائماً قروناً عديدة بين العالم العربي والامبراطورية البيزنطية. على أن المدة المحدودة التي ينبغي ألا يتجاوزها حديثنا هذا، لا تسمح باستعراض هذا الصراع ببعض التعمق والتفصيل، بل تقتضي الإيجاز الشديد في الإشارة إلى أهم مراحله ومكان هذه الحملة ضمنها.



لقد كان البيزنطيون، بعد تدهور الامبراطورية الرومانية أثر هجمات الشعوب المتبربرة، يسيطرون على البحر المتوسط، ويملكون معظم سواحله، ويهيمنون على الجانب الأوفر من النشاط التجاري الدولي. غير أن قيام الدولة العربية الإسلامية، وما تلاه من فتوح امتدت إلى أقطار شاسعة، في بلاد العراق وفارس والشام ومصر والمغرب والأندلس، قد أحدث تحولاً جذرياً في مسار التاريخ البشري، حيث قضى على المملكة الفارسية، وزعزع أركان الامبراطورية البيزنطية، التي فقدت، في مدة قصيرة، معظم الأقطار الخاضعة لسلطتها، بينما امتدت هيمنة العرب إلى معظم أنحاء حوض البحر المتوسط، وعرفت تجارتهم ازدهاراً منقطع النظير.

وخلافاً لأكاسرة فارس، الذين لم يثبتوا أمام الفتح الإسلامي وانقرضت دولتهم في ظرف سنوات قليلة، فإن أباطرة بيزنطا مكثوا على عرش أسلافهم بفضل مناعة عاصمتهم التي صمدت أمام حصار الجيوش العربية ومحاولاتها المتكررة. فدامت امبراطوريتهم بضعة قرون رغم ما آل إليه الأمر من تقلص نفوذهم وتدهور شأنهم أيام الخلفاء الأمويين وفي عهد قوة العباسيين.

وينبغي الملاحظة أن الصراع العربي البيزنطي، بعد الصدمة الأولى، التي مكنت المسلمين من فتح العديد من البلاد وضمها للدولة العربية، عرف فترة توقف نسبي، نتيجة الفتن القائمة حول الخلافة، حيث أن هذه الفترة اتسمت بحركة مد وجزر جعلت الحدود بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية تعرف بعض الاستقرار في كثير من الأحيان، ويطرأ عليها تارة أخرى بعض التحول إثر غارات إسلامية أو بيزنطية، غير أن هذا التحول كان محدوداً جداً، لا يتعدى مستوى المدينة الصغيرة أو الحصن، كما حدث في عهد هارون الرشيد والمعتصم وغيرهما.

ونفس الوضع كان قائماً في الجبهة الغربية من العالم العربي، فيما يخص الحدود بين بلاد الأندلس الإسلامية وأوروبا الغربية المسيحية، إلى بداية القرن الخامس الهجري.

لكن ضعف الخلافة العباسية، ولا سيما أيام بني بويه، من جهة، وانهيار الخلافة الأموية بالأندلس، الذي أدى إلى قيام دويلات ملوك الطوائف، من جهة أخرى، قد سمحا للنصارى في آسيا الصغرى وفي شمال جزيرة أيبيريا بالتجرؤ على شن الغارات في اتجاه الحصون والثغور الإسلامية المجاورة للحدود وبينما فسح المجال للنورمان وغيرهم في الاستيلاء على معظم جزر البحر المتوسط، مثل قبرص وكريت وصقلية. أما البيزنطيون، فإنهم استطاعوا أن يقتحموا بعض الممتلكات الإسلامية في بلاد الأناضول وأرمينيا وكيليكيا، واحتلوا إنطاكية، وواصلوا تقدمهم إلى نهر العاصي فأصبحوا يهددون حلب. وكان لسيف الدولة الحمداني، خلال ذلك، مواقف بطولية خلدت ذكره في الجهاد ضد البيزنطيين، بالإضافة إلى ما قام به الفاطميون من جهود لصد هجماتهم على بلاد الشام.

إلا أن حركة الجهاد هذه لم تنشط بقوة إلا ابتداء من عهد السلاجقة، وخاصة أيام السلطان ألب أرسلان، الذي هزم البيزنطيين شر هزيمة في معركة مانزكرت (من بلاد أرمينية)، مما سمح للسلاجقة بالاستيلاء على قسم كبير من آسيا الصغرى. وقد هز انتصار مانزكرت أركان الامبراطورية البيزنطية، وأفقدها قوتها العسكرية لمدة سنوات عديدة، فراحت تستنجد بالبابوية وبملوك أوروبا الغربية.

والحقيقة أن ألب أرسلان لم يستغل انتصاره، ولم يواصل زحفه في اتجاه القسطنطينية. ولو فعل لتمكن بدون شك من فتح عاصمة البيزنطيين، ولوفر على المسلمين عناء ما يزيد على ثلاثة قرون، تخللتها الحملات الصليبية.

ثم إن وفاة ألب أرسلان كان لها أثر ملحوظ في إبعاد خطر السلاجقة عن العاصمة البيزنطية، واقتصر توسع المسلمين على امتلاك إنطاكية وأرمينية الصغرى وبعض سواحل آسيا الصغرى.

وبعد ذلك، ظهرت حركات مذهبية جديدة، واستفحل أمرها، فشغلت السلاجقة عن الجهاد، وسقط الوزير نظام الملك ضحية هذه الفتن ثم السلطان ملك شاه بعده بحوالي سنة. وتلت ذلك

اضطرابات وحروب من أجل المنافسة على العرش السلجوقي، مما أضعف شأن أمراء هذه الدولة.

عندئذ، عاد الأمل للبيزنطيين في استرجاع ممتلكاتهم بآسيا الصغرى والثأر لهزيمة مانزكرت، ومرة أخرى، اتجهت أنظار امبراطور القسطنطينية، الكيسوس كومنين، نحو بابا روما، أوربان الثاني، فاستنجد به، معرباً عن رغبته في توحيد صفوف النصارى ضد المسلمين، وطالباً منه مساعدة الامبراطورية البيزنطية على استرجاع ما فقدته من الممتلكات بآسيا الصغرى. فلقي طلبه ترحيباً حاراً لدى البابا. وكان ذلك السبب المباشر لاندلاع الحملة الصليبية الأولى.

* * *

ويبدو أن الأوضاع في أوروبا الغربية، وفي حوض البحر المتوسط على العموم، كانت ملائمة لقيام هذه الحملة، على أساس التعصب الديني. وذلك أن الكنيسة التي كانت تسيطر على المجال العلمي والتعليمي، لم تفتأ تزرع في قلوب اتباعها، وخاصة الفرسان والنبلاء بذور التعصب للمسيحية، وتضفي على تكوينهم العسكري طابعاً دينياً يجعل الفرد يعيش في بيئة تتسم بتسخير كل ما لديه من جد لخدمة دينه وإعلاء شأنه ومحاربة أعدائه.

ومن جهة أخرى، فإن هذه الحملة تندرج ضمن سلسلة أحداث سبقت الإشارة إليها، جعلت العالم المسيحي يحرز توسعاً ملحوظاً في حوض البحر المتوسط على حساب الدول الإسلامية، مما جعل هذه تفقد قسماً وافراً من سيطرتها على التجارة الدولية بعد أن خرج من حوزتها كثير من جزر البحر المتوسط، وأخذت دول أوروبا الغربية بالإضافة إلى النورمان تغزو سواحل البلاد الإسلامية في أفريقية وغيرها من المناطق.

ثم كان لسقوط طليطلة بين أيدي الملك الإسباني الفونسو السادس، سنة ٤٧٨هـ. / ١٠٨٥م، صدى عميق في نفوس نصارى أوروبا الغربية، حيث كان يمثل خطوة حاسمة في انطلاق حركة الاسترداد، مما جعل معنويات هؤلاء ترتفع بشكل محسوس، ونشاط الكنيسة يزداد حماساً في مجال الدعوة لغزو بلاد المسلمين. وخاصة بعد تدخل المرابطين وتلبيتهم نداء ملوك الطوائف وانتصارهم في معركة الزلاقة، بقيادة يوسف بن تاشفين، سنة ٤٧٩هـ. / ١٠٨٦م، حيث أصبحت الكنيسة تخشى وهن عزائم أتباعها واستسلامهم للخوف والهلع.

والظاهر أن البابوية وجدت في طلب الامبراطور البيزنطي مساعدتها في آسيا الصغرى فرصة مواتية، تمكنها من اكتساب حليف نفيس في دعوتها للحرب المقدسة ضد المسلمين. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما كانت تمتاز به بلاد البيزنطيين من تقدم حضاري في شتى المجالات، أدركنا الأهمية التي أولاها البابا أوربان الثاني لاستجابة نداء بيزنطيا. غير أنه حول هذا المشروع عن قصده، الرامي إلى المساعدة العسكرية في آسيا الصغرى، إلى حملة واسعة النطاق من أجل تحرير الأراضي المقدسة بالشام، وإقامة دولة مسيحية في بيت المقدس.

أضف إلى ذلك أن النظام الإقطاعي كان قد تبلور آنذاك في معظم أنحاء أوروبا الغربية وأن أسسه قد أخذت تبدو معالمها بوضوح، مما جعل طبقة الفرسان تلعب دوراً بالغ الأهمية في المجالات السياسية والعسكرية والاجتماعية، وتشكل خطراً على نفوذ الملوك بفرنسا وانجلترا وغيرهما، لما اكتسبته من سلطة ونفوذ في الأقاليم الخاضعة لحكمها. فكان من مصلحة الملوك أن يتخلصوا من خطر النبلاء عن طريق تأييد الحركة الصليبية، وحث هؤلاء على المساهمة في هذه المغامرة، التي يرجون منها أن تخفف من وطأة الفرسان، وتنقص من خطرهم على سلطة الملوك.

وينبغي أخيراً الإشارة إلى أن الطريق إلى القسطنطينية كان قد أصبح مفتوحاً أمام الصليبيين براً، بعدما حققته الكنيسة من نجاح في عملية التبشير لدى البلغار وغيرهم من الشعوب المتبربرة، وكذلك بحراً بفضل ما قام به أهالي البندقية وجنوة وبيزة من الجهود بقصد السيطرة على التجارة الدولية عبر البحر المتوسط. وأصبحت القسطنطينية، في أعين اللاتينيين، تعتبر مرحلة ضرورية لتحقيق مشروع استرجاع بيت المقدس والأراضي المقدسة.

وهكذا، فإن طلب الامبراطور البيزنطي يد

المساعدة من بابا روما ومن يخضع لنفوذه الديني من ملوك أوروبا الغربية قصد إبعاد خطر السلاجقة عن بلاد آسيا الصغرى، قد تحول إلى مشروع واسع النطاق، يتضمن إغاثة البيزنطيين، باديء ذي بدء، ثم التوجه إلى بيت المقدس واحتلالها، ثانياً. ويبدو، حينئذ، أن كلاً من الامبراطور والبابا كان يسعى إلى الاستعانة بالآخر لتحقيق أهدافه. فكان الأول يرمي إلى استرجاع المناطق الضائعة من آسيا الصغرى بينما كان الثاني يهدف إلى متابعة الحملة في اتجاه بيت المقدس لتحرير الأراضي المقدسة، محاولاً بذلك تحقيق أمنية غالية في نفوس النصارى. فكان مشروع البابا أوربان الثاني منطلق الدعوة للحملات الصليبية.

على أن العوامل المساعدة للصليبيين، المذكورة آنفاً، لم تكن كافية لإنجاح الحملة الأولى، التي لم تكن لتبلغ ما بلغته من النجاح النسبي، لولا الأوضاع المتدهورة في أقطار المشرق العربي، من ضعف شأن الخلافة العباسية، وقيام حركة الحشيشية والإسماعيليين ونشوب الحرب بين أبناء السلطان ملكشاة المتنازعين على العرش السلجوقي الأمر الذي فتح الباب على مصراعيه أمام الصليبيين، الذين لم يجدوا جيشاً عربياً موحداً ومنظماً يتصدى لهجماتهم، ويوقف زحفهم. ولم يواجه الصليبيون، آنذاك، أية صعوبة للتسرب إلى بلاد الشام، إذ أن هذا القطر كان مسرحاً للمنافسة القائمة بين العباسيين والفاطميين على امتلاك تلك البلاد. ولا شك أن انقسام المسلمين كان أكبر مساعد للصليبيين في مسيرتهم نحو إنطاكية والرها وطرابلس وبيت المقدس. وقصة هذه المسيرة وما تخللها من حوادث ونكسات، معروفة لدى الجميع، فلا حاجة لذكر تفاصيلها، وإنما ينبغي التركيز على أسباب نجاحها، وعلى نتائجها السياسية والحضارية.

وعلى الباحث، أولاً، أن يتساءل عن مدى صحة ما ورد من الأخبار في المصادر التاريخية الأوروبية، وما قد يوجد فيها من مبالغة في تمجيد أبطال الصليبيين من فرسان ونبلاء وملوك والإشادة بشجاعتهم وكفاءتهم ونبل أخلاقهم، وغير ذلك كما ينبغي التعرض لموقف المسلمين من الخطر الصليبي والتعرف على طريقة تصديهم له.

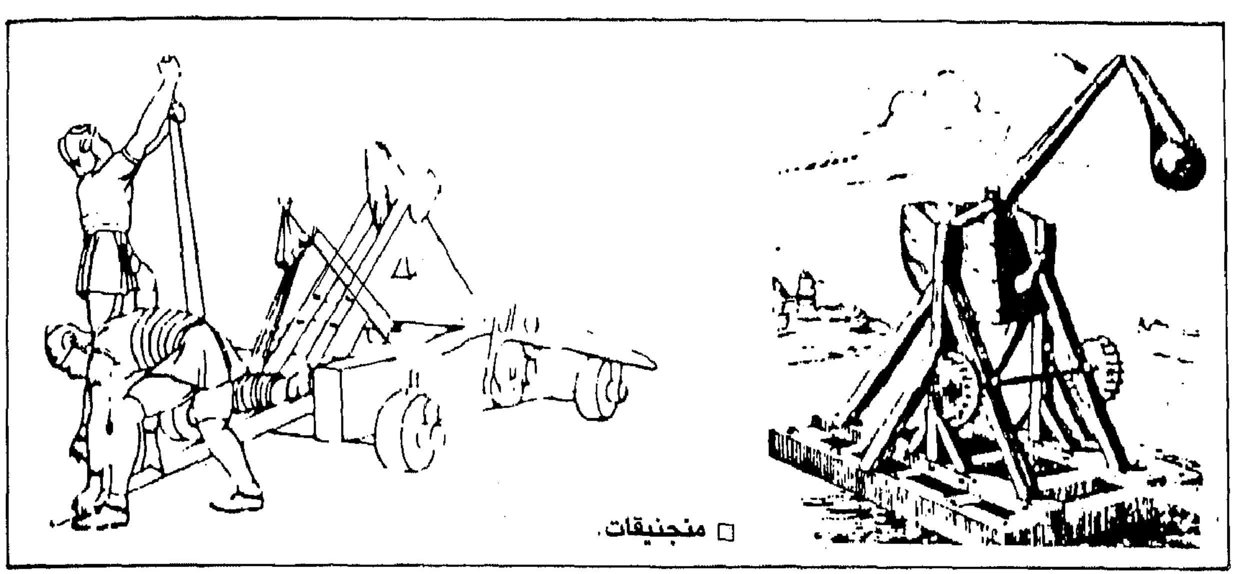
وفي هذا الصدد، يبدو أن المسلمين لم يدركوا نوايا الصليبيين بصورة جلية، ولم يتفطنوا لما كانت ترتكز عليه حملتهم من طابع التعصب الديني، والحقد الشديد للإسلام، إلا بعد أن تم استيلاؤهم على بيت المقدس. وتكونت مملكة بيت المقدس، وإمارات الرها وإنطاكية وطرابلس ومما يدل على ذلك أن الفاطميين لم يروا مانعاً من عقد إتفاقية مع الصليبيين، أدت إلى تمكن هؤلاء في إنطاكية، ومهدت لهم السبيل للاستيلاء خدعة على بيت المقدس، فكانت الكارثة الكبرى على المسلمين، وكانت هذه الحادثة المؤلمة من أهم أسباب ضعف الدولة الفاطمية وتدهورها، وقيام الدولة الأيوبية على أنقاضها.

والظاهر أن قلة اكتراث أهالي المشرق العربي بحقيقة نوايا الصليبيين هي التي لم تدفعهم إلى توحيد صفوفهم وتناسي اختلافاتهم من أجل التصدي للغزاة، خلال الحملة الصليبية الأولى. وقد يتساءل الباحث عن سبب قلة الاكتراث هذه، وخاصة فيما يخص رجال السلطة من ملوك وأمراء وقادة للجيش وغيرهم.

ولعل ذلك السبب يكمن بالدرجة الأولى فيما امتازت به روح الإسلام من تسامح إزاء أهل الديانات الأخرى، واحترام لمعتقداتهم وطقوسهم الدينية.

وهذه الظاهرة التي لم يتخل عنها المسلمون إلى يومنا هذا، لا تدفع إلى إقامة حركة مناهضة للغزو الأجنبي على أساس التعصب الديني، إذ أن هذا الشعور يكاد يكون منعدماً في المجتمع العربي الإسلامي.

ثم إن هناك شعوراً آخر، دعا إليه الإسلام وجعله من القيم السامية التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن، ولكن لم يسارع إليه المسلمون إبان الحملة الصليبية الأولى، ويتمثل في ضرورة التعاون والتآزر بين المسلمين، وتقديم يد المساعدة بعضهم لبعض كما اقتضت الظروف ذلك، والحديث النبوي الشريف يزخر بالأخبار والأقوال التي تهيب بالمسلم إلى التصدي لكل خطر يهدد مصالح البلاد، والمساهمة في إبعاده بالنفس والنفيس. والحقيقة أن المسلمين لم يقفوا



□ منجنيقات.

صفاً واحداً أمام الغزاة الصليبيين. ولم يسارعوا لقتال هؤلاء قبل أن يستفحل أمرهم. وعندما بدأت جموع الغزاة تحتل الثغور والحصون والمدن الإسلامية في المناطق المجاورة للحدود، استولى الخوف والفزع على نفوس المسلمين وتخاذل معظمهم وتقاعدوا عن إغاثة المدن المهددة. ومن المواقف السلبية، التي نتج عنها ترجيح الكفة في صالح الصليبيين آنذاك، ذلك الاتفاق الذي تم بين الفاطميين والغزاة، والذي يقضي بالسماح لهؤلاء أن يحتلوا إنطاكية، شريطة أن يتمكن الفاطميون من الاستيلاء على بيت المقدس. غير أن الصليبيين، بعد امتلاكهم لإنطاكية، لم يحترموا هذه الاتفاقية بل خانوا العهد، ووجهوا ضرباتهم نحو الفاطميين، فاقتحموا بيت المقدس، وقتلوا بها كل من وجدوه من المسلمين، فبلغ عدد الضحايا حوالي سبعين ألف قتيل.

وبعد، فإن دراسة وقائع الحملة الصليبية الأولى تفسر نجاح الجهود الكبرى والمشاق التي تحملها الغزاة من أجل تحقيق مشروع تحرير الأراضي المقدسة، وتحمل مسؤولية سقوط بيت المقدس وغيرها من المدن على المسلمين أنفسهم لتقاعدهم عن تنظيم الدفاع عن بلادهم وتنسيق الجهود للوقوف أمام العدو وإبعاد خطره.

وإذا كان الاشتغال بالتاريخ يهدف بالدرجة الأولى إلى استخلاص العبرة من تجارب الأمم، والاتعاظ بما تقدمه للأجيال اللاحقة من دروس وإرشادات، فإن استعراض أسباب نجاح الحملة الصليبية الأولى يشكل درساً مفيداً للعرب في مختلف العصور، ولا سيما في عصرنا هذا وقد تعرضوا لخطر الصهيونية والامبريالية المتحالفتين والعاملتين على تحقيق أطماعهما في المشرق العربي.

والذي يقارن بين الحملة الصليبية الأولى، وبين اغتصاب الصهاينة لجزء من الوطن العربي بفلسطين، يرى أن التاريخ يعيد نفسه في كثير من الأحيان، وأن العدو يستغل دائماً نقاط الضعف، وأخطرها الاختلافات القائمة في صفوف العرب وتقاعدهم عن التصدي لهجماته وتنسيق الجهود لإرغامه على التراجع.

فحبذا لو اتعظ العرب بدروس التاريخ وتناسوا خلافاتهم وواجهوا الخطر كرجل واحد. ومن عرف أسباب النكسات، أدرك طريقة الخروج منها، وإعادة المياه إلى مجاريها. كما إن من درس المعارك الكبرى، وعرف أسباب الانتصارات التي حققها أبطال التاريخ اطلع على السبيل الذي يؤدي إلى النصر. ومعركة حطين أحسن مثال لذلك.

ولا شك أن الدروس القاسية، التي لقنها الدهر للمسلمين حقبة من الزمان، خلال الحملات الصليبية قد أفادتهم في الكفاح المرير الذي خاضوه ضد الغزاة، والذي تألق في سمائه نجم نورالدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي وغيرهما من الأبطال، الذين عرفوا كيف يستخلصون العبرة من الهزائم لتحقيق النصر. •

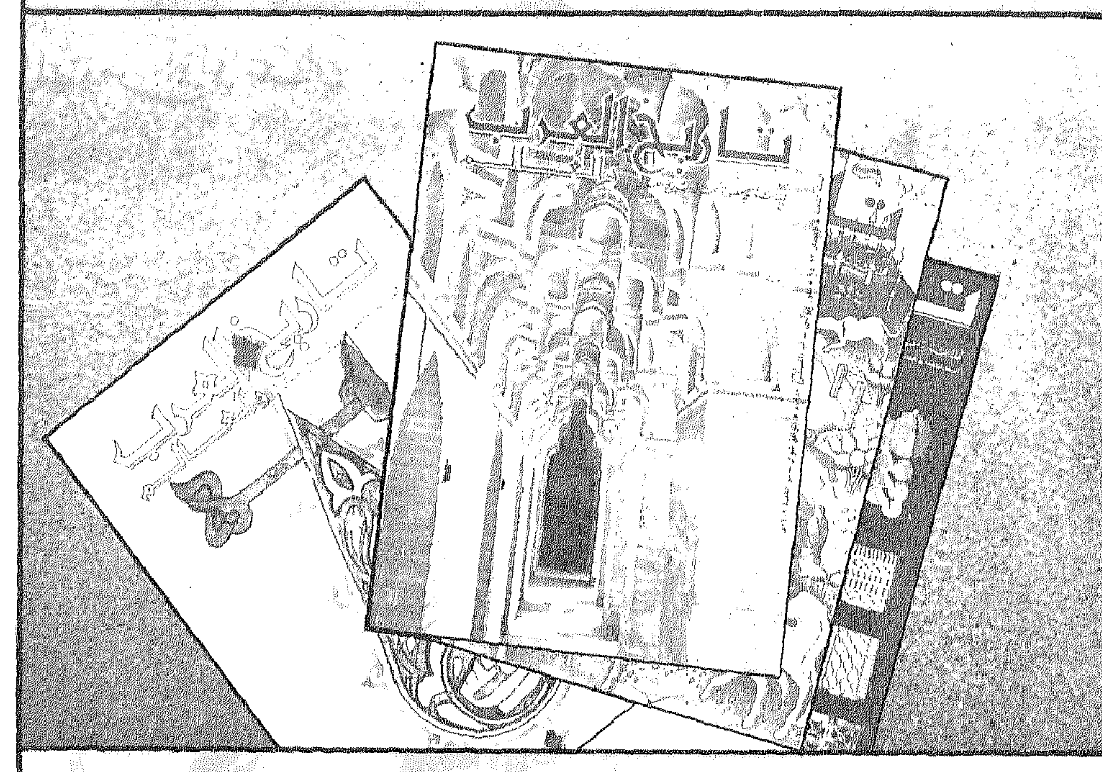
* * *

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير



الاشتراكات

- للأفراد في لبنان .... ٥٠٠ ل.ل.
- للأفراد في الوطن العربي ... ٣٥ دولاراً
- للأفراد في دول العالم الأخرى ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في لبنان .... ١٠٠٠ ل.ل
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي .... ٧٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية خارج الوطن العربي .... ١٠٠ دولار

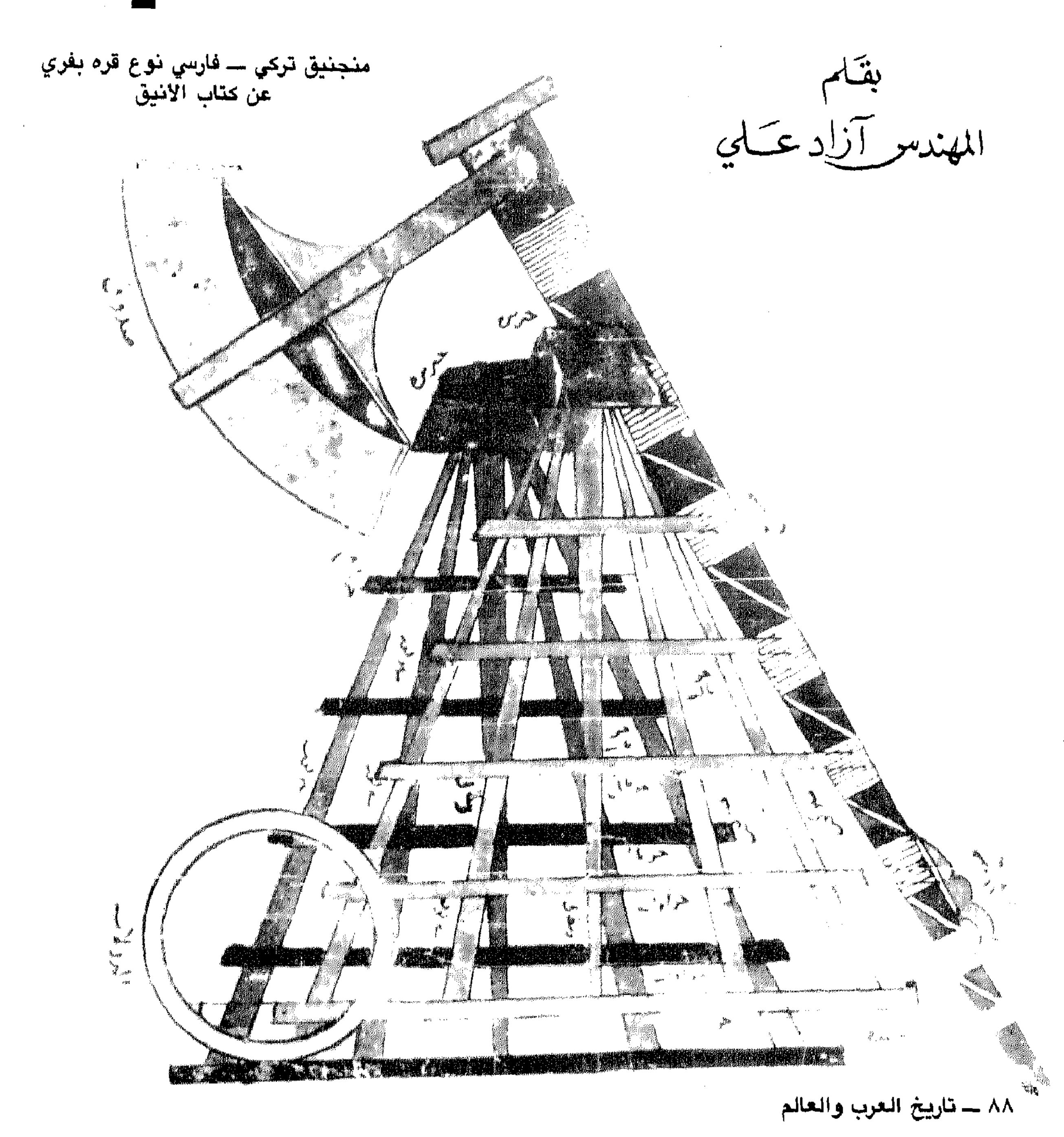
جميع المراسلات توجه بإسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل – شارع السادات – بيروت – لبنان – ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣

الصناعات الحربية في العهد الأيوبي ودورها في تحقيق النصر

بقلم
المهندس آزاد علي

منجنيق تركي — فارسي نوع قره بغري
عن كتاب الأنيق



قديما كانت الإدارة سلاحا وامتدادا فعالا ليد الإنسان. كانت صلة الوصل بينه وبين الطبيعة. ومسيرة الإنتقال من الأداة إلى السلاح، تطلبت مرحلة طويلة لتوزع الوظائف في المجتمع البشري. ودور السلاح في التاريخ والحضارة متميز وهام، أهمية ثبات وتلاشي الحضارات والدول.

ليس غريبا إذن أن نجد تلك الأهمية التي أعطيت للسلاح وصناعته واستخدامه في الدولة العربية الإسلامية ومنذ الفتوحات الأولى. فالمصادر العربية تشير الى ذلك الإهتمام، سواء في كتب التاريخ او المصنفات العلمية القليلة نسبيا، او في الكتب اللغوية والمنوعة. وفي هذه الأخيرة يجد القارىء تفصيلات عديدة عن الأسلحة واصنافها، خصائصها وصفاتها. ففي كتاب السلاح من المخصص لابن سيده[1]، نرى تجاوزا للوصف المرتبط بالتسمية والاستعمالات تصل إلى درجة استخدام مصطلحات لغوية دقيقة تعبر عن مراحل صناعة السلاح وصفاتها أثناء عملية التصنيع. كاسماء السيف أثناء عملية السبك أو الصقل والسقاية، وبالطريقة نفسها تستخدم مفردات للتعبير عن مراحل صناعة الرماح وخصائصها الفنية، وغيرها من الأسلحة، والأدوات التي تتطلبها الحروب والمعارك.

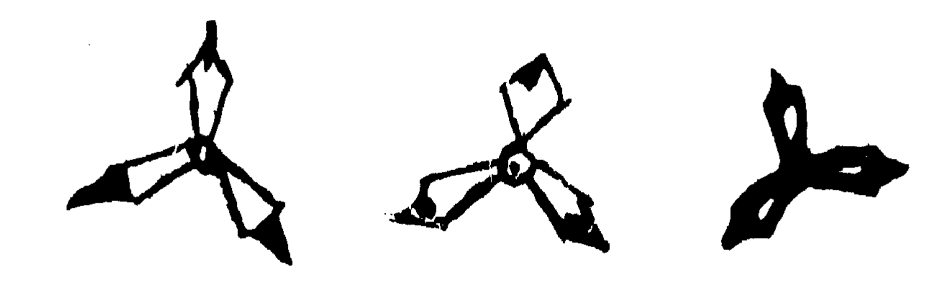
إلا أنه من المؤكد أن مرحلة الحروب الصليبية هي انعطاف هام في تاريخ الصناعات الحربية والعلوم العسكرية. بحكم اشتداد هجمة الفرنج، وزيادة الطلب على السلاح. وباعتبارها أصبحت ساحة تجارب حقيقية للأسلحة المستخدمة والمبتكرة.

مهما يكن فإن الخبرات العلمية والمهنية التي تراكمت في المجتمع العربي تم تطعيمها بخبرات شعوب الشرق الإسلاميّ، وتداخلت مع تلك القادمة مع غزوة الفرنج الأولى، لتشكل قفزة نوعية في الصناعات الحربية وانعطافاً في مسيرتها. لقد جاءت الإمدادات من مختلف المقاطعات العربية والإسلامية ومن ضمنها الأسلحة الجاهزة، والمواد الخام اللازمة لصناعتها. وتقاطر الفنيون والصناع. فجيء من الموصل بالتروس والرماح والنفط الأبيض. وكذلك أرسل أمير المؤمنين الناصر لدين الله من بغداد العتاد: «عملان من النفط وتوقيع بعشرين ألف دينار تقرض من بعض التجار على الديوان العزيز، خمسة من الزراقين المتقنين صناعة الإحراق بالنار»[٢].

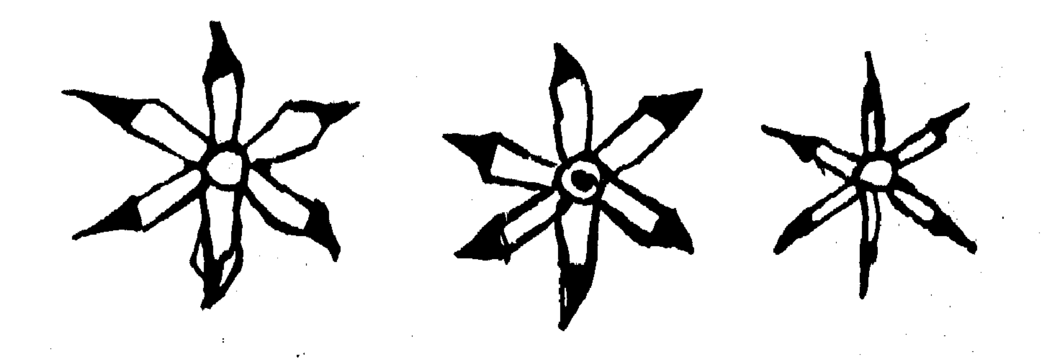
ويبدو أن الأسلحة كانت تصنع في مشاغل ثابتة في مراكز المدن الكبيرة والعواصم، ولكل مدينة أسلوبها في العمل تطبع أسلحتها بخصائص فريدة، حتى أصبحت السيوف تنسب



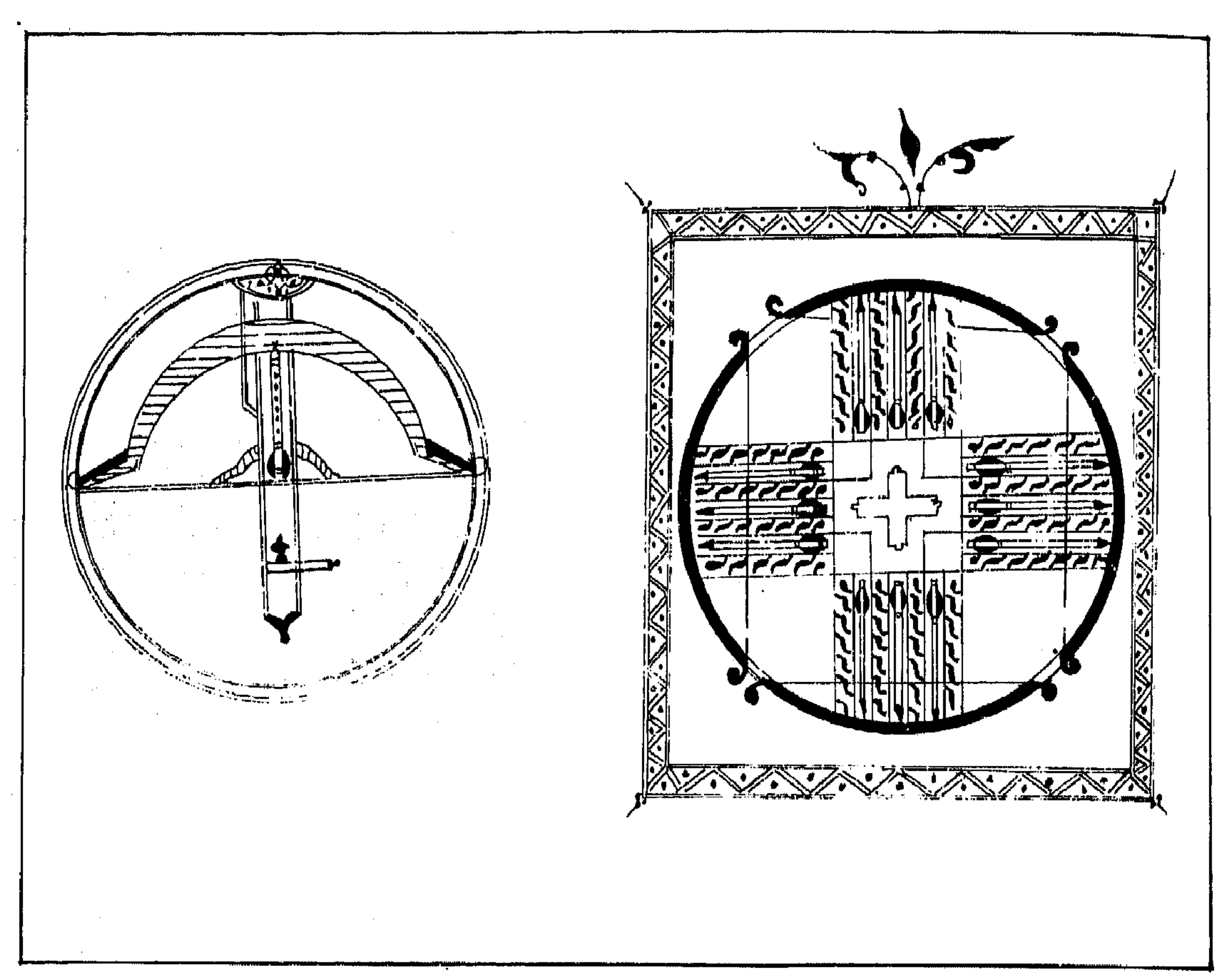
□ دروع فرنجية.



وتكوينها ان تكون لها ابدا شوكة قايمه
وشوكتان ثابتة في الارض كيف ما رميتها
وقد تعمل مسدسة وتكوينها ان ابدا لها
ثلث شوكات قايمه على وجه الارض وتقعد
في الارض على ثلثة شوكات كيف ما رميتها وهذه
صورتها



□ الحسك «الاشواء» وهي الغام سطحية.



□ برج رشاش «مسقط» افقي.

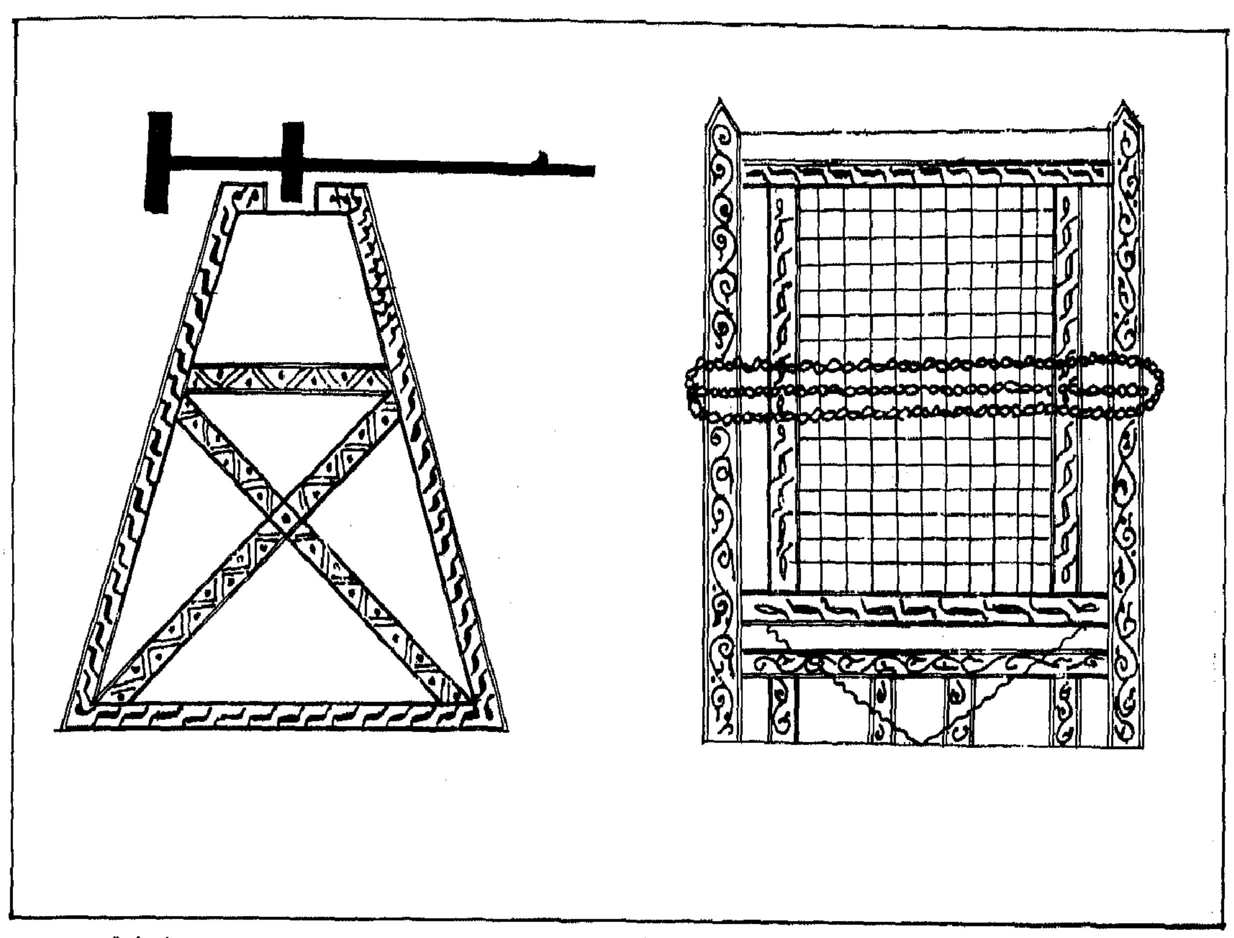
□ ترس تطلق من داخلها سهم.

إلى أماكن صناعتها، كاليمانية والدمشقية الشهيرة. لذلك عمد الأيوبيون إلى الاهتمام بهذه الحرفة والإشراف على مراكز إنتاج الفولاذ وسكب السيوف في دمشق، ثم إدارتها من قبل الدولة(٣)، إضافة إلى طريقة ميدانية للصناعة، كورشات ملحقة بقطعات الجيش. والتي كانت وظيفتها أقرب إلى الصيانة، أو لتركيب الآلات والعدد التي تحتاج إلى تحضير في ساحة المعركة.

وهذه المجموعات الفنية كانت تستفيد من الأسلحة المغتنمة من الفرنج، فتدخل حسناتها على أسلحتها وتعيد صناعة التالف منها خاصة معدني الحديد والنحاس. ففي معارك عكا عندما تمكن المسلمون من حرق الدبابة ــ الكبش استولوا على المعدن الداخل في تركيبها لإعادة سباكته من جديد: «وقطعوا رأس الكبش، واستخرجوا ما تحت الرماد من العدد بالنبش، وحمل كل من الحديد ما أطاق حمله»(٤).

فيمكن القول أن التجهيزات الحربية عند الطرفين كانت متقاربة من حيث المستوى التقني والأداء القتالي ولم نستنتج من المصادر والوثائق التي توفرت لدينا أنه تم الاستئثار من أحد الجانبين بنوع أساسي وهام من الأسلحة المتطورة دون الطرف الآخر. ولكن يبدو أن الاحتكاك المباشر بين أصناف الأسلحة جاء لصالح المسلمين حيث أدخلوا مميزات السلاح الفرنجي بسرعة أكبر على سلاحهم، لكون المعارك كانت تدور على أرضهم ولقرب مشاغل أسلحتهم وتواجد الصناع والمهندسين في المعارك.

ظهرت في تلك المرحلة مؤلفات عديدة، كتبت في الفروسية وفن الرماية والإدارة والتكتيك العسكري حتى جاءت على حساب تلك المؤلفات المختصة بدقة في الأسلحة، نذكر منها (التذكرة الهروية في الحيل الحربية) لعلي بن أبي بكر الهروي، وهو كتاب جامع للمسائل المتعلقة بإدارة

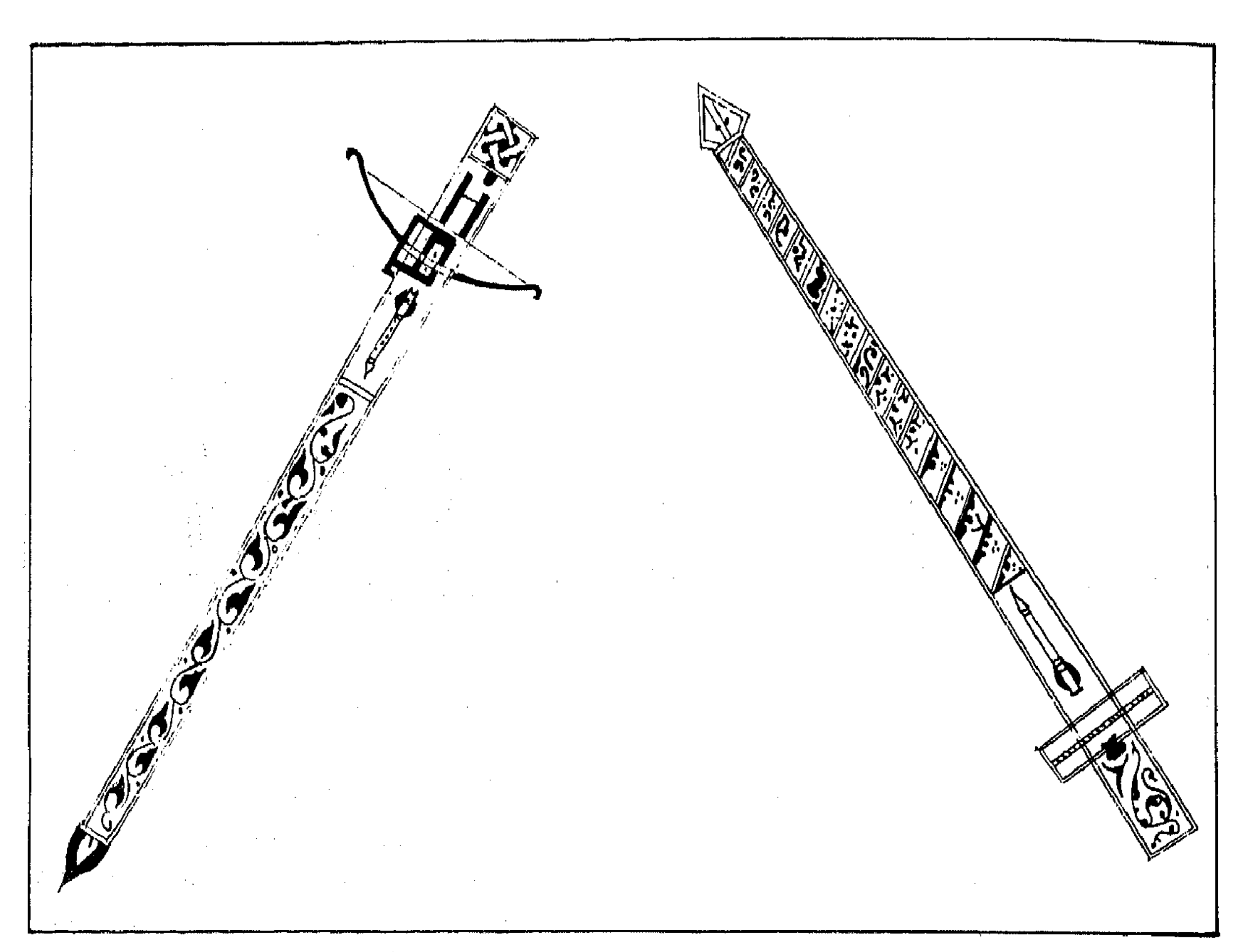


□ ستارة برجية

□ منجنيق عربي.

شؤون الدولة وتعيين القادة، والسياسة العسكرية والتعبئة والتجسس والإعداد: «... ولا يهمل أمر الصناع والمقدمين كالمعمارية والمنجنيقية والجرخية والزراقين والترسة والنقابين. ويجب على السلطان أن يتفقد خزائن السلاح والسيوف والرماح والكبودة والزرد والعدد، والتراس والحبوات والجواش، والجفتيات، وجياد الطوارق والحراب، والقسي وأوتارها والنبل والحسك وآلة النقوب والكلاليب للحروب، وأخشاب المنجنيقات والعرادات وحبال القنب، وكلما يطلب من آلة الحرب وكثرة الحجارة الكبار والكفيات الصغار، والحلق والمسامير والزفت والقار والكلس وجلود الجواميس والجمال والبقر والأوعال، والنفط والته والقدر وحوائجها، وليعتبر الأهراء وما فيها من الحبوب، كالحنطة، والشعير والعدس والجلبان وبيوت الأتبان، ويعتبر المخازن وما فيها من الملح، والأسمان والزيوت والأدهان وكثرة الشحوم، والنمك سود من اللحوم والكبود المملحة والأطراف المشرحة...»[٥].

وإلى جانب هذا الانتعاش النظري والإرشادات القيمة، تم التشجيع أيضاً في المجال التطبيقي الميداني عن طريق الاهتمام بالحرفيين والفنيين المتخصصين في مجال صناعة وتركيب السلاح والقذائف والذخيرة، ومنح المكافآت لمن يقوم باختراع أو أي استنباط في هذه المجالات. ففي معرض حديثه عن حريق أبراج الفرنج في عكا يقول العماد الكاتب: «وكان سبب الحريق أن رجلاً يعرف بعلي ـ ابن عريف النحاسين بدمشق ـ كان استأذن السلطان في دخول عكا للجهاد، وأقام باذلاً للاجتهاد وغُري بعمل قدور النفط وتركيب عقاقيره، وتعيين كل نوع وتعيير مقاديره والناس يضحكون منه، ويفضون عنه ويقولون (هذا يضع ماله فيما لا يعنيه، وما هذا الهوس الذي وقع فيه) وهو يعد لذلك العمل الآلات، ويجد في تلك الأدوات ويكثر القدور، ويرتب الأمور»[٦]. إلى آخر الرواية حيث يتمكن من إحراق الأبراج فينال التقدير والمكافأة من السلطان. كما يبين ابن شداد، أن السلطان

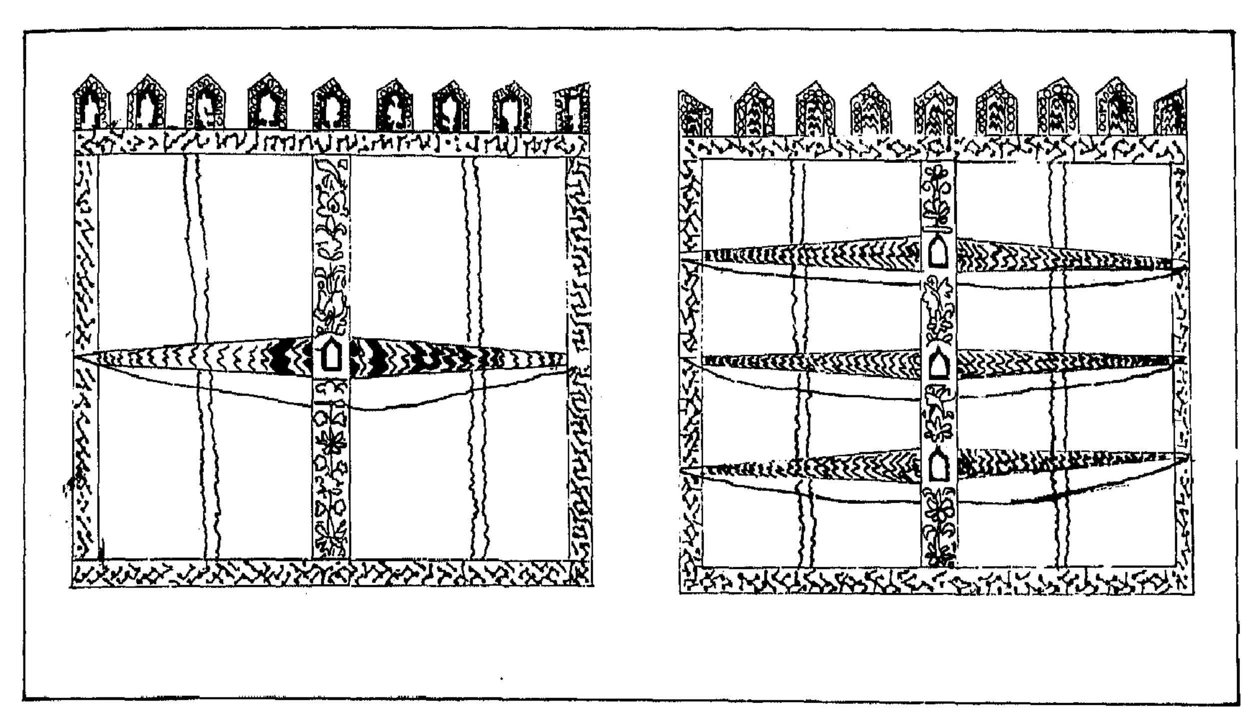


□ رماح تطلق في داخلها سهام

كثيراً ما كان يشرف على نصب المناجيق: «ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها وقد قال لا ننام الليلة حتى تنصب لنا خمس مناجيق ورتب لكل منجنيق قوماً يتولون نصبه وكنا طوال الليل في خدمته والرسل تتواصل تخبره بأن قد نصب من المنجنيق الفلاني كذا ومن المنجنيق الفلاني حتى أتى الصباح وقد فرغ منها ولم يبق إلا تركيب خنازيرها عليها وكانت من أطول الليالي وأشدها برداً ومطراً»[٧].

إن تضافر العوامل وتهيئة الظروف أدت في المحصلة إلى تبلور المعارف والمفاهيم العلمية النظرية وترسخت طرائق علمية لصناعة الأسلحة. فالنهضة العلمية ــ العسكرية الأيوبية الجديدة اعتمدت على المستوى المتطور الذي وصلت إليه المعارف والعلوم العسكرية في الدولة الفاطمية (المراحل الأخيرة)، ونخص بالذكر المهندس الحربي أبو الحسن بن الأبرقي الإسكندري. وبالرغم من قلة أو ندرة المعلومات المتوفرة عنه، وكما يبدو كان في خدمة الفاطميين، ويعمل في صناعة وتصميم السلاح في مدينة الإسكندرية. فأهم مصدر علمي عن صناعة السلاح في العهد الأيوبي كتبه مرضي بن علي بن مرضي الطرسوسي «تبصره أرباب الألباب وكيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء». وهو بدوره مجهول الهوية مثل أستاذه الاسكندري بالرغم من أننا في صدر المخطوطة[٨] نلاحظ أنه يسبق اسمه كلمة (مملوك) ولكننا لا نعتقد بصحة ذلك، فهو دارس تطرق لكيفية صناعة السلاح وقد سافر من أجل ذلك لتلقي العلم وخاصة إلى الإبرقي للتعلم منه وربما إلى أماكن أخرى: «أحد من سافر إلى جناب من ألف هذا الكتاب...»[٩].

ثمة فصل هام من هذا المخطوط باسم (ذكر فضيلة الرمي وأوصافه) متخصص في علم الرماية بالقسي، يذكر فيها بأسباب أسماء القسي وأنواعها وطرائق الرمي بها، بمختلف الوضعيات وخاصة تلك التي كانت تنسب إلى مشاهير

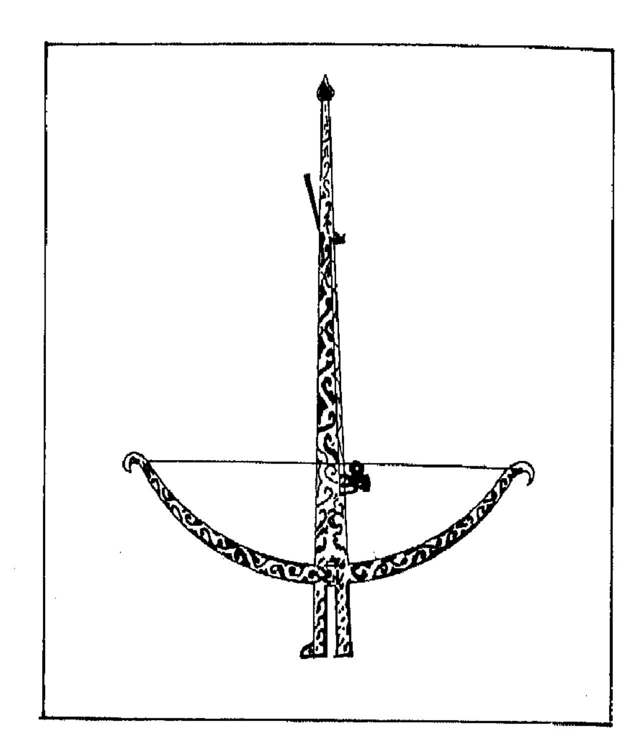


□ قوس بثلاثة مجاري.

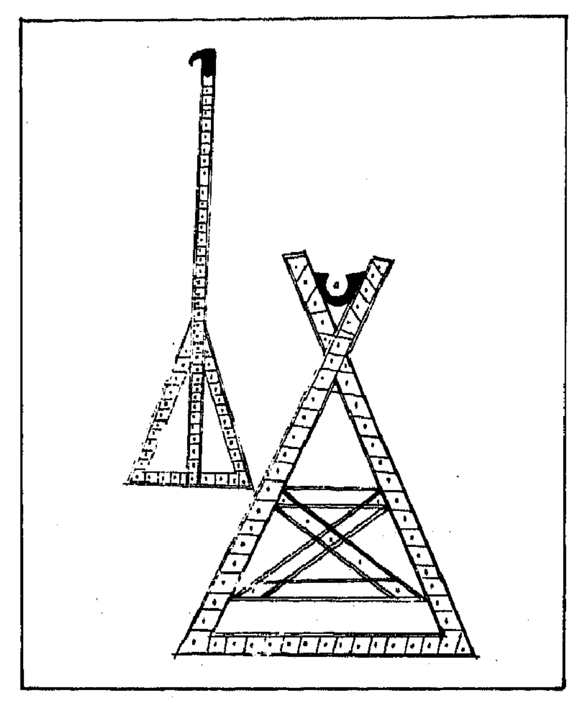
□ قوس بمجرى واحد.

الفرسان، مع ذكر نموذج الرمي وصاحبها: «منهم محمد بن الحسن الهروي وكان يتربع بإزاء العلامة ويضع رجله اليسرى في اليمنى في التربيع ويجعل ثندوته اليسرى بإزاء العلامة..». ثم يعطي توجيهات لتأمين الدقة في التصويب: «إذا أردت أن ترمي الفارس الواقف فاجعل إشارتك قرب بوص سرجه فإنه إذا زاد سهمك أصاب الفارس وإذا نقص أصاب الفرس...». ويتحدث عن القوس العربية وكيفية تجربتها وقياس شدتها، أي قوة دفعها: «يجب أن يكون طول القوس العربية ستة أشبار ونصف شبر الرامي وأقوى القسي العربية ما بلغ وزن جره مائة وعشرين رطلاً وأضعفها ما كان وزن جره خميس رطلاً والوسطى ما بينهما وصفة معرفة أوزان القسي أن تأخذ القوس فتوترها وتعلقها في وتد شديد في الحائط... خذ نشابة وضع في فُوقِها الوتر والزقها بجانب الديمك بخيط شداً رخواً ثم أشدد على الوتر عند فُوق النشابة بسير وثيقة محكمة جداً ثم علق بالشرابة ألواح رصاص كلما غلقت لوحاً نظرت إلى مقدار ما ينزل من النشابة فتزيد لوحاً ثانياً ولا تزال تفعل ذلك إلى أن ينتهي رأس النصل إلى نصف الديمك فإذا بلغت إلى هذا الموضع خططت الألواح واحداً واحداً وتركتها ترجع على مهل إلى أن تعود موترة ثم تنظر كم وزن الألواح التي علقتها على الحرير وصحة الوزن فما كان مبلغه من الأمناء والأرطال فهو مقدار قوة تلك القوس وقوة من يجرها»[١٠]. وكما رأينا فإن قوة التوتر أو الدفع للقوس كانت تقاس بتلك الطرق التجريبية الفيزيائية الدقيقة.

أما قمة التكنولوجيا العسكرية العربية في تلك المرحلة وربما في كل تاريخها، تتجسد في صناعة القسي وآلات الرمي الوترية الزيارة (التي تقذف بفعل قوة التوتر) بمختلف أصنافها وأنواعها. وأهم تلك الأنواع هو القوس الزيار. سلاح متوسط ذو قوة دفع كبيرة جداً، ما يعادل عشرين ضعفاً قوة القوس الفردي العادي. والذي يمكن تركيزه على الأبراج أو نقله إلى ساحة المعركة. وتقسم إلى قسمين الأول بخانة (مجرى) واحد، أي يطلق سهماً واحداً. والآخر بثلاثة مجاري أي يمكن له إطلاق ثلاثة أسهم بالتتابع أو دفعة واحدة وأسهمها كبيرة وقد تكون من السهام الخطافة (قذائف بعيدة المدى قابلة للاشتعال والإحراق) «وأقربه إلى التحقيق من أنواعها ما وصفه لي الشيخ الأبرقي، حتى أنه بجودة قريحته وفرط ذكائه... وصف لي قوساً منها استخرجها يكون مقدار حيلها جر عشرين رجلاً يجرها بحيلة. عملها رجل واحد ويرمي عنها أشد الرماية».



□ قوس تقذف القارورات



□ منجنيق حربي

وقد ذكر الطرسوسي اختراعاً آخر، وهو برج رشاش لرمي السهام في مختلف الجهات بكثافة وكذلك تقوم بدور الخدعة العسكرية. ولكن ليس لدينا ثوابت بأنه تم صنعها أو استخدامها في إحدى المعارك أو الأماكن. ويبدو أنه مجرد تصميم هندسي ومشروع متطور لصناعة آلة قاذفة: «وذكر لي أيضاً الشيخ أبو الحسن الأبرقي المذكور أنه تعمل أربع قسي جرخ في برج له أربع جهات ينصب في كل جهة منها قوساً ولكل منها مجراة تنتهي الأربع مجاري إلى قفل واحدة. ولكل مجراة فيها ثلاثة سهام أو أربعة ويرمي بهذه القسي الأربعة رجل واحد تخرج في دفعة واحدة ستة عشر سهماً...».

ويتضاعف القسي والنشاب تتضاعف الجهات. ويرمي بجميع ذلك رجل واحد فيظن أن في البرج رجالاً بعدد ذلك النشاب وهذه صفة ما ذكر وأوجب على نفسه عمله إذا دعي لذلك». وقائمة الأسلحة والمخترعات طويلة وخاصة القسي لكننا سنشير إلى تلك التي تطلق قارورات النفط لأهميتها وهي في الواقع قريبة من حيث آلية الحركة والقذف للمدافع التي ظهرت من بعدها.

إن الأهمية التي أولاها الصناع في تلك الفترة للسهام دفعتهم لابتكار أساليب متطورة لصناعة أسلحة متعددة الوظائف. وذلك كإدخال القسي إلى داخل أسلحة أخرى كالرماح المفرغة التي تطلق السهام من داخلها كالبنادق المعاصرة — ومن الواضح أنها فكرة بدائية للسبطانة — فتم بهذه الطرق زيادة الفعالية القتالية للسلاح كأداة متعددة الوظائف وكخدعة حربية أيضاً، وبنفس الطريقة تم اختراع ترس يحوي في داخله عند القبضة، قوساً صغيرةً تطلق سهماً من فتحة مخفية في منتصف الترس. فتشبه بذلك مسدس معاصر مخفي: «الشيخ أبو الحسن الأبرقي عمل ترساً وفي باطنه قوس وبيد حامله سيف يقارع به خصمه فإذا لاح له انكشاف منه أخلت القوس فخرج السهم من كوج الترس الذي في وسطه فيصيب الخصم من حيث لا يعلم». ومن صياغة النص نعتقد أن الأبرقي صنعها بنفسه وأدخلها في مجال الاستخدام.

ويتابع الطرسوسي ذكر طرائق صناعة الأسلحة وإعداد القذائف بأسلوب علمي سهل ولغة واضحة. كقدور النفط الفخارية، والتي تصنع من مزج نسب محددة — نسبة المزج هي الأساس العلمي ومفتاح الصناعة — من المواد الكيميائية. وتحدث بإيجاز عن أصناف أخرى مختلفة من الأسلحة. كالدبابة والأبراج والستائر. أما اللافت للنظر فإنه بيّن كيفية صناعة

أشواك معدنية (حسك)، وبمعنى آخر ألغام سطحية تعوق حركة الفرسان وتدخل في أرجل الخيل.

أما بالنسبة إلى صناعة ونصب المنجنيقات، فيقسمها إلى ثلاثة أنواع:

١ ــ العربي.

٢ ــ الفارسي وهو التركي. وربما يكون الصيغة والشكل الأولي لنوع قره بقري.

٣ ــ الإفرنجي ــ من الواضح أنه مقتبس عن الإفرنج.

وبعد هذا الاستعراض السريع لا بد لنا أن نصل إلى نتيجة مؤكدة، وهي أن توفر السلاح ونوعيته قد سهل كثيراً مواجهة الفرنج. حيث تم سد الكثير من الثغرات. وحققت النهضة الصناعية اكتفاء ذاتياً وصل إلى مستوى التوازن الاستراتيجي. فالتكنولوجيا العسكرية تحولت إلى قوة فعالة وقدرة قتالية تضافرت مع باقي العوامل. من الإيمان بالقضية، وروح التضحية، وقدسيّة الدفاع عن الوطن، ووحدة العرب والمسلمين تحت قيادة صلاح الدين..

ولا يمكن لنا إلا أن نذكر مرة أخرى أن التقنية العالية التي وصلت إليها صناعة القسي بمختلف أنواعها والإجادة في استخدامها، شكلت عاملاً من أهم العوامل التي أدت إلى نصرة المسلمين على الفرنج سواء في المعارك التي جرت في العراء كمعركة حطين، أو تلك التي دارت حول المدن، في القلاع والحصون. فتفوق العرب كان واضحاً في إنتاج واستخدام الأقواس والأسهم، وإدخال التعديلات عليها حتى تتمكن من خرق دروع وجواشن فرسان الفرنجة، الذين كانوا أشبه بحصون متحركة مطوقة بالحديد من الرأس إلى أخمص القدم. •

المراجع حسب ورودها في النص

الهوامش

(١) المخصص لابن سيده ــ كتاب السلاح ص ٦ حتى ٧٦. طبعة بولاق، مصر ــ ١٣١٨هـ.

(٢) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. جمال الدين محمد بن سالم بن واصل. تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ــ ١٩٥٣ ص ٣١٤.

(٣) مجلة تاريخ العلوم العربية، العدد ١/١٩٨٧، و. أحمد يوسف الحسن ــ اعتمد الباحث على صبح الأعشى للقلقشندي. وتاريخ دمشق ــ ابن عساكر.

(٤) الفتح القسي في الفتح القدسي. عماد الدين الكاتب الأصفهاني ــ ص ٤٣٣.

(٥) التذكرة الهروية في الحيل الحربية ــ علي بن أبي بكر الهروي (ت ٦١١هـ). تحقيق مطيع المرابط ــ وزارة الثقافة ــ دمشق ــ ١٩٧٢ ــ ص ٨٤.

(٦) الفتح القسي ص ٣٧٠.

(٧) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ــ ابن شداد ــ طبعة مصر ١٩٠٣ ــ ص ١٦.

(٨) تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة من الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء. كتبت بخط محمد بن سلمان ٧٠٩هـ ١٧١ ورقة، موضح، حجم وسط، آيا صوفيا باستانبول ٢٨٤٨ ــ محفوظة في معهد التراث ــ جامعة حلب ــ في مكتبة الميكروفيلم تحت رقم / ٥ /.

(٩) في مقدمة المخطوطة وردت بعد اسم الطرسوسي مباشرة.

(١٠) مجلة المعهد الفرنسي في دمشق، عام ١٩٦٨ ــ نشر هذا الفصل وعني به ودرسه ANTOINE BOUDOT-LAMOTTE ص ١٥٣.

أهم مراجع البحث

(*) حطين ــ مسيرة التحرير، د. سهيل ذكار.

(**) الأنيق في المناجيق ــ ابن أرنبغا الزردكاش ــ تحقيق الدكتور إحسان هندي ــ معهد التراث ــ جامعة حلب ١٩٨٦.

(***) القلاع أيام الحروب الصليبية ــ فولففانغ مولير ــ فيز ــ ترجمة محمد وليد الجلاد.





• فارس صليبي